

تاريخ
آداب اللغة العربية
في العصر العثماني

✽ تأليف ✽

(حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ احمد الاسدي)

وهو مذكرة تشمل الدروس التي ألقاها على طلبة
السنة الثالثة من مدرسة دار العلوم الخديوية من
السنة المكتبية ١٩١١ - ١٩١٢

وقد سمح حضرته بطبعها ومباشرة ملتزمه

محمد فراسي المتكفاني

من طلبة السنة الرابعة بالمدرسة

✽ حقوق الطبع محفوظة لملتزمه ✽

(الطبعة الاولى بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر)

سنة ١٣٣٠ هـ - ١٩١٢ م

تأليف
آبَابُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

فِي الْعَصْرِ الْعَبْدَانِيَّ

﴿ تأليف ﴾

(حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ احمد الاسكندري)

وهو مذكرة تشمل الدروس التي ألقاها على طلبة
السنة الثالثة من مدرسة دار العلوم الخديوية من
السنة المكتبية ١٩١١ — ١٩١٢

وقد سمح حضرته بطبعها ومباشرة ملتزمه

محمد فراسي المتكفاني

من طابة السنة الرابعة بالمدرسة

﴿ حقوق الطبع محفوظة لملتزمه ﴾

(الطبعة الاولى بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر)

سنة ١٣٣٠ هـ - ١٩١٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أما بعد﴾ حمد الله على مزيد نواله ، والصلاة والسلام على محمد وآله ،
فقد أسعدنا الحظ بتلقى مقرر السنة الثالثة في دروس آداب اللغة العربية من
حضرة أستاذنا الفاضل الشيخ أحمد الاسكندري ، فأملينا علينا مذكرة
لا نكذب الله ان قلنا انها حوت زبدة فنون الأدب في عصر الدولة العباسية ،
فاقترحنا على حضرتته ان يطبعها ليعمم نفعها ، فأظهر الاستهانة بطبع عجالة
كهنه ليست الا جزءا من كتاب ، ووعدنا اذا أتيح له تدريس جميع مقرر
المدرسة في الأدب ان يستصفي ملخصا من كتابه الكبير الذي يعاني تأليفه
في الأدب ، ويطبعه لجمهور الطلبة . ولم يجيبنا الى أكثر من ذلك . ولكننا
أشفقنا من ضياع هذه المذكرة وتركها فيها للمغيرين والمنتحلين ، فاستأذناه في
طبعها على نفقتنا ونشرها بين الطلبة ، فأذن لنا بشرط ألا يباشر طبعها بنفسه
وان تكون عهدة تصحيحها ملقاة على عاتقنا

فاستخرنا الله تعالى و بذلنا كل جهدنا بجعل طبعها مطابقا لأصلها من
كل وجه بقدر الامكان . فاذا عثر القارئ على شيء من التصحيف أو
التحريف (ونرجو ألا يكون) فذلك مما ندد عن حرصنا ، وخرج عن وسعنا ،
وعسى ان نكون بذلك قد ألقينا لنا دلوا بين دلاء المشتغلين بخدمة
اللغة العربية الشريفة . حرسها الله وخلدها أبا الأبدن آمين

محمد فخرى المتكفاني

العصر العباسي

من عصور نمو العربية وارتقاء آدابها وعلومها

وينقسم الى عصرين عصر تقدم وعصر وقوف

العصر الأول

عصر التقدم

١٣٢ - ٣٣٤ هجرية

ان تاريخ لغة أمة وآدابها يرتبط شدة الارتباط بالحوادث السياسية والدينية والاجتماعية التي تقع بين ظهراني هذه الأمة.

وسقوط دولة بني أمية وقيام دولة بني العباس من الأمور التي نشأ عنها

كثير من الحوادث المختلفة ذات الأثر البين في اللغة والعلم والأدب

ولذلك ناسب أن يجعل زمان ذلك مبدأ لعصر جديد من عصور حياة

اللغة ونموها ، غير أن هذا العصر لم يدم أكثر من قرنين أي الى سنة ٣٣٤

حين وضع بنو بويه من الدَّيْلَم أيديهم على شؤون الملك والخلافة ببغداد ،

ودخل في قبضتهم معظم الممالك الشرقية الاسلامية ، فتلاه عصر آخر أخذ

بعده سلطان العرب في الشرق في التناقص شيئاً فشيئاً . وهو أول عصور

اضمحلال العربية وعلومها وآدابها . وابتدأت الآداب الفارسية من ذلك

الحين تدبُّ فيها الحياة حتى نُشرت للوجود ولكن بصورة تغاير صورتها زمن

الأكاسرة . وبقيت العربية تدافع سيلها ثم سيل التركيَّة الجارف في الشرق

حافظت لنفسها منزلة اللغة الرسمية حتى سقطت بغداد في يد التتار ، فكان ذلك آخر العهد بغلبة سلطانها على الشرق ، ولكنها خلفت فيه ديناً وشرائع وآداباً لا تمحوها الأيام ، ولا تنسخها الحوادث ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها . ونبدأ بحالة اللغة في العصر الأول من عصرى الدولة . فنقول :

حالة اللغة العربية في ذلك العصر

كانت العرب في أواخر دولة بني أمية قد فتحت معظم المعروف في ذلك العهد من الدنيا القديمة ، فكانت مملكتهم تمتد من الهند والصين الى جبال البرانس من أوربا ، وكانت جمهورتهم في كل مملكة يفتتحونها لها السلطان والولاء على سكانها ، ودينها هو الغالب ، ولغتها هي الرسمية ، ولذلك تسارع الاعاجم والموالي الى تعلم أحكام الدين وعقومه وحفظ اللغة العربية وضبط علومها تقرباً للغالب واستعداداً للرزق . فنبغ منهم كثيرون كانوا في طليعة العلماء والشعراء والخطباء والوعاظ والقصاص والمحدثين ، ظهرت آثارهم في صدر الدولة العباسية ، وزاد هذا الامر تمكناً تعصب بني أمية للعرب والعربية

فلما هم بنو العباس بتأسيس دولتهم لم يروا في العرب من الانصار مثل من وجدوه من الفرس الناقمين على حكم بني أمية ، فثاروا بهم واكتسحوا ممالك بني أمية ، وأنشؤا مملكة قوية كان للفرس فيها من النفوذ قسط وافر ، وأصبحت عاصمتها بغداد أقرب الامصار الى بلادهم ، وزادت الثقة بالاعاجم فاستخدمهم الخلفاء والامراء في كل شئ ، من سقاية الماء الى قيادة الجيوش والوزارة فنشأ من ذلك عدة أمور ، منها ما يتعلق بأصول الاجتماع كالامور الآتية :

(١) دخول العناصر الفارسية والدَيْلمية والتركية في تكوين هيكل الدولة وتمازجهم مع العرب بالتزاوج والتناسل لضعف النُّعرة العربية في كبرائهم ومنحهم الشعوب الوطنية من المزايا ما لا يتيسر للعربي نيله

(٢) ضعف النفوذ العربي في أقاصى خراسان ، فجلاعتها العرب وتراجعوا الى العراق بالتدريج ، ومن بقي منهم بالقاصية غلبت عليه العجمة وانقرض ،

فأخذ شأن العربية في التناقص في شرق خراسان وخصوصا بعد زمن المأمون . (٣) ظهور المقالات المختلفة في الاحاد والسياسة ، لان الحرية التي مُنحت لها

الأعاجم أظهرت منهم فرق الشعوبية والزنادقة ، وولدت فيهم فكرة استرجاع ملكهم ، وولجوا لذلك عدة أبواب ، بعضها أُرتج في وجوههم ، وبعضها افتح لهم :

(٤) امتزاج المدنية الآرية بالمدنية السامية ، وترتب على هذا الامتزاج شيوع عادات وأخلاق وتصورات وخيالات واعتقادات وأمراض

اجتماعية لم تكن فشت في العرب بعد . وكان لكل ذلك أثر بين في اللغة لفظها وشعرها وكتابتها وتأليفها . وحاول الخلفاء مقاومتها بنشر العلم

ومعاوضة الفضيلة والفتك بالزنادقة والملاحدة فأجدى ذلك بعض الشيء . ونشأ عن ذلك عادات وأخلاق واعتقادات ممتزجة ضاعت معها أصول المدينتين .

ومنها أمور تتعلق باللغة والادب ، وانما موضوعنا ما يرتبط باللغة العربية

وما طرأ عليها وعلى آدابها من التغيرات بهذا الانقلاب .

ويرجع التغير الطارىء على اللغة في هذا العصر الى ثلاثة أمور

(الاول) ما يتعلق بالاغراض التي تؤدبها اللغة

(الثاني) ما يتعلق بالمعاني والتصورات الفكرية

(الثالث) ما يتعلق بالالفاظ والاساليب

اغراض اللغة

كانت أحوال الدولة العربية في عصر بني أمية تقرب من الغضاضة والبداهة ، لاستقلالها بالآداب العربية الاسلامية ، فلم تكن اللغة تتناول من الاغراض غير ما يتعلق بالدين والمعيشة الساذجة . فلما امتزجت المدنية السامية بالآرية في الدولة العباسية تمام الامتزاج ، تناولت اللغة اغراضا كثيرة لم تُعهد فيها قبل بنقل علوم الامم المغلوبة وآدابها وعاداتها ، ومن وجهة أخرى كان المسلمون من العرب وغيرهم قد ارتاحت عقولهم ، ونضج استعدادهم لوضع القوانين واستنباط أحكام الشريعة من أصولها ، وتدوين العربية لحفظ اللسان والدين فكان من تلك الاغراض ما يأتي

- (١) تدوين العلوم الشرعية واللسانية والعقلية
- (٢) الترجمة من اللغات الاجنبية الى العربية
- (٣) وضع اصطلاحات الصناعات المختلفة
- (٤) وضع اصطلاحات الدواوين ونظام الدفاتر والكتب والرسائل
- (٥) ضبط الامور السياسية من المعاهدات والمشارطات والبيعات
- (٦) ازدياد وصف الاشياء النفيسة كالقصور والآنية والحلّي والرياحين والثمار ومجالس الشرب والمنادمة ومسايد الوحوش والطيور والسماك واللعب بالكرة والصولجان وغير ذلك

- (٧) التهناني والتهادي في الاعياد الفارسية كالنيروز والمهرجان
 (٨) التغني والمجانة والخلاعة والسخرية والطنز
 (٩) المحاضرة والمناظرة والبحث والجدل والتقاضى وتدريس العلوم
 (١٠) التزهيد في الدنيا والوعظ والقصص

المعاني والتصورات الفكرية

ان الامور التي حدثت في الانقلابات السياسية والاجتماعية كان لها نتيجة ظاهرة في الحركة الفكرية والخيالية للمتكلمين بالعربية . ظهر ذلك في عباراتهم وأشعارهم بصور مختلفة فمن ذلك

(١) الاكثار من الحجج والبراهين الشعرية والعقلية واتحاء مذاهب الفلاسفة في الشعر والخطابة ولا سيما بعد عصر ترجمة الكتب

(٢) التصورات الغريبة والمعاني الدقيقة الظاهر أثرها في شعر بشار وأبي نواس وأبي العتاهية ومسلم وأبي تمام والبحتري وأضرابهم . وفي مثل كتابة ابن المقفع والعتابي وعمرو بن مسعدة وسهل بن هرون والجاحظ ، والاجوبة المسكتة لاجمّاز وأبي نواس وأبي العيّن وأبي علي البصير ، وفي دقة الكنايات والرموز والحكم وارسال المثل

(٣) الخيال البديع الظاهر في التشبيهات والمجاز وحسن التعليل ومراعاة النظر في كلام من ذكر وغيرهم

(٤) التهويل والمبالغة في التفضيم من الامور المقتبسة من اللغة الفارسية سيما بعد عصر المعتصم مما حسن اللغة من جهة وشوها من أخرى

ألفاظ وأساليب

ان عبارة اللغة العربية في آخر عصر بني أمية كانت قد دالت الى انتحاء السهولة في اللفظ ، والتفنن في أساليب الكلام والاطالة في الترسل منه وقد أربى الحال على ذلك في النصف الاول من عصر بني العباس بما أدخله الكتاب والشعراء من أبناء الفرس والترك ومترجمي السريان ومن عاشرهم من أبناء العرب من المحسنات البديعية والأساليب المختلفة التي وسعيتها أصول اللغة العربية بصدور رجب ، وازدادت بها وضوحا وفراهة ، ناقلين لها من عبارات بلغاء الفرس والهند واليونان والروم فمن ذلك

(١) انتقاء الألفاظ الرشيقة الممثلة للمعنى كل التمثيل ، لاستعمال الروية وقلة الحاجة الى الارتجال

(٢) ازدياد الميل الى استعمال ألفاظ القرآن ، ومحاكاة أساليبه ، واقتباس آياته ، والاستشهاد بها ، لان الدولة العباسية قامت بدعوة دينية ترمي على زعم زعمائها الى صلاح ما أفسدته الاموية من معالم الدين ، وعظمت من شعائره ، وهتكت من حرّماته . فكانت خطب أبي مسلم وداود وعبد الله ابني علي بن عباس والسفاح والمنصور والمهدي والخارجين على دولتهم من العلويين وكتبهم ومنشوراتهم كلها مفعمة بآي القرآن الكريم ، اما اقتباسا للتبرك والتعبد ، واما استدلالا على تأييد دعوتهم ولو بالتأويل البعيد والاشارة الخفية . واطرد ذلك في أكثر اشعار الدولة من البنود والاعلام والطرز والسكة

(٣) التوسع والاكثر من ألفاظ التشبيه والمجاز والتمثيل والكناية

والمحسنات اللفظية كالجناس والطباق وغير ذلك

(٤) التوسُّع في ادخال ألقاب التعظيم على أسماء الخلفاء صوتنا لاعلامهم الشخصية من الابتذال ، وحجبا لها عن امتنانها في السنة السوقية ، فتلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد والامين والمأمون والمعتمد بالله والواثق بالله والمتوكل على الله الى آخر الدولة . ثم سرى ذلك في وزراءهم وأحرارهم بعد ضعف الخلفاء

(٥) دخول كثير من الكلمات الأعجمية في أسماء ألوان الاطعمة وأنواع الآنية والفُرُش وأدوات الصناعة بنوع من التحريف لتوافق مخارج الحروف العربية وأبنية كلماتها . وتسمى الكلمة حينئذ معربة (١)

(٦) وضع كلمات عربية جديدة بطريق المجاز أو الاشتقاق والقياس لاصطلاحات العلوم والفنون والصنائع وادارة الحكومة وآلات الحرب وغيرها (٧) التأنق في صوغ العبارات وجعلها في غاية الاحكام والبلاغة وسهولة التراكيب والتفنن فيها ، وتوخى الألفاظ الرائعة الطنانة ، ونقل كثير من كفيات الاداء في لغات أخرى كالفارسية وغيرها على طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ

(٨) الازدواج في الكلام وربما كان سجعاً

(٩) الاسهاب في العهود والمنشورات والرسائل التي يراد بها شدة التأثير والتهويل ، وتصوير المعنى بعبارات طويلة وجمل مترادفة

(١) التعريب من حق العرب الذين يصح منهم الوضع وقد انقضى عصرهم فلا حق لنا فيه

وعكس ذلك من الأيجاز والتعمق في بلاغة الرسائل القصيرة حتى تصل إلى حد التوقيع بل الرمز والإشارة ، مما يعلم منه أن اللغة في ذلك العصر أوشكت أن تصبح صناعة لا ملكة طبيعية

(١٠) استعمال كثير من ألفاظ السخف والبذاء وعبارات المجنون

(١١) حدوث لغة تأليفية واذغة فنية ، لتعليم العلوم والصناعات ، تقاس

بمقياس المنطق والفلسفة لا بمقياس البلاغة

ولم تحدث هذه اللغة إلا في أواخر العصر الذي نحن بصدد الكلام فيه

وفي العصور التالية له حتى تغلبت على لغة الأدب والبلاغة ، ثم ازدادت

تعمقاً بكثرة تأليف الأعاجم كما سيأتي بيانه

وقصارى القول أن اللغة العربية في صدر الدولة العباسية ضعف شأنها

بالتدرج بين عامة الناس في القاصية الشرقية وقوى في الممالك الوسطى حيث

كان لها من مؤازرة رجال الدولة وتناصر أهل الملة في تدوين أصولها وتوفير

العلماء على استنباط العلوم وترقية الفنون مازادها بلاغة وفراهة ، وأحلها من

الكمال منزلة لم تُسعدِها المقاديرُ أن تتعداها

ولما كان الكلام العربي لا يخرج عن أن يكون نثراً أو شعراً ، والاول ،

أما محادثة ، وأما خطابة ، وأما كتابة ، كان من الملائم أن نُفرد لكل

مبحث موضوعاً يشرح حاله على سبيل الاختصار . والله الموفق

النثر

المجاذبة - أو لغة التخاطب

لم تكفد الامة العربية تمتزج بغيرها من الأمم حتى نشأ الاختلال في لغة أبناء جاليتها ، لنقص ملكة اللغة فيهم ، واضطراب تربيتها بمزاحمة ملكات اللغات الاعجمية لها ، مما اضطر أولى الامر لوضع علم النحو وبلغم من قبض العرب على زمام السلطة في كل شئ ، ودخول أكثر شعوب الممالك المفتوحة في الاسلام المنزل بلسان عربي مبين ، بقي داء العجمة يتفشى ويزداد خطبه بين العامة من الأكرة والصناع ونظرأهم ممن لا يترفعون عن معاينة العجمة من وُضعاء العرب ، ولا يتطلعون الى شرف من العجم ، حتى نشأ في كل اقليم لغة عامية خاصة به مؤلفة من العربية المعروجة بشئ من الفاظ لغة الاقليم الوطنية وأساليبها .

وهذه اللغات العامية استقلت عن العربية وتميزت تميزاً يديناً عنها في الجيل الناشئ في صدر الدولة العباسية بعدو هي حبل العصبية العربية وشدة التمازج بين العناصر حتى أصبحت لسان التخاطب بين عامة الأمم الاسلامية في جميع بقاع الارض ، واذ كان في استفحال أمر هذه اللغة خطر على اللغة الفصحى ونسخها لها ، وهي لسان القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، جزع الأئمة والمتأهلون من أشرف الأمة وذوى النعرة العربية من هذا الهول ، وأشفقوا على القرآن من استغلاق فهمه على الناس ، وطمس معالم السنة ، وهما كل الدين ، فهبوا لمحاربة هذا الوباء بالتحضيض على

التعلم ، وتدوين علوم اللسان ، من اللغة والنحو وضبط أصول السنة والشريعة ،
وبشعوا صورة العامية ، ومقتوا كل من يتكلم بها . ولم يقصر الخلفاء ورجال
الدولة في شد أزرها هذه النهضة والاغداق على الأئمة القائمين بنصرتها بالعطاء
الكثير ، وفتحوا أبوابهم للشعراء وأهل الادب ، وأسألوا عليهم الذهب النضار
وحشدوا في قصورهم أئمة اللسان يؤدبون أولادهم وخاصتهم ، ترفيها للعربية
الفصحى ، وعملا على تخليدها ، وربثاً بأنفسهم أن يدانوا السوقه وخشاش
الناس ، فكانوا أمراء الكلام وفحول البلاغة ، كما كانوا أمراء الملك وسادة
الدولة ، وطرردوا كل قليل البصر بصناعات العربية والفقه في الدين ، وعرف
الناس ذلك منهم فتقربوا اليهم بالعلم والادب واللغة ، ولم يعز على من فاته
شرف الحسب والسلطان أن يتطال اليه بالعلم والادب فتبع فيها كثير من
الموالى والفرس والسريان حتى الجوارى والقيان ، وأضحت لغة تخاطب الخاصة
هي العربية الفصحى . وبالرغم من كل هذه المطاردة للعامية لم يسكن تيار سيلها
الجارف واستمر في طغيانه

نعم انها صغرت عن ان تصير لغة قراءة وكتابة ، ولكنها صبغت بصيغتها
السنة طبقات العامة والدّهءاء في العراق ومصر والشام وشمال أفريقيا والاندلس
منذ ابتداء القرن الثالث ، وأصبحت لغة التعامل والتحدث فيما بينهم كما
أصبت عُرْضةً للاستحالة والتغير حسب تغير الأحوال والعصور
أما لغة التخاطب في فارس وخراسان والسند وما افتتح من ممالك الترك
والديلم والكرج وأرمينية والثوبة وجنوب ولايات أفريقيا الشمالية ، فكانت

بين العامة هي اللغات الاعجمية الوطنية لكل مملكة ، وكانت بين الخاصة سيما أهل الحل والعقد منهم هي العربية الفصحى . وبقيت اللغات الوطنية سائدة في تلك الجهات الى عصرنا هذا . أما لغة التخاطب في جزيرة العرب فبقيت العربية الفصحى الى أواسط القرن الرابع ، وان كانت قبل ذلك اضمحلت فيها القوة الادبية لتناقص العمران فيها

ولا ندرى أمن حسن الحظ أم من سوءه عدم اهتمام اسلافنا بتدوين هذه اللغات العامية وما احتوت عليه من الآداب والافكار، حتى كنا نكون على بينة من تدرجها في أطوار التاريخ ، وحتى نتعرف ما كان عليه عامة العصور الغابرة من الاخلاق والعادات ، اذ هم الشعب الحقيقي لكل أمة ، ولكنهم رحمهم الله أشفقوا من جعل العامية لغة قراءة وكتابة أن تبتز الفصحى ، وتنسخ ظلمها من الوجود (لا قدر الله) مع انها اللسان العام (الاسبرانتو) بين جميع ممالك الاسلام ، فيرتج باب الدين ، وتتقاطع الامم الاسلامية ، فتقتصر كل أمة على كتبها ولغتها ، وفي ذلك من انحلال الروابط السياسية والعلمية والدينية ما لا يخفى

نعم اننا رأينا في بعض الكتب وخصوصا كتب المتأخرين بعض ألفاظ وعبارات وشيئا من النظم باللغة العامية ، وعثرنا على أوراق أثرية من معاملات العوام مكتوبة بالعربية الملهونة ، ولكن كل ذلك لايرينا صورة واضحة لتاريخ هذه اللغات ، لان أكثر الكتب وضع للشداة والخواص من الكتاب لا للعوام ، وفي فصح ثعلب وذيل الفصيح وتصحيح التصحيف وتحرير التحريف للصفدى ونحوها مما ألف في اصلاح العامية كثير من الألفاظ

والتراكيب التي كانت تنطق بها العامة والصحيح غيرها
 هذا ويظهر لمن تتبع أغلاط المولدين أن العامة تكونت من عدة أمور
 كاهلهم الاعراب ، وتوسعهم في نحت الكلمات ، وتوسعهم في قياس المشتقات
 والمصادر وأبواب الفعل والنسب والجموع ، وتحريفهم أو تصحيفهم الكلمات
 العربية ، وادخالهم كثيراً من الالفاظ الأعجمية ، وتوسعهم في أساليب الكلام ،
 من حيث التقديم والتأخير والنفي والاثبات والتعريف والتنكير ونحوها
 وسلوهم كثيراً من طرق التصور والتفاهم المألوفة عند الأمم الأعجمية وغير ذلك ،

الخطابة والخطباء

لما كان قيام دولة بني العباس من الأمور التي نشأ عنها كثير من الانقلابات
 السياسية والمذهبية والاجتماعية ، وكان ذلك يستدعي تأليف العصابات ،
 ودعوة الناس إلى التشيع إلى بني هاشم ، والانكار على ما انتهكه الأموية
 من حرمات الدين ، وكان التفاهم بالعربية الفصيحة والانخداع بالبلاغة
 والشعريات لا يزال متوفراً في صدر الدولة العباسية ، كانت الداعية إلى الخطابة
 متوفرة لتوفر أسبابها ووجود أهلها

ولذلك كان من دُعاة العباسية وقوادها وخلفائها وولاتها خطباء مصارع
 لا يقولون عن اشتهار من نظائرهم في الدولة الأموية ، ولكن لما فترت هذه
 الدواعي باستقرار الدولة واشتد اختلاط العرب بالأعاجم ، وتولى كثير من
 الموالي قيادة الجيوش وعمالة الولايات والمواسم ، ضعف شأن الخطابة لضعف

قدرتهم عليها واقلة المجيبين لها ، لتناقص العناصر العربية في الجند وأهل
التبجدة ، فلم يمض قرن من قيام الدولة حتى بطل شأن الخطابة السياسية والمذهبية ،
وبقيت الخطابة قاصرة على خطب الجمعة والمواسم وخطب الزواج ونحو ذلك
وبقيت الخطابة ببعض أنواعها في البادية زمنا طويلا بعد اضمحلالها
في الأمصار ، لتباطؤ فساد اللغة في جزيرة العرب ، لقلة اختلاطهم بالأعاجم ،
حتى كانت فتن الزنج والقرامطة ، فامتزج كثير من الأعاجم بعرب الجزيرة ،
وضاعت النعرة العربية فيهم ، ودب الفساد الى لغتهم ، فرجعوا الى جهالة لم
تعهد فيهم حتى في عصورهم الجاهلية

وأشهر خطباء هذا العصر كانوا من بني هاشم كداود وعبد الله بن علي
ابن عبد الله بن عباس وأبي جعفر المنصور والمهدي والرشيد والمأمون وعبد
الملك بن صالح ، ومن خطباء الأمصار خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة
ونذ كر بعض هؤلاء وشيئا من خطبهم . فنقول :

داود بن علي

هو داود بن علي بن عبد الله بن العباس . نشأ هو واخوته وكانوا اثنين
وعشرين ولدا ذكرا - في قرية الحُمَيْمَة من أرض الشَّراة من أعمال عَمَّان
في أطراف الشام (الكرك الآن) . وهي قرية كان الوليد بن عبد الملك
أجلى علي بن عبد الله بن عباس وأهل بيته اليها سنة ٩٥ للهجرة غضبا عليه .
وأخذوا علمهم وأدبهم عن أبيهم علي حبر قریش وابن حبرهاو بليغهاووارث
علم أبيه عبد الله بن عباس وعابد أهل زمانه ، كما أخذوا الفصاحة من البدو

النازليين فيهم من قبائل لحم وجذام وتنوح وغسان وقيس ، فانطبت فيهم صفات البدو من الشجاعة والبصر بالقتال و ابا الضيم والاستقلال وفصاحة اللسان والبطش وحب الانتقام ، وجانبتهم صفات الحضرة من الانغماس في الترف والملذات والعكوف على الملاهي .

وكان داود أحد النابغين من اخوته في هذه الصفات ، ويزيد عليهم أنه كان خطيبهم ولسانهم ، فكان أخطب بني العباس في وقته . وعاجلته منيته قبل ان يستطير سلطانه في الدولة .

وروى انه وابنه موسى كانا بالعراق أو غيرها . فخرجا يريدان الشراة فلقهما أبو العباس ومعه أهل بيته ومواليه . فقال داود : أين تريدون وما قصتكم؟ فقضى عليه أبو العباس قصتهم وأنهم يريدون الكوفة ليظهروا بها ويظهروا أمرهم ، فقال له داود : يا أبا العباس تأتي الكوفة مشيخ بنى أمية مروان بن محمد بحرّ أن مظل على العراق في أهل الشام والجزيرة وشيخ العرب يزيد بن عمر بن هبيرة بالعراق في حلبة العرب . فقال أبو العباس من أحب الحياة ذل ثم تمثل بقول الأعرابي
فما ميةٌ ان مئها غيرَ عاجزٍ بعار اذا ما غالت النفس غواها

فالتفت داود الى ابنه موسى فقال : صدق والله ابن عمك ، فارجع بنا نعش أعرابنا ونمت كراما ، فرجعوا جميعاً . فكان عيسى بن موسى يقول : اذا ذكروا خروجهم من الحميمة يريدون الكوفة ان نفرا أربعة عشر رجلا خرجوا من دارهم وأهلهم يطلبون مطالبنا أعظم منهم كبيرة أنفسهم شديدة قلوبهم ولاه أبو العباس عقب بيعته بالكوفة ولاية الكوفة وسوادها ثم ولاه

امارة الحاج في هذه السنة ، وولاه معها ولاية الحجاز واليمن واليامة ، فقتل من ظفربه من بني أمية في مكة والمدينة

وحج بالناس في هذا العام وهو عام سنة ١٣٢ هـ وهو أول موسم ملكه بنو العباس وخطبهم خطبة مشهورة . ثم ذهب عقب الموسم الى المدينة فتوفي بها بعد شهرين من قدومه اليها في شهر ربيع الأول

ومن خطبه خطبته التي خطبها يوم بيعة أبي العباس على منبر الكوفة وهي :
 « الحمد لله شكراً شاكراً الذي أهلك عدونا وأصار الينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . أيها الناس ، الآن أقشعت (١) حنادس (٢) الدنيا ، وانكشف غطاؤها ، وانشت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من مبرغه ، وأخذ القوس باريها ، وعاد السهم الى منزعه ، ورجع الحق الى نصابه في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم . أيها الناس إنا والله ماخرجنا في طلب هذا الأمر لُنكثر لُجينا ولا عقيانا (٣) ، ولا نحفر نهرا ، ولا نبني قصرا ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا ، وما كرثنا (٤) من أموركم ، وبهظنا من شؤونكم ، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم واستدلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم . لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله

(١) تفرقت رزالت (٢) جمع خدس وهي الظلمة (٣) الذهب (٤) كرهه الغم اشتد عليه

ونسير في العامة منكم والخاصة بسير رسول الله صلى الله عليه وسلم . تباً تباً
لبنى حرب بن أمية وبنى مروان . آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على
الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام ، وظلموا الأنام ،
وانتهكوا المحارم ، وغشوا الجرائم ، وجازوا في سيرتهم في العباد ، وسنتهم في
البلاد التي استأذوا بها تسربل الأوزار ، وتجلبب الآصار ، ومرحوا في أعنة
المعاصي وركضوا في ميادين النفي جهلاً باستدراج الله ، وأمنا لمكر الله ، فأناهم
بأس الله بيئاتهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق ، فبعداً للقوم
الظالمين . وأدا لنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور ، أرسل لعدو الله في
عنايه حتى عثر في فضل خطامه ، فظن عدو الله ان ان تقدر عليه فنأدى
حزبه وجمع مكائده ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من
مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحق ضلاله وجعل دائرة السوء به
وأحيا شرفنا وعزنا ورد الينا حقنا وارثنا . أيها الناس ان أمير المؤمنين نصره .
الله نصراً عزيزاً انما عاد الى المنبر بعد الصلاة انه كره أن يخلط بكلام
الجمعة غيره ، وانما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن استخفّر (١) فيه شدة
الوعك (٢) وادعوا الله لأمر المؤمنين بالعافية . فقد أبدلكم الله بمروان عدو
الرحمن وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الارض بعد صلاحها
بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين ، الشاب المتكبر المتهمل المقتدى بسلفه
الأبرار الاخيار الذين أصلحوا الارض بعد فسادها بمعالم الهدى ومناهج

(١) استقام له واتسع له (٢) رجع الحمى والمرض

التقوى (فجع الناس له بالدعاء) . ثم قال :
يا أهل الكوفة . انا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح
الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيائهم حقنا ، وأفلج بهم حجبتنا ، وأظهر بهم
دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، واليه تتشوفون ، فأظهر فيكم الخليفة
من هاشم ، وبيض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ونقل اليكم السلطان ،
وعز الاسلام ، ومنَّ عليكم بأمام منحه العدالة وأعطاه حسن الايالة ، فخذوا
ما آتاكم الله بشكر ، والزموا طاعتنا ، ولا تأخذوا عن أنفسكم فان الامراءمكم ،
فان لكل أهل بيت مصرا وأنكم مصرنا . الا وأنه ما صعد منبركم هذا خليفة
بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير
المؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار بيده الى أبي العباس) . فاعلموا أن هذا
الامر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه الى عيسى بن مريم صلى الله عليه والحمد
لله رب العالمين على ما أبانا وأولانا »

أبو جعفر المنصور

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رجل بنى العباس
والمؤسس الثاني لدولتهم وأحد أساطين السياسة والبلاغة والفقه بالدين والسنة
واللغة والادب وأخبار الناس
وكان أفحل بنى العباس هيبه وشجاعة وحزما ورأيا وجبروتا ، جماعا المال
تاركا للهو واللعب ، كامل العقل ، متزهدا متعففا في عيشته . قتل خلقا كثيرا
حتى استقام له ملكه

ولد بالحُجيمة سنة ٩٥ وتولى الخلافة بعهد من أخيه سنة ١٣٦ وتوفى سنة ١٥٨ وكان أكبر من أخيه السفاح بتسع سنوات وإنما عهد للسفاح بالخلافة قبله لأن أمه عربية من بنى الحارث من اليمانية ، ليكون له عصبية من أخواله في قيام الدولة وتقلبت به أحوال كثيرة في الرحلة لطب العلم والتصرف . وكان نادرة عصره في علوم العربية والاسلام ، ووقائعه في امتحان العلماء ومناظرة الرواة والفقهاء ومناقضته الشعراء مشهورة . وله في تاريخ العلم والادب أعظم أثر لحضه العلماء على تدوين العلوم ، والمترجمين على نقل تواريخ الامم السالفة وآدابها . وأخبار المنصور في السياسة والحزم والدهاء والاقتصاد أفضمت بها التواريخ السياسية فلتراجع ثمة

ويكفينا هنا أن نعهده من فحول خطباء بنى العباس اذ كانت الخطابة من أظهر شعار الامامة . وفي ذلك يقول بعضهم : لم يكن أحد من بنى العباس يتكلم فيبلغ حاجته على البديهة غير المنصور وأخيه العباس بن محمد وعمهما داود بن علي

ويشهد بصدق هذا الكلام مارواه المؤرخون من غير وجه أنه خطب يوما فقال :

« الحمد لله أحده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له (فاعترضه رجل فقال : أيها الانسان أذ كرك من ذكرت به) فقال : مرحبا مرحبا . لقد ذكرت جليلا ، وخوفت عظيما ، وسمعا سمعا لمن فهم عن الله وذكر به ، وأعوذ بالله ان أكون جبارا عنيدا ، وتأخذني

العزة بالاثم ، لقد ضللت اذن وما أنا من المهتدين . وأنت يا قائلها فأحلفُ بالله ما الله أردتَ بها ولكن أن يقال : قام فقال فعوقب فصبر ، وأهون^(١) بقائلها لو هممت^(٢) ، فاهتبلها^(٣) ويملك اذ عفوت ، ايك واياكم معاشرَ المسلمين وأختها فإن الحكمة علينا نزلت ، ومن عندنا فصلت ، فردوا الامر الى أهله ، تورده ووارده وتصدروه مصادره (ثم عاد الى خطبته) فقال :
وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فكأنما يقرؤها من قرطاس

وروى الطبرى فى تاريخه أن المنصور لما أخذ عبد الله بن حسن واخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته ، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قال . يا أهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا ، وان أهل بيتى هؤلاء من وُئد على بن أبى طالب تركناهم والله الذى لا إله إلا هو والخلافة فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير . فقام فيها على بن أبى طالب فتأطخ وحكم عليه الحكمين ، فافتقرت عنه الامة ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده الحسن بن على ، فوالله ما كان فيها برجل قد عرضت عليه الاموال فقبلها ففسد اليه معاوية : انى أجعلك ولى عهدى من بعدى . فخدعهم فانسخ له مما كان فيه وسلمه اليه . فاقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة فيطلقها غدا فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسين بن

(١) فعل تعجب من هان (٢) أى هممت العقار (٣) اغتبتها

على فخذعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق . والاعراق
 في الفتن أهل هذه المدرة السوداء (وأشار إلى الكوفة) . فوالله ما هي بحرب
 فأحاربها ، ولا سلم فاسلمها ، فرق الله بيني وبينها . فخذلوه وأسلموه حتى قُتِل
 ثم قام من بعده زيد بن علي ، فخذعه أهل الكوفة وغروه ، فلما أخرجوه
 وأظهروه أسلموه . وقد كان أتى محمد بن علي فناشده في الخروج ، وسأله
 ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة ، وقال له : انا نجد في بعض علمنا أن بعض
 أهل بيتنا يصاب بالكوفة ، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصاب . وناشده
 عمي داود بن علي وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل ، وأتم على خروجه ،
 فقتل وصلب بالكناسة ^(١) ثم وثب علينا بنو أمية فاماتوا شرفنا وأذهلوا عزنا .
 والله ما كانت لهم عندنا تيرة ^(٢) يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب
 خروجهم عليهم ، فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة
 بالشراة ^(٣) حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا ، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل
 خراسان ، ودمغ بحقكم أهل الباطل ، وأظهر حقنا ، وأصار الينا ميراثنا عن نبينا
 صلى الله عليه وسلم فقر الحق مقره وأظهر مناره ، وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم
 الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . فلما استقرت الأمور فينا على قرارها
 من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا وبنينا
 لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم
 جهلا على وجبنا عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجهن

(١) الكناسة بالضم موضع قرب الكوفة (٢) تارة (٣) موضع على الطريق بين

فاني والله يأهل خراسان ما أتيت من هذا الامر ما أتيت بجهالة . بلغني عنهم بعض السقم والتعزم ، وقد دسست لهم رجالات قم يافلان قم يافلان فخذ معك من المال كذا وخذوت لهم مثالا يعملون عليه ، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا اليهم تلك الأموال ، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير الا بايهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي ، وطلبهم الفتنة ، والتماسهم الخروج على فلا يرون اني أتيت ذلك على غير يقين ، ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية (وحييل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياءهم من قبل انهم كانوا في شك مريب) قال وخطب المنصور بالمداين عند قتل أبي مسلم فقال « أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة الى وحشة المعصية ، ولا تُسرُّوا غش الأئمة فإنه لم يسر أحد قط منكراً الا ظهرت في آثار يده ، أو فلتات لسانه وأبداها الله لامه باعزاز دينه واءلاء حقه . انا ان نبخسكم حقوقكم وان نبخس الدين حقه ، ان من نازعنا عروة هذا القميص أجزرناه خبي هذا الغمد ، وان أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على انه من نكث بنا فقد أباح دمه ثم نكث بنا فحكنا عليه حكمه على غيره ولم تمنعنا رعاية الخلق له من اقامة الحق عليه »

المأمور

هو عبد الله أبو العباس بن هرون الرشيد عالم بنى العباس وعظماهم وأحلامهم وأسمحهم وأكثرهم ايثارا وتكريما للفرس والاغاجم على العرب

ولد سنة ١٧٠ واستقل بالخلافة بقتل أخيه الأمين سنة ١٩٨ واكتفى بأبي جعفر ، ثم توفي غازيا على حدود الروم ودفن بطرسوس وأممه أم ولد فارسية تسمى مراجل

اعتمنى الرشيد بتريته واخوته شديد العناية ، فعهد بتنشئة كل منهم الى جمع من خاصة الدولة وجملة العلماء والمؤدبين ، فاختص أبو محمد الزيدى بتأديب المأمون ، فحفظ القرآن كله وبرع في اللغة والاخبار ، والادب والفقه من صغره ، ثم لما قوى عقله نظر في كتب الأوائل التي تقدم أبو جعفر المنصور والرشيد والبرامكة بترجمتها ، وحب البرامكة وشيعتهم اليه الفسفة وعلم النجوم والنظر في عقائد الامم الغابرة وآدابها ، فحدث كل ذلك فيه حب الفرس وقدماء اليونان والعمل بالحكمة ، ولكن ذلك والحمد لله زاده تشددا في دينه وتأيدا له تأيدا أخرجه أحيانا عن حد الانصاف في معاملة الخصوم ، اذ كان معتزليا متشددا ، وحمل الناس على القول بخلق القرآن وخاصة العلماء وأصحاب الحديث ، فامتنع عليه كثير منهم أحمد بن حنبل كما سئذ كره في ترجمته . وكان من أشد الناس اغراء له على هذه المقالة قاضيه أحمد بن أبي دؤاد وتاريخ المأمون السياسي والعلمي ونقله كتب الاوائل الى العربية وتصحيح اغلاطها من الامور المشهورة ، ولا يسعنا هنا الا أن نعهده في عداد الخطباء (اذا كانت الخطابة من خاصة شعار الأئمة) ... وله خطب كثيرة منها خطبته التي خطبها حين بلغه بخراسان قتل أخيه وأقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة ، فانه صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال

« أيها الناس انى جعلت لله على نفسى إن استرعانى أموركم أن أطيعه فيكم ولا أسفك دما عمدا لا تحمله حدوده وتسفك فرائضه ، ولا آخذ لاحد مالا ولا أثاثا ، ولا نحلة تحرم على ولا أحكم بهواى فى غضبى ولا رضى الا ما كان فى الله وله ، جعلت كله لله عهدا مؤكدا وميثاقا مشددا انى أفى رغبة فى زيادته اياى فى نعمتى ورهبة من مسألته اياى عن حقه وخلقه . فان غيرت أو بدلت كنت للعبر مستأهلا وللنكال متعرضا . وأعوذ بالله من سخطه ، وأرغب اليه فى المعونة على طاعته ، وأن يحول بينى وبين معصيته »

عبد الملك بن صالح الرهاسمى

هو عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس من أبناء الجليل الثانى من بنى العباس واحد بلغاتهم وخطبائهم وقوادهم وسواسهم نشأ فى حجر الدولة وغزا الصوائف وتولى الولايات وكان أنزل أهل بيته وأنبهم شأننا وأظهرهم نسكا وأعظمهم وقارا وهيبة ولى للرشيد بلاد الجزيرة وُجند قنسرين والعواصم والشام ومصر ولكنه لم يدخل هذه وأتاب عنه وكان حبه متصلا بالبرامكة فلما نكبهم الرشيد أوحشه أعداء عبد الملك منه وزينوا له أن يتطاع للخلافة وانه يكيد لابنيه الامين والمأمون حتى يفرق بينهما ويستقل بها وأغرى أعداؤه ابنه عبد الرحمن وكاتبه قمامه أن يشهدا عند الرشيد بغيره . فقبض عليه ثم ألقى فى السجن حتى مات الرشيد وولى الامين . فولاه الجزيرة والعواصم لتسكين فتنه فى الجزيرة .

ومن كلامه انه بعد أن خرج من السجن ذكر له ظلم الرشيد فقال :
«والله ان الملك لشيء مانويته ولا تمنيته ولا قصدت اليه ولا ابتغيته ولو أردته
لكان من أسرع الى من السيل الى الحدور^(١) ومن النار الى يابس العرقج واني
لأخوذ بما لم أجن ، ومسؤل عما لا أعرف ، ولكته والله حين رأي للملك قننا
والخلافة خطرا ، ورأى لي يدا تناولها اذا مدت ، وتبلغها اذا بسطت ، ونفسا
تكمل لخصالها وتستحقها بخلالها ، وان كنت لم أختر تلك الخصال ولا اصطنعت ،
تلك الخلال ، ولم أترشح لها في سر ، ولا أشرت اليها في جهر . وراها نحن الى
حنين الوالدة وتميل الى ميل الهلوك^(٢) وخاف أن تنزع الى أفضل منزع
وترغب في خير مرغب ، عاقبني عقاب من قدسهر في طلبها ، ونصب في التماسها
وتفرد لها بجهد ، وتهيا لها بكل وسعه ، فان كان انما حبسني على أنى أصلح
لها وتصلح لي وألقى بها وتلقى بي فليس ذلك بذنب فاتوب منه ولا تطاوات
اليه فاحط نفسي عنه ، وان زعم انه لا صرف لعقابه ، ولا نجاة من عذابه ، الا
بان أخرج له من الحكم والعلم والحزم والعزم فكما لا يستطيع المضيع أن يكون
حافظا كذا لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلا . وسواء عليه عاقبني على عقلي
أم عاقبني على طاعة الناس لي . ولو أردتها لاعجلته من التفكير وشغلته عن التدبير
ولم يكن لما كان من الخطب الا اليسير ، ومن بذل المجهود الا القليل »

سَيِّبُ بِمَهْ سَيِّبَةُ الرَّاهِثِيُّ^(٣)

(١) المكان المنحدر (٢) الفاجرة المتساقطة على الرجال (٣) يوجد هذا الاسم في
بعض الكتب مصحفا هكذا (شيب بن شبة) وهو كما في شذرات المذهب وتهذيب الكمال
في أسماء الرجال وغيرها من كتب التراجم والتواريخ كما ضبطناه

هو شيب بن شيب بن عبد الله بن عمرو بن الاهتم المنقرى التميمي وهو
ابن عم خالد بن صفوان وكان خطيب بني تميم في زمنه

نشأ في البصرة وامتاز بنبالة نفس . وسخاء كف وحسن تواضع .

ونزاهة لسان كما امتاز بخطبه القصيرة البليغة القرية من حد الاعجاز

ورآه خالد بن صفوان وهو يتكلم في رهطه فقال يا بني . لقد نعى الى نفسي

احسانك في كلامك لانا اهل بيت مانشأ فينا خطيب قط الامات من قبله

فقال له شيب بل يتيك الله ويجعلني فداءك

وعاش خالد حتى نبه شأن شيب فنفس عليه لحظوته عند قومه ونفاق

سوقه عند الامراء ووجوه الناس . ولم يعد الأمر بهما حد التعريض ولحن القول

وقد قال الجاحظ ويقال انهم لم يروا خطيبا بلديا الا وهو في أول

تكلفه بتلك المقامات كان مستقلا مستصفا أيام رياضته كلها الى أن يتوقح

وتستجيب له المعاني . ويتمكن من الالفاظ الا شيب بن شيب ، فانه ابتداء

بجلاوة ورشاقة وسهولة وعدوبة ، فلم يزل يزداد منها حتى صار في كل موقف

يبلغ بقليل الكلام مالا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره . وقد يطول حتى

يقول فيه الراجز

اذا غدت سعد على شيبها على فتاها وعلى خطيبها

من مطلع الشمس الى مغيبها عجت من كثرتها وطيبها

وعرف شيب المنصور قبل خلافته ثم اتصل به بعدها فجعله في حاشية

ولى عهده المهدي . وبقى كذلك حتى ولى المهدي الخلافة فصار من خيرة

سمازه وجلسائه الى أن مات في خلافته سنة ١٦٥

ومن خطبه القصار انه لما مات المنصور أظهر عليه المهدي جزعا شديدا
ووردت الوفود عليه يعزونه فجعل كل قوم يقولون ما أمكنهم حتى دخل
شيب بن شيبه فعزاه

ثم قال يا أمير المؤمنين « ان الله لم يرض لك اذ قسم لك الدنيا الا بأسناها
وأرفعها فلا ترض لنفسك من الآخرة الا بمثل ما رضى الله لك من الدنيا
وعليك بتقوى الله فانها عليكم نزلت ومنكم أخذت واليكم ردت » ومات
للمهدي ابنة تسمى البانوقة وكان ولعا بها ، فشق عليه موتها ، وجزع عليها ،
وأكثر الناس في التعازي واجتهدوا في البلاغة ، وفي الناس من ينتقد هذا
عليهم من أهل العلم والأدب . فاجمعوا على انهم لم يسمعوا تعزية أعجب ولا
أبلغ من تعزية شيب بن شيبه فانه قال

« اعطاك الله يا أمير المؤمنين على مارزئت أجرا ، وأعقبك صبورا ، ولا
أجهد الله بلاءك بنقمه ، ولا نزع منك نعمه ، ثواب الله خير لك منها ورحمة
الله خير لها منك ، وأحق ما صبر عليه مالا سبيل الى رده »

وقال للمهدي « أراك الله في بنيك ما أرى أباك فيك . وأرى الله
بنيك فيك ما أراك في أبيك »

الكتابة والكتاب

كانت الكتابة في الدولة الأموية قاصرة على كتابة الدواوين وانشاء
الرسائل ، وكان الخلفاء كثيرا ما يملون رسائلهم على كتابهم أو يكتبونها بأيديهم

لمكانهم من البلاغة ، ورسوخ ملكة الارتجال فيهم ، فكانت وظيفة
الكاتب : اما العمل في دواوين الجباية والاعطية ونحوها ، واما كتابة الخط
الحسن بين يدي الخليفة . ثم لما اتسعت رفعة المملكة وقرت أمور الدولة ،
ازدادت الاعمال ، وشغل الخلفاء على أن يلوا الكتابة بأنفسهم ، فعهدوا بها
الى كبار كتابهم ، فتوفروا عليها حتى أوشكت في أواخر دولتهم أن تصير
صناعة عتيقة متميزة الاصول ، متشعبة الفروع ، بما أدخله الجيل الناشئ
من أبناء الكتاب والموالي بعد نقل الدواوين الى العربية . وكان كثير منهم
يعرف اللغة الرومية أو الفارسية أو اليونانية أو السريانية وهي لغات أمم ذات
علوم وحضارة ونظام ورسوم . ومن هؤلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك
أحد الواضعين لنظام الرسائل وأستاذ عبد الحميد الكاتب الذي آلت اليه
زعامة الكتابة ، فهد سبيلها ، ووضح معالمها ، ورسم لها رسوما خاصة في
بدنها وختمها ، والاطناب فيها مرة ، والايجاز أخرى ، فكان بذلك شيخ
كتاب الرسائل على الاطلاق . ونشأ معه جيل على طريقته كابن المقفع
والقاسم بن صبيح وعمار بن حمزة وبجي بن زباد وأبي نعيم الله وزير
المهدي ويعقوب بن داود وزيره بعده ، كل هؤلاء كملوا مافات عبد الحميد ،
ووصلوا بكتابة الرسائل في صدر الدولة العباسية الى غاية بعيدة في البلاغة
والبراعة . ولما آل سلطان العرب الى الدولة العباسية لم تعد الكتابة قاصرة على
الدواوين والرسائل ، بل تعدتها الى عدة أغراض من أنواع التصنيف والترجمة .

ولذلك وجب علينا أن نفرّد لكل قسم من الأقسام الثلاثة مبحثاً خاصاً به

كتابة الدواوين والرسائل

الدواوين

لما كان انتقال الملك الى الدولة العباسية لم يستدع أكثر من استئصال شأفة الأموية في المشرق واتحاد بعض الفتن ، لم يمض عليهم طويل زمن حتى التفتوا الى تأثيل سلطانهم ، وتنسيق دواوينهم ، فاستعانوا على ذلك بكل ذى معرفة من جميع الأمم ، وخاصة أبناء الفرس ، فأول نظام أدخلوه في الدولة كان على يد المنصور وكتابه ، ثم تلاه نظام آخر ، تم على أيدي أبي عبيد الله ويعقوب بن دواد وزيرى المهدي ، وكتابهما ثم أعقبهما نظام آخر أدق وضماً وأتم ضبطاً كان على أيدي يحيى بن خالد بن برمك وولديه الفضل وجعفر

وبقى نظام البرامكة معمولاً به مع شيء من التغيير حتى حل محله النظام السلجوقى . وتبع كل هذه التعديلات فى نظام الدولة أن تميزت أعمال كتابة الدواوين وتنوعت أغراضها بتنوعها ، فكان منها ديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان الخراج والنققات ، وديوان الجيش ، وديوان المعاون ، وديوان الرسائل بفرعيه من ديوان الخاتم والتوقيع ، وديوان المظالم والشرطة ، وديوان البريد وديوان الضياع والاقطاعات ، وديوان الخواص ، وغير ذلك وكانت أعمال الكتابة فى كل هذه الدواوين عدا ديوان الرسائل وفرعيه

هي التدوين في الدفاتر والسجلات وحُساب الدَّخْل والخَرْج ، وما يتبع ذلك من الرسائل التي لا تستدعى تأنيقا . ولا مبحث للاديب في نوع هذه الكتابة ، وإنما همه معرفة حال الرسائل والتوقيعات في أزمانها المختلفة ، إذ كانت ماثرا للبلاغة ومجالا لسوابق البراعة

الرسائل

ديوانه الرسائل

كانت رسائل الدولة ذوات البال من ديوان الرسائل تصدر ، واليه ترد ، ولذلك كان لا يتولاه من رجال الدولة الا فحول البلاغة ، وأهل العلم والادب والمعرفة بضروب السياسة ومراسيم الملوك وكان النظر فيه غالبا للوزير ، أما مستقبلا به ، أو مستقبيا عنه ، لموضعه من ضبط أسرار الدولة ، وحفظ كرامتها ، وتفخيم شأنها في أعين الرعية والملوك فكان وزراء الامراء في ذلك العهد ، هم شيوخ الكتاب وأستاذيهم

كتابة الرسائل

قلنا ان كتابة الرسائل في أوائل حكم بني العباس كانت جارية على نظام كتابتها في أواخر عهد بني أمية سالكة الطريق الذي سلكه عبد الحميد وابن المقفع ونظراؤهما من العناية بجعل عبارتها جزلة بليغة متناسقة الاوضاع والاساليب ، لا يقصد بها الا افهام المعنى الجيد بوضوح وبلاغة وقوة حجة ،

غير منظور فيها الى زخرف اللفظ ومحسناته ، وبقيت كذلك بل زادت حسنا وجمالا ومراعاة لمقتضى الاحوال نحو مائة وخمسين سنة ، ثم غلبت عليها الصناعات اللفظية بضعف ملكة البلاغة ، وتفاصر الهمم عن استيفاء أدواتها ، وما زالت في جمود وتناقص حتى ابتدأ عصر اضمحلالها بسقوط الدولة العباسية أو قبيله كما سيأتى في موضعه

ومجمل التغيرات التي حدثت في الكتابة في صدر الدولة - أى في

العصر الذي نحن بصدد الكلام عليه - يرجع الى ما يأتى

(١) تعدد موضوعات الكتابة بتعدد أعمال الدواوين الكثيرة والرسوم العديدة التي استحدثت في الدولة من كتابة بيعة خليفة أو ولى عهد أو عهد لوال أو قاض ، أو منشور باعلان أمر سياسى أو دينى ، أو رسالة مطولة في تقرير مذهب كرسائل الخميس التي كانت تقرأ في خراسان على شيعة بنى هاشم ، ونحو ذلك وبعض هذه الامور - ككتابة عهد الوالى أو القاضى - كان يكتب في عصر بنى أمية والخلفاء الراشدين ، غير أنه كان وجيزا ساذجا ، يقتصر فيه على نص التولية ، أما في عصر العباسية فقد كان كل نوع من الانواع يكتب بغاية الاسهاب والاطناب ، فالبيعة كانت تشحن بالايان المخرجة التي تفنن الكتاب والفقهاء في اختراعها ، وكان يفصل فيها ما يجب للخليفة على الامة ، وما يجب للامة على الخليفة ، وعهد الوالى أو القاضى يفصل فيه الصفات الحسنة التي رغبت الخليفة في اختياره ، وعدد البلدان والنواحي التي يتولاها ونوع العمل الذي يعمل به ، من صلاة أو خراج أو حرب أو قضاء ، والوصايا بالامور التي يجب أن يأخذ

بها الرعية ، وغير ذلك مما لم يكن له أصل في الاموية ، أو كان له أصل غير مستوفى .

(٢) الغلو في طرفي الاذئاب والايجاز ، بحسب مقتضيات الاحوال ، فقد كانت الكتب التي تقرأ على العامة من بيعة أو منشور أو أخذ بسياسة أو احتجاج لمذهب أو تفصيل انتصار جيش أو نحو ذلك تكتب بغاية الاسهاب والتبيين والايضاح تقريرالها في أذهان العامة ، وتفخيماً لشأن السلطان ، وتعظيماً لنعم الله عليه وعلى أهل بيته . ومثل ذلك الكتب التي يكتبها الولاة للسلطان بتقرير حادثة أو تفصيل لأمور احدثت اختلالاً في سياسة أو جباية خراج أو تنصل من مهمة لحقته أو نحو ذلك

وعلى عكس ذلك كانت الكتب التي تصدر من الخليفة أو الوزير أو الرئيس الى الولاة والمرءوسين في أمر أو نهى أو سؤال عن حدث ونحوها الا في أحوال خاصة تستدعي الانتاب ، فقد كان غلوهم في الايجاز يصل الى درجة الاشارة والرمز ، ويخل بشرط البلاغة . وفي ايثار الايجاز يقول جعفر ابن يحيى لكتابه : ان قدرتم ان تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا . وكان مع اعجابه بالايجاز يقول : متى كان الايجاز أبلغ كان الاكثر عيا ، ومتى كانت الكتابة في موضع الاكثر كان الايجاز تقصيرا .

وأمثلة الاطاب كثيرة يضيق مقامنا عن ذكر مثال منها في ذلك العصر . وترأها ممثلة في الكتابات التي دارت بين المنصور محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية وفي رسائل الخيس لعمار بن حمزة وأحمد بن يوسف و ابراهيم الصرلي وغيرهم

أما أمثلة الإيجاز فكثيرة أيضا. فمن المحمود فيها ما كتب به جعفر
إلى عامل شكى له (قد نثر شاكوك ، وقن شاكوك فأما اعتدات
رواها اعتزات)

وتول عمرو بن مسعدة في وصاة (كتابي اليك كتابُ معنى بمن كتب
لله واثق بمن كتب اليه ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية)

(٣) سهولة العبارة وانتقاء الفاظها وجوده رصفا فوق ما تبعه المتأخرون
من كتاب بنى أمية كقول بعض كتاب العباسيين : ولولا ان أجود ال كلام
ما يدل قليله على كثيره وتغنى جملة عن تفصيله لوسعت نطاق القول فيما
انطوى عليه من الموص المودة و صفاء المحبة فجال مجال الطرف في ميدانه
وتصرف تصرف الروض في افتتانه لكن البلاغة بالايجاز أبلغ من البيان
بالاطناب

(٤) زيادة أنواع البدء والختام في الرسائل فكانت تبدأ اليهود بعبارات
غير ما تبدأ به المنشورات والرسائل المطولة ، ورسائل السلطان تبدأ بغير ما تبدأ
به رسائل العمال أو الإخوان ، ومثل ذلك الختام

ويمكننا ان نجمل الاساليب التي كانت تفتح بها الرسائل الصادرة عن

الخلفاء من ديوان الرسائل في هذا العصر فيما يأتي

(١) الصورة القديمة التي كانت تفتح بها كتب رسول الله صلى الله

عليه وسلم والخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية مع احداث بعض تغريد ، وادل
للصور هكذا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من عبد الله أمير المؤمنين إلى فلان . سلام عليك أما بعد فإني أحمد
إليك الله (أوفان أمير المؤمنين بحمد إليك الله) الذي لا إله إلا هو وإن
الامر كذا وكذا) وزاد خلفاء بني العباس في هذه الصورة غالباً لفظ (الامام)
بعد اسم الخليفة ، وغبروا على ذلك إلى زمن الرشيد ، فزاد في كتبه بعد
التحميد الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم فصارت سنة بعده ،
فكان هذا الأسلوب يكتب هكذا « من عبد الله فلان الامام الفلاني أمير
المؤمنين إلى فلان سلام عليك فان أمير المؤمنين بحمد إليك الله الذي لا إله
إلا هو ويسأله ان يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم » فعدت
هذه الزيادة من اجل مناقبه

ولما صارت الخلافة إلى الامين ا كتنى في كتبه وتبعه من بعده من
الخلفاء على ذلك ، فكانوا يكتبون « من عبد الله فلان أبى فلان الامام
الفلاني أمير المؤمنين » وربما أخوا في هذه الصورة « (أما بعد) إلى
ما بعد التحميد والصلاة وجعلوا أمام الغرض فقالوا « من عبد الله فلان
أبى فلان الامام الفلاني أمير المؤمنين إلى فلان سلام عليك فإني أحمد الخ
« أما بعد فان كذا وكذا ولا يقال (السلام عليك ولا أحمد إليك)
الإسليم طاع ، أما غيرهما فكان يقال : سلام على من اتبع الهدى ،
ويحذف في التحميد لفظ « إليك »

وكتابة العمال إلى الخلفاء اذا كانت على هذه الصورة يقال في أولها
(ابداً الله فلان أبى فلان الامام الفلاني أمير المؤمنين) من فلان ابن فلان

مولى أمير المؤمنين (ان كان من الموالى) سلام على أمير المؤمنين ورحمة
الله وبركاته فأنى أحمداً لله الذى لا اله الا هو وأسأله أن يصلى على محمد
عبدته ورسوله « أما بعد » أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام عزه
وتأييده وكرامته وحراسته وأتم نعمته (فى دعاء مثل هذا) ثم يتخلص
الى غرضه .

(ب) الصورة المختصرة من السابقة وهى

بسم الله الرحمن الرحيم

(أما بعد فإن كذا) وهذه قديمة أيضاً منذ أول الاسلام ، أى أما
بعد البسملة ، وهذه الصورة كثر استعمالها جداً فى زمن العباسيين وغيرهم
فى رسائل السلطان والاخوان لاخصارها

(ج) صورة تقديم البعدية بعد البسملة ثم التعقيب بالحمد اما مفردا
أو مكررا

وهذه الصورة من اختراع عبد الحميد ، وتبعه كتاب العباسيين
وتفتنوا فيها ، وأكثرت ما كتبت هذه الصورة فى الخوادم التى تستدعى
تعدادهم الله على الخليفة او على من يكتب له كخوادم النصر والبيعات
والعهود والمراسيم والرسائل المطولة ، ويعدد الكتاب فى التحميد ان كان
مكررا كثيرا من آلاء الله وتعظيمه وتنزيهه بما يناسب القصبة ويشير اليها ،
ثم يتشهد ويصلى على النبي ويتخلص الى المقصود

ومثال ذلك ما كتب عن المعتصم الى ولاة الآفاق من المسلمين
عند قبض الافشين على بابك الخرمي صاحب البُد الخارج على المأمون والمعتصم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد فالحمد لله الذي جعل العاقبة لدينه ، والمعصية لا ولياؤه ، والعز لمن نصره ، والفلاح لمن اطاعه ، والحق لمن عرفه ، وجعل دائرة السوء على من عصاه وصرف عنه ، ورغب عن ربوبيته ، وابتغى لها غيره ، لا اله الا هو وحده لا شريك له . يحمده أمير المؤمنين حمد من لا يعبد غيره ، ولا يتوكل الا عليه ، ولا يفوض أمره الا اليه ، ولا يرجو الخير الا من عنده (الى نحو عشر سجعات ثم قال) والحمد لله الذي تولى أمير المؤمنين بصنعه فثبت له أمره ، وصدق له ظنه ، وأنجح له طلبته (الى نحو من ذلك ثم قال) فالحمد لله كثيرا كما هو أهله ، ونرغب الى الله في أعوام نعمه ، ودوام صنعه ، وسعة ماعنده بمنه واطفه ، (ثم تخلص الى المقصود بقوله) ولا يعلم أمير المؤمنين مع كثرة أعداء المسلمين مثل بابك . . . الخ)

(٤) صورة البداء بالحمد لله وأصلها مختلس من الاسلوب السابق ويظهر أنها من ابتداء العباسيين ، ويراعى في هذه الصورة ماروعى في غيرها من جميع الوجوه

(٥) صورة الابتداء بالدعاء اما بتقديم « أما بعد » أو بغيرها ، وتكون في الكتب الصادرة من الخليفة الى أخصائه من أهل بيته أو زرائع والمقرين اليه . وقيل أنها من اختراع الزنادقة مناعبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم شاع استعمالها عند غير أتوريين ومن أمثلتها (أمتعني الله بك ، وبدوام النعمة : ندى بك ، وبقاء الموهبة لي منك) وما جرى هذا المجرى . وهذه الصورة هي التي كانت تستعمل غالباً في رسائل الأخوان ،

ثم صاروا في آخر هذا العصر يكتبون (كتابي اليك) ويردونه بما يناسب من دعاء أو ثناء أو وصف لحال الكاتب حين الكتابة أو نحو ذلك ، وأكثرا ما يكون ذلك بين الاخوان والخواص

(و) أما الامر في البيعات التي كانت تؤخذ للخلفاء على الناس عند توليهم فقد كانت في الصدر الاول من الدولة العباسية كما كانت في الاموية تؤخذ مشافهة ومصافقة ، يتف الخليفة فيخطب بموت سابقه وانه وارثه بعهد منه أو باتفاق أهل الحل والعقد من المسلمين فإذا اضطرب الامر وصار يلى الخلافة من لم تستحكم مرته ، ولم يقدر على ارتجال الخطب ، وجهل العامة شروط الخلافة وأيمانها وصيغها ، اضطروا وزراء الدولة أن يكتبوا صورها وتلى على الناس بم تولى الخليفة ، ويقوع عليها أهل الحل والعقد منهم ، وكانت صورنا تفتح بمثل ما يأتي (وهذه صورة بيعة المنتصر)

بسم الله الرحمن الرحيم

تباينون عبد الله فلان الفلاني أمير المؤمنين بيعة طوع واعتقاد ورضى ورغبة بأخلاص من سرائركم ، وانشراح من صدوركم ، وصدق من نياتكم ، لا مكرهين ولا مجبرين « في كلام من نحو هذا » ثم تكتب الايمان المخرجة على الوفاء والطاعة وعدم التآكث

(ز) أما الكتابة بولاية العهد فقديمة منذ كتبها أبو بكر الصديق لعمر رضى الله عنهما ، وبقيت متبعة بصورتها تكاد يتفق افتتاحها ، وهي : هذا ما كتبه عبد الله فلان الفلاني الى خاصة المسلمين وعامتهم انى قد

وليت عليكم فلانا الخ

ثم قد تكتب بنحو (هذا كتاب كتبه عبد الله فلان الامام الفلاني أمير المؤمنين وأشهد الله على نفسه بجميع ما فيه ومن حضر من أهل بيته وشيعته وقواده وقضائه وكفاته وفقهائه وغيرهم من المسلمين لفلان الفلاني في أصالة من رأيه ، وعموم من عافية بدنه) ثم يذكر به ولى العهد بخير من رعاية المسلمين والقيام بحقوق الدين ويحث على طاعته

(ح) وعلى مثل هذا كتابة الشروط التي تؤخذ على الخلفاء للرعية من أمان ونحوه ، أو للخلفاء على الرعية ، أو للخارجين عليهم ، أو ملوك دار الحرب من تقديم طاعة ، وعقد هدنة ، وفداء أسرى ، ونحو ذلك

(ط) أما افتتاح عهود الولاة والقضاة فقد كان المتبع فيه في صدر الدولة ما كان متبعاً زمن الخلفاء الراشدين وبنى أمية من قولهم « هذا ما عهد به عبد الله فلان الفلاني أمير المؤمنين الى فلان بن فلان حين ولام ولاية كذا أعمالها وخراجها الخ » امره بتقوى الله وطاعته « ثم يذكر بعد من الوصايا ما يريد

ثم صارت العهود تكتب بتحميد وصلاة وسلام ومقدمة طويلة في منايا الوالى أو القاضى ثم التصريح بالتولية ثم الوصايا

(ي) أما المنشورات فكانت تكتب اول هذا العصر هكذا هذا كتاب من فلان امير المؤمنين الى عامل ولاية كذا والى من قبله من المسلمين « او الى خاصة المسلمين وعامتهم » يأمرهم فيه

بكذا وكذا

ثم صار لها صور افتتاح مختلفة من تحميد طويل ومقدمة تشرح سبب المنشور الخ

وكانت صور الاختتام لا تقل عن صور الافتتاح فكان لفظ (والسلام) هو الغالب والمقدم، او السلام عليك ورحمة الله وبركاته، ثم اسعمل في الختام « ان شاء الله تعالى » وتأتى بعد المستقبل وما في معناه كقولهم « فان رابت ان تفعل ذلك فعلت موقفا ان شاء الله تعالى » او بعد (فرايك في ذلك موقفا ان شاء الله تعالى) او بعد الدعاء

وقد يكون الختام بمجرد الدعاء . وقد يكون بمحمدلة وصلاة وسلام على النبي صلى الله عليه وسلم في الرسائل المطولة التي تبتدأ بخطب كما قدمنا . وقد يكون الختام بالحسيلة كقولهم (وحسبنا الله ونعم الوكيل) او (وهو حسبي ونعم الوكيل) وتكون مفردة او مع الحمدلة والصلاة على النبي واكثر ما تكون في ختام المنشورات والمشارطات ونحوها

وقد تختم العهود بها او بمثل (وكفى بالله شهيدا)

ويكتب السكاتب بعد هذه الخواتم في سطر مستقل

«وكتب فلان الفلاني في تاريخ كذا»

(ه) زيادة الرسوم في ألقاب والدعاء واختصاص كل ذي مرتبة

بلقب او دعاء لا يتعداه . واستفحل هذا الامر في اواخر هذا العصر .

واصل ذلك ان الكتاب كانوا يلهبون مما يطيب عندهم او في نفوس

رؤسهم من الدعاء فجرهم ذلك الى الغفلة وعدم الاحتراس والدعاء لكل بما يناسبه ، فكتب بعض عمال السيدة زبيدة على ضياع لها « وأدام كرامتك » فوقمت على ظهر كتابه « أردت أن تدعو لنا فدعوت علينا ، فأصلح خطأك ، والاصر فذاك عن جميع أعمالك » فأدركه القيان ، وتصفح الكتاب فلم يظهر له فيه شيء ، فعرضه على بعض حذاق الكتاب فقال : انما كرهت قولك في صدر الكتاب « وأدام كرامتك » لان كرامة النساء دفين فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « دفن البنات من المكرمات » ، فغير ذلك الحرف وأعاد الكتاب اليها فوقمت على ظهره « أحسنت ولا تمد »

(٦) اختراع المقدمات في اوائل الرسائل المطولة وبعض العهود والمنشورات ، حتى صار الكتاب الخالي منها فاقد الحلية من حلي الصناعة ، ثم تبع ذلك ماسمونه براءة الاستهلال وهي افتتاح كل رسالة بما يناسب ما كتبت فيه

(٧) اما جودة المعاني واختراعها ، ودقة الأختية وابتداعها ، فكانت غاية كل كاتب مجيد في اكثر هذا العصر ، ثم جنحت شيئا فشيئا الى جانب التهويل والمبالغة في اواخره ، وفشت في العصر الذي يليه

(٨) وجهة القول ان الكتابة في هذا العصر كانت ارقى ما وصل اليه التحرير العربي . نسأل الله ان يعيد للبلاغة العربية نشأة اخرى تعيد لها مجدها ، وتجدد آدابها

كتاب الرسائل

طبقاتهم

لاذكر من كتاب الرسائل الامن قرر علينا في برنا مجنا دراسة أخبارهم
وهم بعض فحول الطبقات الاربع الاول من كتاب العصر الأول من بني
العباس وجميعها ست طبقات

الطبقة الاولى. الطبقة التي أدركت الدولتين وهي طبقة ابن المقفع ويحيى
ابن زياد الحارثي وعمار بن حمزة وأبي أيوب المورياني ممن كتب للمصور
الطبقة الثانية. طبقة أبي عبيد الله معاوية ويعقوب بن داود وزيري المهدي
ويحيى بن برمك ويوسف بن القاسم ممن كتب للمهدي والهادي والرشيد
الطبقة الثالثة. طبقة جعفر بن يحيى وأخيه الفضل واسماعيل بن صبيح
والفضل بن سهل والحسن بن سهل وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة
وأحمد بن أبي خالد الاحول ممن كتب للرشيد والامين والمأمون

الطبقة الرابعة. الطبقة التي ربيت في عصر المأمون ، وجمعت بين
الآداب والبلاغة العربية والادخيلية ، وقرأت كتب اليونان والفرس والهند ،
واليها انتهت البلاغة ، وهي طبقة ابن الزيات وابراهيم الصولي وسعيد بن
حميد والحسن بن وهب وسليمان بن وهب وأحمد بن اسرائيل وبنو المبر
والحسن بن مخلد ممن كتب للمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين
والمعتز والمهتدي والمعتمد

الطبقة الخامسة. طبقة عبيد الله بن سليمان بن وهب وأبي العباس بن ثوابه
وأبي الحسن علي بن الفرات وملي بن عيسى بن الجراح ممن كتب للمعتد

والمعتضد والمكتفي والمقتدر

الطبقة السادسة طبقة أبي علي بن مقله والحسين بن عبيدالله بن سليمان
ابن وهب وأبي الفضل جعفر بن الفرات ممن كتب للمقتدر والقاهر
والراضي وأدركت هذه الطبقة العصر الثاني

ابن المقفع

هو أبو محمد عبد الله بن المقفع أحد فحول البلاغة ، وثاني اثنين
يهدا للناس طريق الترسى ، ورفعوا لهم معالم صناعة الانشاء ، أولهما
عبد الحميد بن يحيى

نسبه ومرباه : كان ابن المقفع من أبناء الفرس الناشئين بين أحياء
العرب ، وأصل أهلهم من خوز « أرض بين فارس والبصرة » ولدحو الى سنة ست
ومائة من الهجرة ، ونشأ بالبصرة . وكان والده مجوسيا يتولى خراج فارس
للحجاج بن يوسف الثقفي على رواية أولخالد القسرى على أخرى وهي أقربهما
للصحة ، فانهم في خيانتا اضرب به الحجاج أو يوسف بن عمر والى العراق بعد خالد
القسرى فقفعت يده (أي تشنجت) فسمى من ذلك الحين « المقفع »
وكان اسمه الفارسي « داذويه » ويقب بالمبارك . وأما تسميته بالمقفع لعمله

الاففاع وهي أوعية تتخذ من سوسن النخل فليست بشيء

وربى ابن المقفع على دين المجوسية أكثر عمره ، وكان يسمى (روزبه)
ويكنى أبا عمرو ، ثم أسلم في كهولته على يد عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس
وسمي عبد الله ، وكنى أبا محمد

واذ كان أبوه من عمال الخراج وكتاب الدواوين والدولة حينئذ عربية محضة ، أخذته بتعليم صناعة الكتابة واستكمال عتاده واستيفاء ادائها ، بالتفوق في العربية والفارسية فقد كان منتهى شرف الفارسي في ملك بنى أمية ان يكون كاتبا او مترجما او عالما ، فلم يبلغ رتبة سن الشيبية حتى جمع كل هذه الخصال بأمر تهيأت له فوق ذلك المفرد ، وسلامة ذوقه

منها — انه نشأ بالبصرة حلبة العرب وعش الفقهاء والرواة والمحدثين واصحاب اللغة ، وحاضرة البر والبحر ، وقزارة تتردد متدى البلغاء والخطباء والشعراء

ومنها — نشأته هر و ابوه في ولاء آل الأهم بيت الخطابة ومعدن الفصاحة من عميم

ومنها — ملازمته في شيبته لعبد الحميد فا كتسب كل منهما فضائل صاحبه ومنها — عنايته بالرواية والأخذ عن الأعراب الذين كانوا يفدون بالبصرة ولا سيما ابى الجاموس ثور بن يزيد ، وهو اعرابى كان كثيرا لا تتجاع لآل سليمان بن على ، فتخرج عليه في الفصاحة

تصرفه وعمده : ولما ذاع فضله استكتبه بنى عصر بنى أمية داود

ابن عمر بن هبيرة ، ثم اتصل في زمن بنى العباس بعيسى بن على أيام ولايته على كرمان فصار كاتبا له وعلى يديه اسلم ، جاء اليه يوما وقال له : قد دخل الاسلام في قلبي ، واريد أن اسلم على يدك ، فقال عيسى ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس ، فاذا كان الغد فاحضر . وحضر طعام العشاء فجلس ابن المقفع مع عيسى يأكل ويزمزم على عادة المجوس ، فقال له عيسى :

أترمزرم وانت على عزم الاسلام؟ فقال: اكره ان ابيت على غير دين فلما
 أصبح اسلم وغير اسمه وكنيته، ثم ألزمه اسمعيل بن علي بعض بنيه ليعلمه،
 ثم كان في خدمة سليمان بن علي ايام ولايته على البصرة و يظهر انه اتصل بعد
 ذلك بأبي جعفر المنصور اتمال معرفة لا اتصال خدمة لاتفاق اكثر المؤرخين
 على انه ترجم اكثر كتبه الادبية له وهم ايضا يصرحون بانه بقي في خدمة
 عمي المنصور حتى قتل بالبصرة لمغاضبة ومشا كسة بينه وبين سفيان بن
 معاوية. والها، فكان ابن المقفع يستطيل عليه محتفيا بعيسى وسليمان عمي
 المنصور، وهذه المنازعة تستدعي اقامة طويلة بالبصرة قبل قتله

عقيرته :- يتهم كثير من أهل الاخبار ابن المقفع في اسلامه ،
 كأنهم رأوا أنه رغب بذلك في دنيا يحصلها من دولة بني هاشم ، وأن
 اتصاله بسليمان وعيسى عمي المنصور وكتابته لهما وتولييه لهما باسلامه أطمعه
 في ذلك وهو بعد شاب لم يبلغ من العمر ثلاثين سنة ولهم في ذلك شبه
 منها - أن أكثر كتب الملاحدة من الثنوية كالماتوية والمزدكية
 والمرقوية وغيرهم ممن كان يطلق عليهم اسم (زنداته) ترجعها ابن المقفع.
 وروى جعفر بن سليمان عن المهدي أنه قال ما وجدت كتاب زندقة
 قط الا وأصله ابن المقفع

ومنها - مصدقته ومصافاته لبضعة عشر رجلا أهموا كلهم بالزندقة
 والسكيد الاسلام وقتل بعضهم في ذلك

ومنها - زمزمته على الطعام ليلة بيدت الاسلام
 ومنها - مارواه عمر بن شبة أنه قال حدثني من سمع ابن المقفع

وقد مر علي بيت نار للمجوس بعد ان أسلم ينشد
يا بيت عاتكة الذي أتعزل * حذر العدا وبك الفؤاد موكل
اني لا منحك الصدود واتي * قسا اليك مع الصدود لا أميل
وأقول « لم تقم في التاريخ حجة قوية على نفي هذه الشبه ، ولا سيما
الاولى الا ما يوجد في رسائله الادبية التي كتبها لبني هاشم وبقيت بعده
لخلوها من الزندقة »

علمه وزكوه وأخبره : - المشهور أن ابن المقفع كان نادرة في
الذكاء ، غاية في جمع علوم اللغة والحكمة وتاريخ الفرس . ويقال انه لم
يكن للعرب بعد الصحابة أذكي من الخليل ابن أحمد ، ولا كان في العجم
أذكي من ابن المقفع ، الا أنه لم يكن كيسا حازما وكان الخليل بن
أحمد ، يجب أن يرى ابن المقفع وهو يجب أن يرى الخليل ، فجمعهما بعض
الكبراء فكثا يتحدثان ثلاثة أيام ثم افترقا ، فقيل للخليل : كيف رأيت
عبد الله ؟ فقال : مارأيت مثله ، وعلمه أكثر من عقله . وقيل لعبد الله
كيف رأيت الخليل ؟ فقال : مارأيت مثله ، وعقله أكثر من علمه .
فقال : بعضهم صدقا في ذلك ، فان عقل الخليل أداه الى أن مات أزهد
الناس ، وان نقص عقل ابن المقفع أداه الى أن كتب أمان عبد الله بن
علي بصورة أفضت الى قتله

وكان في سائر أحواله متأديبا متعظا قليل الاختلاط الا بمن علي
شا كتته كثير الوفاء لأصحابه

فصاحة وبراعة.

كان ابن المقفع أمة في البلاغة ورياسة القول وشرف المعاني الى بيان
 غرض وسهولة لفظ ورشاقة اسلوب ، ولا توصف بلاغته بأحسن مما وصف
 هو البلاغة وقد قيل له: ما البلاغة ؟ فقال : (هي التي اذا سمعها الجاهل ظن
 أنه يحسن مثلها) ، وبسلوك هذه الطريقة ينصح للكتاب وأهل الصناعة
 قال بعضهم : (اياك والتبع لو حشى الكلام طمعا في نيل البلاغة ، فان
 ذلك هو العي الاكبر) — وقال لآخر (عليك بما سهل من الالفاظ مع
 التجنب لالفاظ السفلة) وإنما صعبت عبارته في الأديين ونحوها لانه ساقها
 مساق الفلسفة . وقد ذاعت طريقة ابن المقفع وعبد الحميد في توخي السهولة
 وسلاسة التعبير مع العناية باجادة المعنى بين الكتاب من أهل زمانهما ومن
 بعدهما وصارت مثالا يحتذى ، وربما كانت آية لمن بعدهما من الكتاب
 المشهورين بذلاقة اللسان وسهولة القلم كسهيل بن هارون وأحمد بن يوسف
 والجاحظ

أما الموازنة بينه وبين عبد الحميد فمع شدة تقاربهما ذوقا وخُلُقًا يرى
 الباحث المدقق أن عبد الحميد غلبت على اساليبه الصبغة العربية المحضة الجارية
 على منهج السليقة والخيال الفطري ، اذ لم يعرف أن عبد الحميد تكلم بغير
 اللسان العربي المبين ، وان ابن المقفع يغلب على اساليبه القياس المنطقي
 وتصويرات الفلاسفة الدقيقة التي قلما تظهر للقارى الا بتعمُّل وصناعة ، وترى
 ذلك واضحا في رسائله في الادب والاخلاق

مترجمانه ومصنفاته : — يُعدّ ابن المتفّع من فحول المترجمين

والنقاة من اللسان الفارسي . ولولا شهرته بالكتابة لذكّرناه في عداد المترجمين — وكتابه كيلة ودمنة الذي ترجمه من اللغة الفارسية الفهلوية حجة ناطقة بذلك وله عدة كتب مترجمة عن الفارسية ككتاب مزدك في بعض مذاهب الثنوية ، وكتاب التاج في سيرة أنوشروان . وكتب أخرى في عقائد المجوس والاباحيين ، وهو أول من اعتنى في الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية فترجم لابي جعفر أو لعنه عن الفارسية عن ترجمة اليها من اليونانية والسريانية كتب ارسطاطاليس المنطقية ، وكتاب ايساغوجي لفرغوريوس الصوري . وله من المصنفات الحسنة البليغة رسالتا الادب الكبير والصغير وكتاب اليتيمة في طاعة السلطان :

قتله : — المشهور أن قتله كان بسبب الامان الذي كلف من قبل

عيسى وسليمان عمي المنصور أن يكتبه عن اسان المنصور لاختيهما عبد الله الذي كان خارجا عليه وهرب عندهما فانه تصعب فيه وتشدد على المنصور فكان مما كتب (ومنى غدر امير المؤمنين بعنه عبد الله ففساؤده طالق ودوابه حبر وعبيده احرار والمسلمون في حل من بيعته)

فاشتد ذلك عليه وخاصة أمر البيعة وحقدتها وأوعز الى سفيان والى البصرة أن يقتله خفية فزاره يوما لا أمر فامر بقطيعه وحرقه وتذرية رماده في بطنية البصرة وطالب عما المنصور بدمه عنده من سفيان فلم يجزا منه ما يجبان .

والمعقول أن ذلك لم يكن هو السبب الحقيقي لأن المنصور أمضى (١)
 هذا الأمان وأقره ولم يرده، فكيف يقبله ويقتل كاتبه . والقريب إلى العقل
 ما ذكره المؤرخون من أن ابن المقفع كان كثير الوقيعة في سفیان ، وكان
 كثيراً ما يُقرّعه ويعيبه في مجالسه أمام أعيان البصرة ، وأن المنصور كان
 قد ابتدأ بالفتك بالزنادقة ، فانهز سفیان الفرصة فاغتاله ، وثبت عند المنصور
 زينة فتراخى في المطالبة بدمه . وكانت وفاته سنة ١٤٢

رسائل — . ولابن المقفع رسائل بليغة منها الطوال ، ويضيق المقام عن
 ذكرها هنا ومنها القصار ، ونذكر نموذجاً منها
 كتب إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة

﴿ أما بعد ﴾ فإن من قضى الحوائج لإخوانه واستوجب بذلك الشكر
 عليهم فلنفسه عمل لا لهم . والمعروف إذا وُضع عند من لا يشكره فهو زرع
 لا بدّ لزارعه من حصاده أو لعقبه من بعده وكنبت اليك ولحالنا التي نحن
 بها فيما نذكرك حاجة أول ما فيها معروف تستوجب به الشكر علينا
 وتدخر به الأيادي قبلنا »

« وعزى بعضهم فقال »

﴿ أما بعد ﴾ فإن أمر الآخرة والدنيا بيد الله ، هو يدبرها ، ويقضى
 فهمها ما يشاء ، لا أراد لقضائه ولا معقب إحكمه ، فإن الله خلق الخلق
 بقدرته ، ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة لئلا يطمع أحد من خلقه في

تُخلد الدنيا ، ووقت لكل شيء ميقاتَ أجل لا يستأخرون عنه ساعةً ولا يستقدمون ، فليس أحدٌ من خلقه إلا وهو مُستيقنٌ بالموت لا يرجوان يُخلصه من ذلك أحدٌ ، نسأل الله تعالى خير المنقلب

وبلغنى وفاةُ فلان ، فكانت وفاته من المصائب العظام التي يُحتسبُ ثوابها من ربنا الذي إليه مُنقلبنا ومعادنا وعليه ثوابنا فعليك بتقوى الله والصبر وحسن الظن بالله . فإنه جعل لأهل الصبر صلوات منه ورحمةً وجعلهم من المهتدين »

وله في السلمة

﴿ أما بعد ﴾ فقد أتاني كتابك فيما أخبرتنا عنه من صلاح وصلاح من قبلك وفي الذي ذكرت من ذلك نعمةٌ مجللةٌ عظيمةٌ ، نحمد عليها ولها المنعم المتفضل المحمود ونسأله أن يلبسنا وإياك من شكره وذِكْرِهِ ما به مزيدها وتأديةُ حقها

وسألت ان أكتب اليك بخبرنا ونحن من عافية الله وكفايته ودفاعه على حال لو أظنبتُ في ذكرها لم يكن في ذلك احصاء للنعمة ، ولا اعتراف لكنهُ الحق ، فنرغبُ للذي تزدادُ نعمهُ علينا في كل يوم وليلة تظاهراً ألا يجعلَ شكرنا منقوصاً ولا مدخولاً وان يرزقنا من كل نعمةٍ كفاءها من المعرفة بنضله فيها ، والعملَ في أداء حقها انه ولي قدير »

فأنت ترى السهولة والجزالة تتدفقان من رسائله لآخوانه ، وعلى غمطها كتاب كيلة في أكثر مواضعه ، ولكنك ترى في كتبه في الحكيم والأخلاق

طريقته في تنسيق الأقيسة وتمحيص الحقائق مما يتضح لك به الفرق بينه
و بين عبد الحميد في بعض الوجوه كما قدمنا ، فمن ذلك ما كتبه في الأدب
الكبير المطبوع باسم اليتيمة خطأ

لِيَكُنْ ما تصرّفُ به الأذى والعذابَ عن نفسك الآ تكون حسودا
فان الحسدَ خلقٌ لئيمٌ ومن لؤمه انه يوكلُ بالأدنى فالأدنى من الأقارب
والأكفاء والخلفاء^(١) فليكن ما تقابلُ به الحسدان تعلم ان خير ما تكون حين
تكون مع من هو خير منك ، وان غمّاً لك ان يكون عشيرك وخليطك
أفضل منك في العلم ، فتقبس من علمه ، وأفضل منك في القوة ، فیدفع
عنك بقوته ، وأفضل منك في المال ، فتفيد من ماله ، وأفضل منك في الجاه
فتصيب حاجتك بجاهه وأفضل منك في الدين ، فتزداد صلاحا بصلاحه «
وعلى هذا النمط كل رسائله في الأخلاق والسياسة وطاعة السلطان

جعفر بن يحيى

هو أبو الفضل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك وزير الرشيد وأحد
أجواد الدنيا وأشهر وزراء الدولة العباسية سياسة ملك ، وقيادة جند ، وفصاحة
لسان ، وحسن بيان ، وبلاغة توقيع ، وأصل أجداده البرامكة سدنة لبيت
النوبهار وهو بيت النار متعبدا لمجوس بمدينة بلخ فلما فتح المسلمون هذه المدينة .
وهدموا النوبهار دخل كثير من أهل بلخ في الاسلام وفيهم خالد بن برمك

وكان أبوه المسمى جاماس هو برمك البيت ، فهلك على المجوسية ، ودخل خالد في الدعوة العباسية فكان من أشهر قواد أبي مسلم ، ولبلائه في الدولة ولاء المنصور وزارته ثم جعله واليا على بعض الاقاليم ، فنشأ له ابنه يحيى في أخلاق الملوك وتربيتهم ، وكان أشهر أهل زمانه علما وعقلا فوكل اليه المهدي تربية ابنه الرشيد فكان رضيعا لابنه الفضل ، واستعمل يحيى الحزم والعزم في صرف الهادي عن خلع الرشيد من ولاية العهد حين هم الهادي بالعهد لابنه الصبي ، فلما مات الهادي قام بأخذ البيعة للرشيد ، فعرف له سعيه في تأييد خلافة ، فاتخذ وزيراً ، وألقى اليه مقاليد المملكة ، وكان يخاطبه بيا أبت ، ثم أقاله وجعل ابنه الفضل وزيراً ، ثم أقال الفضل وجعل أخاه جعفراً وزيراً ، ويحيى في كل هذه الاحوال هو المشير المدبر

ولد جعفر سنة ١٤٢ ورباه أبوه تربية الملوك ، وألزمه العلماء والفقهاء والادباء والخدائق في كل شئ حتى صار نابغة زمانه ، واصطفاه الرشيد وآثره على أخيه بالوزارة ، فكان من نفاذ الأمر وقبول الشفاعة ، وشدة الدالة عنده بمنزلة لم يشركه فيها غيره ، وبقي جعفر مدة عمله للرشيد تارة يتولى الوزارة وتارة يلي أعمال ممالك الغرب فيخلفه أبوه على ديوان الخاتم وهو في كل ذلك محبوب عند الرشيد حبا غلبه به على كل أمره ، غير أن البرامكة لم يرعوا حق هذه الكرامة ، فاستأثروا بأموال الدولة ، ومالوا العلويين على الرشيد وسعوا في ازالة ملكه ، ثم تبين له أنهم زنادقة يكيدون في الباطن للاسلام ، ويحاولون اعادة ملك المجوس ، ويبدلون ما لهم وجاههم في تأييد الشعوبية ،

ونشر آداب الفرس ، وترجمة تواريخهم ، وسير ملوكهم وعقائدهم ، فعزم على
نكبتهم وأضمر ذلك عدة سنين حتى انتهز فرصة رجوعه مع البرامكة من
الحج سنة ١٨٧ فقتل جعفرا ابلا في طريقه بمكان يسمى (العُمَر) بناحية
الانبار ، وأرسل من ليلته أحد قواده برمته الى بغداد لتنصب على جسورها
وأمره بجمع رجاله سرا والاحاطة بدور البرامكة ، وقبض على يحيى وابنه
الفضل وبقية البرامكة وحبسهم في سجن الزنادقة الى أن ماتوا فيه ، واستصفي
من أموالهم وضياعهم ما تقدر قيمته بألوف الألوف

هذا ما يظهر لكل متأمل في تاريخ نكبتهم مُلمَّ بأطراف سيرهم من سبب
الايقاع بهم وما يقال غير ذلك فحديث خرافة

أما منزلة جعفر في البلاغة واجادة الرسائل وحسن التوقيع فلم ينكرها
نوابغ زمانه في الفصاحة والبيان . ومن بعدهم ، ومنهم ثمانية بن أشرس وسهل
ابن هرون والجاحظ وكفي بهؤلاء شهداء ، وكان ينحو في كتابته منحى الفقهاء
في أقيستهم لتخرجه على القاضي أبي يوسف وشدة ملازمته له
فمن رسائله قوله في العفو والمسامحة لأحد عماله

« عندنا الاعتقاد لما اقترفت ، وتصديق كل ما قلت ، واحتججت
بذكرة واعتذرت بوصفه ، والاسقاط لما جحدته ، والا كذاب للجور الذي
اقترفته ، والرجوع عما أنكرته ، والزيادة فيما اخترته ، استدعاء لك وان
انصرفت ، وحيطة لما قدمت وان ذممت ، وايثارا للاغضاء والاحتمال
فانهما أبلغ في الاصلاح ، واتبع في الاستنجاح ، وأسرع في التعليم ، وأكبر

في التقويم ، ان احتيج اليه في مثلك ممن تؤمن عليه قريحته ، وترده الى
الاستقامة تجر به »

وله فصل من رسالة

« فان العذر اذا جاء واضحا لم يكن لسوء الظن مجاز ، ولا لمن أراد
التجنى مخلص ، وما أريد ان ازداد بك علما الى علي »

توقيعاته : - وقع في قصة متصح (أي رجل ينصح لجعفر ويحذره)
بعض الصدق قبيح . وفي كتاب لعامل جائر : قد كثر شاكوك ، وقل شاكوك
فاما اعتدت ، واما اعتزلت ،

ويروى هذا التوقيع لعمر بن عبد العزيز . وهو بجعفر أليق لظهور أثر
الصنعة فيه . وفي رقة رجل سأل ولاية : اني لا أولى بعض الظالمين بعضا
وفي قصة متظلم من بعض عماله : اني ظلمتكَ دونه

والى منصور بن زياد في أمر عاتبه جعفر . فيه : لم نزرعك لنحصدك
وفي قصة مُستمنح قد كان وصله مرارا : دع الضرع يدرك لغيرك كما
درّ لك ، والى بعض عماله : اجعل وسيلتك الينا ما يزيدك عندنا

وغير ذلك من التوقيعات البليغة التي كان كتاب زمانه يشتركون من
علمانه كل توقيع منها بدينار ليحذوا على مثالها

أحمد بن يوسف

هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن ضبيح كاتب دولة بني العباس وأحد فحول المرسلين ، أصل أبائه من قبط مصر وهم موال لبني عجل بالكوفة وكتبوا لعمال بني أمية ثم اتصلوا ببني العباس وكتبوا لهم درج أحمد في بيت كتابة وبلاغة وشب على ممارسة لأعمال الدواوين واضطلاع باغراض الملوك ، فخرج كاتباً بليغاً مكثراً ، وشاعراً مقلِّعاً ، تخرَّج على أبيه وكتب زمانه وأخصهم أنس بن أبي شيخ كاتب البرامكة ، وكان أبرع أهل بيته كتابة ، وأنهمم ذكرا . وكان أخوه القاسم أشعر منه بقي أمره بموت أبيه ونسبة البرامكة خاملاً ببقية أيام الرشيد وأيام بعض الامين ثم ابتداء في الظهور بعد قتل الخلع ، فاتفق الرواة على ان أول ما ارتفع به في سلطان المأمون كتابه الذي كتبه عن طاهر بن الحسين يبشر المأمون وهو بمرور بفتح بغداد وقتل الامين ويعتذر عن قتله ، ولكنهم اختلفوا أين كتب . ومن الذي أمره بكتابه فقال الصولي كتب ببغداد . وذلك انه لما قتل الخلع أمر طاهر الكتاب ان يكتبوا الى المأمون فأطالوا . فقال طاهر : أريد أخصر من هذا . فوصف له أحمد بن يوسف فكتب هذا الكتاب المشهور وهو « أما بعد فان الخلع وان كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمه ، فقد فرّق حكم الكتاب بينه وبينه في الولاية والحرمه ، لمفارقته عصمة الدين وخروجه عن اجماع المسلمين ، قال الله عز وجل لنوح عليه السلام في ابنه

« يَأْنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » ولا صلة لاحد في معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت في ذات الله

وكتبتُ الى أمير المؤمنين وقد قتل الله الخلويع ، وأحصد (١) بالأمرير المؤمنين أمره ، وأنجز له وعده ، فالأرض بأكتافها أوطأ مهادٍ لطاقته ، وأتبعُ شئاً لمشيئته ،

وقد وجهتُ الى أمير المؤمنين بالدنيا وهي رأس الخلويع ، وبالأخرة وهي البردة والقضيب .

والحمد لله الآخذ لأمر المؤمنين بحقه ، والكائد له من خان عهده ، ونكث عقده ، حتى ردّ الألفة ، وأقام به الشريعة ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته

وقيل كتب هذا الجواب بمرو بأمر ذي الرياستين ليقرأ على الناس ، والقول الاول أليق بالمقام

وعلى كل فبداً أقدمه هذا الكتابُ وبه اتصل بالمأمون وذى الرياستين فلما دخل المأمون بغداد بعد موت ذي الرياستين لم يتخذ وزراء مفوضين بل اتخذ جملة من رؤساء الدواوين يسميهم بعض المؤرخين وزراء وبعضهم كتاباً . ومنهم أحمد بن يوسف فكان يتولى ديوان الرسائل بعد موت أحمد ابن أبي خالد . وثق أحمد في الوزارة محبباً للمأمون تصدر عنه أبلغ الرسائل وأطولها وأوجزها حتى غضب عليه غضبة مات بعدها . فقيل انه رُشئ الى

(١) أحصد الامر أبرمه وأحكته

المأمون ان أحمد قال عندما أراد المأمون تبخيرهم بمخمر تبخر به : هات المردود
وانه قال في بيته لعلامة : ما هذا البخل على البخور ؟ لو كان أمر لي ببخور
مستأنف لكان أوفى بي ، فحدها عليه وأمر باحضار عنبر جيد كثير وان يبخر
به أحمد ويدخل رأسه في زيقه ، فكاد يخنق . ومات بضيق النفس في شهر
رمضان سنة ١١٣

وكان أحمد بن يوسف من أذكي الناس وأسرعهم بديهية جوادا نبيلاً في
ما كاه ومشر به

ويكفي في تقدير منزلته في الفصاحة ، وعلو كعبه في البلاغة ، انه أحد
الذين يضرب بهم المثل فيقال (أبلغ من أحمد بن يوسف)
وله كثير من الرسائل الديوانية والاخوانية . وكانت طريقته في الكتابة
على نحو طريقة عبد الحميد من التوسع في المعاني والعبارات وجزالة اللفظ مع
ميل الى استعمال الغريب في الرسائل المطولة السلطانية ، وتوخى الدقة وتحميل
اللفظ القليل المعنى الكثير في الرسائل الموجزة .

ومن رسائله المطولة رسالة الخميس ورسالة الشكر وهذه مدونة على تمامه
في كتاب المنظوم والمشور لابن طيفور (في الجزء المحفوظ بدار الكتب الخديوية)
ومن كتبه تهئة له ببولود

« أما بعد فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا إلا كنت به بهيجا
اعتد فيه بالنعمة من الله الذي أوجب عليّ من حقلك ، وعرفني من جميل
رأيتك . فزادك الله خيرا ، وأدام احسانه اليك :

وقد بلغني أن الله وهب لك غلاماً سريّاً . أجمل لك صورته وأتم خلقه ،
وأحسن فيه البلاء عندك ، فاشتد سروري بذلك ، وأكثر حمد الله عليه ،
خبارك الله فيه ، وجعله بارّاً تقياً ، يشد عضدك ، ويكثر عددك ، ويُقر عينك »
وكتب الى ابراهيم بن المهدي في هدية استقلها

« بلغني استقلالك بلا الطفتك ، والذي نحن عليه من الأُنس سهل علينا
قلة الحشد لك في البر ، فاهدنا هدية من لا يحتشم ، إلى من لا يغتم »
وكتب في تهنة بافراق من مرض

« قد أذهب الله وصب العلة ونصبها ، ووفر أجرها وثوابها ، وجعل فيها
من إرغام العدو بعقباها ، أضعاف ما كان عنده من السرور بفتح أولها »

عمرو بن مسعدة

هو أبو الفضل عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول أحد وزراء المأمون ،
وأبلغ كتاب الأيجاز ، والمضروب به المثل في جزالة اللفظ وقلته . وصواب
المعنى وكثرته

« كان جده صول وأخوه فيروز ملكي جرجان . وهما من الترك
تمجسا وتشبها بالفرس . فلما افتتحها يزيد بن المهلب أسلمها على يديه . وصارا
من مخالفيه وقواده . وخرج صول معه على بني أمية . فلما قُتل مع يزيد
دخل ابناه محمد وسعيد في دعوة بني العباس . وكان محمد أحد جلة الدعوة
بخراسان . فلما استتب أمر العباسية وتولى السفاح نَقِم محمد بعض أمور علي

رجال الدولة فخرج على السفاح فقتله عبد الله بن علي . وبقى أخوه سعيد في
الطاعة فنشأ أولاده كتابا في ديوان المنصور والمهدى والرشيد حتى ووزر حفيده
عمرو بن مسعدة للمأمون

نشأ عمرو بن مسعدة ببغداد . وتخرج على علماء زمانه . ثم اندرج في
سلك كتاب الديوان وتقلب في الاعمال حتى صار كاتب التوقيع بين يدي
جعفر بن يحيى

قال عن نفسه : كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى . فرفع اليه غلمانه
يستزيدونه في روايتهم . فرمى بها اليّ وقال : أجب عنها فكتبت : (قليل دائم
خير من كثير منقطع) فضرب بيده على ظهري وقال : أيّ وزير في جلدك ؛
ثم كتب للفضل بن سهل وأخيه الحسن . ووصفه الفضل فقال : هو أبلغ
الناس . ومن بلاغته أن كل واحد يظن أنه يكتب مثل كتبه ، فاذا رامها
تعذرت عليه ، وناهيك بهذا القول من مثل الفضل ، وبقى يعمل في الديوان
حتى ولي المأمون الخلافة ، فلما قُتل الفضل وولى أخوه الحسن الوزارة ثم
اختلط واعتزل العمل ، استبد المأمون بالأمر ، واتخذ عنده وزراء لم يزيدوا
عنده عن مرتبة الكتاب ، وكان كل منهم يختص برياسة ديوان أو ديوانين
ويرجعون في أمورهم الى المأمون رأسا فهم يُعدون في الوزارة تارة ، وفي الكتاب
أخرى ، ومنهم عمرو بن مسعدة فكان يتولى للمأمون ديوان الخاتم والتوقيع
وديوان الأئمة وربما استكتبه في ديوان آخر أو وكل اليه مهام أخرى أو
بعث به كاشفا « مفتشا » عن أحوال الولاة والقواد ، وكثيرا ما استصحبه

معه في أسفاره وغزواته .

ولم يزل محمود السيرة عند المأمون محبوبا لديه حتى مات في غزوة معه بأذنه^(١) قرب طرسوس سنة ٢١٦ ولما مات رفعت الى المأمون رقعة : أنه خلف ثمانين ألف ألف درهم فوق في ظهرها . هذا قليل لمن اتصل بنا . وطالت خدمته لنا فبارك الله لولده فيما خلف ، وأحسن لهم النظر فيما ترك ومن رسائله أن المأمون أمره أن يكتب لشخص كتابا الى بعض العمال بالوصية عليه والاعتناء بأمره فكتب له : (كتابي اليك كتاب واثق بمن كتب اليه . معنى بمن كتب له ، ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية)

وروى أحمد بن يوسف وزير المأمون قال دخلت على المأمون وهو يمسك كتابا بيده وقد أطل النظر فيه زمانا ، وأنا ملتفت اليه ، فقال : يا أحمد أراك متفكرا فيما تراه مني . فقلت نعم ، وقى الله أمير المؤمنين من المسكاره وأعاذه من المخاوف ، قال : فانه لا مكره ، فيه ولكني قرأت كلاما وجدته نظير ما سمعته من الرشيد بقوله في البلاغة . فانه كان يقول « البلاغة التباعد عن الاطالة ، والتقرب من معنى البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى » وما كنت أتوهم أن أحدا يقدر على المبالغة في هذا المعنى حتى قرأت هذا الكتاب - ورمى به اليّ - وقال هذا كتاب من عمرو بن مسعدة ألى فقراته فاذا فيه

(كتابي الى أمير المؤمنين ومن قبلي من قواديه وسائر أجناده في

الاتقياد والطاعة على أحسن ما تكون طاعةُ جند تأخرت أرزاقهم ، واتقيادُ
كفاةٍ تراخت أعطياتهم ، واختلت لذلك أحوالهم ، والثالث معه أمورهم)
فلما قرأته . قال ان استحسناني اياه بعثني أن أمرت للجند قبيله بعطائهم
لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حلٍّ محله في صناعته
وكتب الى المأمون في رجل من بنى ضبة يستشفع له بالزيادة في منزلته
عنده وجعل كتابته تعريضا

(أما بعد فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين لتطوُّ لك على في الحاقه
بُنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون . وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجملني في
مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام)
فكتب اليه المأمون

« قد عرفنا تصريحك وتعريضك لنفسك ، وأجبنك اليهما ، ورفقناك
عليهما » ، وكتب الى الحسن بن سهل عن لسان المأمون ، يهنئه بمولود
(أما بعد فان هبة الله لك هبة لأمير المؤمنين ، وزيادته اياك في
عددك زيادة له في عدده لمحلك عنده ، ومكانك من دولته ،
وقد بلغ أمير المؤمنين ان الله وهب لك غلاما سريًا ، فبارك الله لك
فيه وجعله بارًا تقيا مباركا سيذا زكيا)

ومن كلامه .

(أعظم الناس أجرا وأبنهم ذكرا من لم يرَضَ بهوت العدل في دولته
وظهور الحججة في سلطانه ، وايصال المنافع الى رعيتيه في حياته حتى احتال

في تخليد ذلك في الغابرين ، عنايةً بالدين . ورحمةً بالرعية ، وكفايةً لهم من ذلك . ولوعنوا باستنباطه لكان يعرضُ أحد الأمرين ، أما الكدُّ عن أصابة الحق فيه لكثرة ما يعرضُ من الالتباس . وأما أصابة الرأي بعد طول الفكرة ، ومقاساة التجارب ، واستغراق كثير من الطُّرق الى دَرْكه وأسهل الرعاة من دامت سعادة الحق في أيامه ، وبعد وفاته وانقراضه)

محمد بن عبد الملك الزيات

هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات بن أبان بن أبي حمزة أحد فحول الكتاب والشعراء وأصل آبائه من أهل السواد من قرية تسمى « الدَّسْكَرَة » على الشاطئ الشرقي لدجله جنوبي بغداد ، وكان جده أبان يجلب الزيت من مواضعه الى بغداد ويتجر فيه ، ثم أقام هو وولده عبد الملك بمحلة الكرخ ببغداد : فنشأ عبد الملك في التجارة واجتهد حتى صار من مياسير تجار الكرخ : وحتى اقترض من ابراهيم المهدي حين بويغ بالخلافة عشرة آلاف درهم وأنظره الى ميسره

ونشأ له ابنه محمد فطناً نبها فعلمه الكتابة والحساب يريد أن يخلفه في التجارة والكسب ، ولكن همته ربأت به عن التجارة اذ كانت ممقوتة في نظر الاشراف ، وهي مهنة العوام والسُّوقَة في ذلك الزمان فتأدب على علماء زمانه : كابي محمد اليزيدي وغيره ، وتعلم النحو واللغة وكاد يحسب من أئمتها ، وكانت ترد عليه الاسئلة فيهما من طلاب العلم فيجيب عنها

وقال ابن الزيات الشعر ، وبلغ فيه غاية لم يبلغها أحد من كتاب بنى العباس ووزرائهم حاشا ابراهيم بن العباس على اقلاله ، ولولا تصرفه في الكتابة والوزارة لكان من فحول شعراء زمانه ، على انه تكسب بالشعر في صباه ، وهجا الاشراف ، وخاف الناس من هجائه ، وكان أبوه يلومه على اشتغاله بالادب والشعر ، وملازمته كتاب الدواوين ، وانصرافه عن التجارة مع ما فيها من الربح العاجل حتى مدح الحسن بن سهل بقصيدة بليغة ، فوصله بعشرة آلاف درهم فعاد بها الى أبيه . فقال له لا ألومك بعدها على ما أنت فيه

ولما مطل ابراهيم بن المهدي أباه في عشرة آلاف الدرهم التي كان اقترضها من أبيه عمل محمد قصيدة طنانة يغري بها المأمون على الايقاع بابراهيم ويدكر أن طاعته خبٌّ وخديعة ، وأطلع ابراهيم عليها وهدده بانه ان لم يدفع الى أبيه دينه رفعها الى المأمون . فخاف ابراهيم وقضى الدين . وكان أول أمره في صناعة الكتابة انه خدم في الدواوين بعض أيام المأمون وصدرا من أيام المعتصم حتى اذا كانت وزارة أحمد بن عمار بن شادي للمعتصم ورد كتاب من بعض العمال يذكر فيه خصب ناحية وكثرة الكلال فيها فسأل المعتصم ابن عمار ما الكلال فلم يدر وكان قليل المعرفة باللغة والادب كما كان المعتصم ضعيفاً في الكتابة . فقال المعتصم : خليفة أمي ، ووزير عالمي ! أبصروا من الباب من الكتاب ! فوجدوا محمد بن الزيات فسأله : فقال له : أول النبات يسمى بقالا . فاذا طال قليلا فهو الكلال فاذا يبس وجف فهو الخشيش فقال

المعتصم لابن عمار: أنظر أنت في الدواوين . وهذا يعرض على الكتب ثم استوزره وصرف ابن عمار

ولما تولى الوزارة ضبط المملكة ونهض بأمرها نهوضا لم يكن لمن تقدمه من أضرابه . فكانت معرفته بالسياسة وقواعد الملوك تفوق معرفته بالكتابة والعلم والأدب . مع انه كان في جميعها منقطع النظر . وكان مع عقله وفضله وجدته وعفة يده واقتصاده جبارا متكبرا فظا غايضا خشنا الجانب شديد القسوة مبعضا للخاق ، وكان له أقبح أثر في مصادرة الوثائق للكتاب ومطالبتهم بالأموال . وكان يقول الرحمة خور في الطبيعة ، وضعف في المنّة (١) والحياة خنت . والسخاء حُقق . وبقى وزيرا المعتصم مدة خلافته . ولما ولى الوثائق وكان يعتدّ عليه بأمر كثيرة مدة أبيه - أراد أن يُوقع به . ولما لم يجد مثله في كفايته غفر له جرمه واستوزره وفوض الأمور إليه فلم يكن له وزير غيره ، ثم توفي الوثائق وولى المتوكل ، وكان لابن الزيات عليه اهانة واساءة قبل خلافته فأمر له أربعين يوما حتى يطمئن إليه ثم قبض عليه وسجنه وعذب أشد العذاب ، فقيل انه وضع في تنور من حديد في داخله مسامير مثبتة كان ابن الزيات عملة في وزارته لتعذيب الناس ، فشُدّ فيه واقفا وقيد بخمسة عشر رطلا من الحديد . فاسترحم معذبيه . فقالوا له : الرحمة خور في الطبيعة ، وهل رحمت أحدا ، فبقي كذلك أربعين يوما حتى مات سنة ٢٣٣ فلم يُرَ الا شامت به فارح بنكبته :

رسائله — : كتب محمد بن عبد الملك الزيات الى ابراهيم بن العباس
الصولي أيام مقامه بالأهواز كتابا يقول فيه :

« قلة نظرك لنفسك حرمتك سناء المنزله ، واغفالك حظك حظك عن
أعلى الدرجة ، وجهلك بقدر النعمة أحل بك اليأس والنقمة حتى صرت
من قوة الأمل ، معتاضا شدة الوجل ، ومن رجاء الغد ، متعرضا يأس الأبد ،
وركت مطية الخافة ، بعد مجلس الأمن والكرامة ، وصرت معرضا للرحمة ،
بعد ما اكتفتك الغبطة ، وقد قال الشاعر

إذا ما بدأت أمرا جاهلا ببر فقصر عن حمليه
ولم تره قابلا للجميل ولا عرف الفضل من أهله
فسمه الهوان فان الهوان دواء لذي الجهل من جهله

قد فهمت كتابك واغراقك واظنابك ، واطافة ما أضفت بتزويق الكتب
بالأقلام . وفي كفاية الله غنى عنك يا ابراهيم ، وعود منك ، وهو حسنا
ونعم الوكيل »

وكتب عن لسان الخليفة الى أحد العمال

« أما بعد فقد انتهى الى أمير المؤمنين كذا فأنكره ولا تخلو من
أحدى منزلتين ، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ، ولا يُزيل لائمه ،
إما تقصير في عمالك دعاك الإخلال بالحزم ، والتفريط في الواجب ، وأما
مظاهرة لأهل الفساد ، ومداينة لأهل الریب . وأية هاتين كانت منك ،
محنة النكر بك ، وموجبة العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من
(٥ - أدب اللغة العربية)

الأناة والنظرة ، والأخذ بالحجة ، والتقدم في الإعذار والانداز ، وعلى حسب ما قلت من عظيم العثرة ، يجب اجتهادك في تلافى التقصير والاضاعة والسلام »

وكتب من فصل في كتاب — : ان حق الأولياء على السلطان تنفيذ أمورهم ، وتقويم أودهم ، ورياضة أخلاقهم وان يميز بينهم ، فيقدم محسنهم ويؤخر مسيئهم ، ليزداد هؤلاء في احسانهم ، ويزدجر هؤلاء عن اساءتهم ، وكتب فهدى آخر من رسالة — : ان من أعظم الحق حق الدين ، وأوجب الحرمه حرمة المسلمين ، فحقيق لمن راعى ذلك الحق ، وحفظ تلك الحرمه ، أن يراعى له حسب مارعاه الله ، ويحفظ له حسب ما حفظ الله على يديه ،

ابراهيم بن العباس الصولي

هو أبو اسحق ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول كاتب العراق وأشعر أصحاب المقطعات .

ويُعرف من نسبه انه ابن عم عمرو بن مسعده ، الا ان عمرا كان أكبر منه ، وأقدم شهرة ، وأسبق اتصالاً بخدمة السلطان ،

منسؤه وتصرفه — : نشأ ابراهيم ببغداد في بيت كتابة و بلاغة ، فتلقى العلم والأدب عن أهله وعن أئمة زمانه ، واشتغل بالشعر في حدائته ،

فبرع فيه وتكسب به ، ورحل الى العمال والامراء يمدحهم ويستميح جدواهم ، فلما بويع المأمون بالخلافة بخراسان ، وعهد بها من بعده لعلی بن موسى الرضا بإشارة الفضل بن سهل ، أعجب ذلك ابراهيم وكان ممن يتشيع - فصنع قصيدة يذكر فيها فضل آل علي وانهم أحق بالخلافة من غيرهم ، ورحل بها مع أخيه عبد الله وقصد الفضل بن سهل ذا الرياستين وأسمع ابراهيم قصيدته لعلی بن موسى ، فوهب له عشرة آلاف درهم من الدراهم التي ضربت باسمه ، فادخرها عنده وجعل منها مهور نسائه وخلف بعضها لكفنه وجهازه الى قبره ، ومن ذلك الحين اتصل بندي الرياستين وكان من صنائعه فجعله كاتباً لأحد قواده ورفع من شأنه

ولما قتل الفضل وشي به بعض الناس الى المأمون ، فوجد عليه ، ففر وطلبه ثم عفا عنه ، وبقى ينتقل في أعمال النواحي والدواوين حتى كان زمن الواثق عاملاً على الاهواز ، وكان صديقاً لابن الزيات قبل وزارته ، فظن انه لا يتحامل عليه في كشف أموره ، وتدقيق حسابه ، فكان غير ما ظن ، فعزله ابن الزيات ، وسجنه بالأهواز ، وطالبه بأمواله ، فكتب اليه كتاباً بليغة ، وقصائد كثيرة ، يستعطفه بها ويعاتبه ويذكره قديم عهده ، فلم يزد ذلك الوزير إلا غلظة ، ثم وقف الواثق على تحامله عليه ، فرفع يده عنه ، وأمره ان يقبل منه ما رفعه ، وردده الى الحضرة مصوناً ، فلما أحس ابراهيم بذلك بسط لسانه فيه ، وهجاه هجاء كثيراً

ثم لما كانت خلافة المتوكل تولى ديوان الضياع والنفقات ، مع انه كان

على فضله وبلاغته قليل التقدم في جباية الخراج واستخراج الأموال وضبط الحساب وبذلك كان يطعن عليه جساده عند المتوكل ويضعون منه ، فلم يكن ليصفي لهم ، وكانت بلاغته وظرفه يستران عيوبه ، وقلمها وضعت الأيام امرأ في موضعه الذي يستأهله :

أعزف ومزهب — : وكان إبراهيم سمحاً جواداً كثير الطرب واللهو والقصف وهو مع ذلك أوصف الناس لحوادث الزمان ، وغدر الإخوان ، وعاقبه اشتهاؤه بالخلاعة من تقلد الوزارة - فقال له يوماً أبو وائلة : قد أخملت نفسك ورضيت أن تكون تابعا أبداً لاقتصارك على القصف واللعب ، فأنشأ يقول

انما المرء صورة حيث حلت تاهت

أنا مذ كنت في التصرف لي حال ساعتي

وكان يظهر تشييعه زمن المأمون ويكتمه كتماناً شديداً امام المتوكل

هزنته في الكتابة والسعر — : كان إبراهيم أحد كتاب الدنيا في

زمانه ، وكان يلقب بكتاب العراق ، وكانت معانيه التي يستخدمها في الكتابة كلها مما يلقيه عليه خاطره ، لا يقتبس من غيره ، ولا يحل شعر أحد ، ولا يتمحل أي عبارة كانت ، وذكروا عن نفسه انه لم يفعل ذلك الا مرتين اقتبس في احدهما معنى لمسلم بن الوليد ، وفي الاخرى معنى لابى تمام ، وباعتماده على نفسه ، واختراعه للمعاني ، صار كلامه قدوة لغيره حتى ضارع الامثال في الشهرة ثرا ونظماً

وهو أحد الذين راعوا الازدواج في فقرات الكتابة ، فاقتدى بهم غيرهم ،
وأحد الذين اشتهروا في التمازي ، وكانت أقوالهم فيها نموذجاً يحتذى

شعره

ولولا أن ابراهيم انقطع مدة شهرته عن التكسب بالشعر لَبَدَّ فحول الشعراء
في زمانه ، وفي ذلك يقول دعبل الخزاعي : لو تكسب ابراهيم بالشعر لتركنا
في غير شئ

و بقي ابراهيم يتقصد ديوان الضباع والنفقات حتى مات بسرّاً من رأى
سنة ٢٤٢ وله من العمر نحو سبعين سنة

بعض رسائله

كتب شفاعة الى بعض اخوانه

فلان ممن يزكو شكره ، ويحسن ذكره ، ويعنى بأمره ، والصنيعة
عنده واقعة موقعا ، وسالكة طريقها ،

وأفضل ما يأتيه ذو الدين والحجا اصابة شكر لم يضع معه أجر
ولما قرأ ابراهيم على المتوكل رسالته الى أهل حمص الخارجين عليه
والداعين الى العصية وهي :

« أما بعد فان أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه مما قوم به من
أوذ ، وعدل به من زيغ ، ولم به من متشسر ، استعمال ثلاث ، يقدم
بعضهن على بعض ، أولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظنر

به في تحذير وتخويف ، ثم التي لا يقعُ بحسبِ الداءِ غيرها
 اناةٌ فان لم تُغنِ عَقَبَ بعدها وعيدا فان لم يُغنِ اغنت عِزَّ امه
 عَجِبَ المتوكل من حسن ذلك . وأوما الى عبيد الله بن يحيى بن خاقان : أما
 تسمع فقال يا أمير المؤمنين : ان ابراهيم فضيلة خباها الله لك ، وذخيرةٌ ذخرها
 على دولتك «

ويقال ان هذا أول شعر نفذ في كتاب عن خلفاء بني العباس .
 وليس كذلك

وكتب تعزية عن لسان المتصر بالله الى طاهر بن عبد الله مولى أمير
 المؤمنين .

« أما بعد تولى الله توفيقك وحياتك ، وما يرتضيه منك ويرضاه
 عنك ، ان أفضل النعم نعمةٌ تُلَقِّتُ بحق الله فيها من الشكر ، وأوفرَ حادثةٍ
 ثواباً حادثةٌ أدَّى حق الله فيها من الرضا والتسليم والصبر . ومثلك من قدّم
 ما يجب لله عليه في نعمةٍ فشكرها ، وفي مُصيبةٍ فأطاعه فيها . وقد قضَى الله
 سبحانه وتعالى في محمد بن اسحق مولى أمير المؤمنين (عفا الله عنه) قضاءه
 السابق والموقع . وفي ثواب الله ورضي أمير المؤمنين (أدام الله عزه)
 وتقديم ما يُقدّمُ مثله أهلُ الحجا والفهم ، ما اعتاضه معراضٌ وقدّمه موقِّعٌ .
 فليكن الله عز وجل وما أطعته به وقدّمت حقه فيه ، أولى بك في الامور
 كلها فانك ان تتقرَّب اليه في المسكروه بطاعته يُحسن ولايتك في توفيقك
 لشكر نعمة عندك «

التدوين والتصنيف

انقضى عصر الخلفاء الراشدين ولم يدون فيه كتاب الا ما كان من أمر كتابة المصحف ، وكان مرجع الناس في أمر دينهم وديانهم كتابُ الله تعالى وسنة رسوله : فاذا اشتبه عليهم أمر من أمور الدين رجعوا الى الخلفاء وفقهاء الصحابة ، واستخاروا الله فيه ، واستظروا رأيا عملوا به . وكان يتخرجون من كتابة أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وفتاوى الصحابة خشية أن يجرم ذلك الى الاعتماد على الكتب واهمال حفظ القرآن الكريم والسنة ، فاذا عرض للكتاب عارض فات معه علم الدين . ثم جاء عصر بني أمية وقد انتشر الاسلام في مشارق الارض ومغاربها ، واختلطت العرب بالامم المختلفة من الاعاجم ، ففسدت فيهم ملكة اللسان العربي ، وفشا اللحن فخافوا على القرآن من التحريف ، فدونوا النحو بعد احجام وأخذ ورد . وكان أول من دون كتابا فيه أبو الاسود الدؤلي وأصحابه . ثم حدثت الفتن وتعددت المذاهب من خوارج وشيعة وجماعية وغيرها . ولما كثرت الاقوال والفتاوى والرجوع الى الرجال والرؤساء ، ومات أكثر الصحابة خافوا أن يعتمد الناس على رؤسائهم ويتركوا سنة رسول الله ، فاذن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في تدوين الحديث بعد ان استخار الله أربعين يوما ، فدوّن ما صح من حديث رسول الله في كتاب بعث به عمر الى الامصار ولم يعرف له بعد ذلك خبر . وبقي كثير من التابعين محجما عن التدوين والتصنيف

تخرجوا وتأثروا . وبعضهم كتب أو سمح لمن يكتب عنه في الحديث ورواية أقوال الصحابة في التفسير ، وانقضى عصر بني أمية ولم يدون فيه غير قواعد النحو وبعض الأحاديث وأقوال فقهاء الصحابة في التفسير . و يروى أن خالد ابن يزيد وضع كتابا في الفلك والكيمياء ، وان معاوية استقدم عبيد بن سارية من صنعاء فكتب له كتاب (الملوك والخبار الماضية) وان وهب بن منبه والزهرى وموسى بن عقبة كتبوا في ذلك أيضا كتابا ، ولكن ذلك لم يقنع الباحثين في تاريخ العلوم وتصنيفها أن يعتبروا عصر بني أمية عصر تصنيف ، اذ لم تتم فيه كتب جامعة حافلة مبوبة مفصلة ، وانما كان كل ذلك مجموعات تدون حسب ورودها واتفاق روايتها

فلما جاء عصر الدولة العباسية وكانت الحاجة إلى التدوين قد اشتدت لاتساع ممالك الاسلام ودخول كثير من الأمم المتحضرة فيه ، وتعددت الوقائع والحوادث التي لم يكن لها نظير فيما سبق ، هب العلماء الى تهذيب ما كتب في الصحف وما حفظوه في الصدور ورتبوه وبوبوه وصنفوه كتابا ، وكان من أقوى الأسباب في اقبال العلماء على التصنيف حث الخليفة أبي جعفر المنصور عليه ، وحمله الأئمة والفقهاء على جمع الحديث والفقه ، وبذله على بذله الأموال الجزيلة للعلماء كالامام مالك وغيره . ولم يقتصر المنصور على تمضيد العلوم الاسلامية ، بل أوعز الى العلماء والمترجمين من السريانيين والفرس ان ينقلوا من العربية إلى الفارسية واليونانية فنون الطب والسياسة والحكمة والفلك والتنجيم والآداب والمنطق ، وتابعه في ذلك أولاده وأحفاده حتى

ذخرت بحور العلم ، واخترت الفنون ، وتفرعت المسائل ، ودونت الكتب
في كل فن . وتميزت بذلك العلوم الى قسمين عظيمين ، العلوم الاسلامية
من شرعية ولسانية

والعلوم الدخيلة من سياسة وأدب وفلسفة اهلية وطبيعية ورياضية .

والكل من هذين في نشأته طريق محدودة ورجال معدودة

فأما أوائل المصنفين للكتب المرتبة في العلوم الاسلامية فهم الامام عبد
الملك بن عبد العزيز بن جريج المتوفى سنة ١٥٥ وأبو النصر سعيد بن أبي
عروة المتوفى سنة ١٥٦ وربيع بن صبيح المتوفى سنة ١٦٠ وأبو بكر بن حزم
على خلاف في أسبقهم الى ذلك

ويعتبرون سنة ١٤٣ هي السنة التي كانت مبدأً لهذه النهضة . ثم صنف
مالك بن أنس وسفيان بن عيينة بالمدينة ومعمّر وعبد الرازق باليمن ، والأوزاعي
بالشام ، وحماد بن سلمة وروح بن عبادة والخليل بالبصرة ، وسفيان الثوري
ومحمد بن فضيل بن غزوان وابن اسحق صاحب المغازي والامام أبو
حنيفة بالكوفة

ثم بعد ذلك يسير صنف ابن وهب بمصر ، وهشيم وعبد الله بن
المبارك بنجراسان ، وأبو يوسف ومحمد ببغداد . ثم ازداد التصنيف سعة وكثر
رجالها بالبصرة والكوفة ولا سيما رجال العربية . ثم ذخرت بغداد بمن نشأ
فيها وجلا اليها من الكوفة والبصرة والمدينة ، ونشأت طبقة بعد الأئمة الواضعين
هذبوا كتبهم ، وتداركوا ما فاتهم ، وفصلوا مجملهم ، واجتجوا المذاهبهم ، وابتدأ

ذلك من عصر المأمون أى من أواخر القرن الثانى الى أواسط الثالث . ثم نشأت طبقة ثالثة رسخت فيها ملكات العلوم والفنون ، وصار التصنيف والتعليم صناعة متقنة عندها ، فبرعت فى أصناف التصانيف الثلاثة ، المبسوطات ، والوسائط ، والمختصرات ، تقريبا للعالم من كل الطبقات . وهذه الطبقة الثالثة هى التى نمت على أيديها وأيدى الطبقة التى بعدها قواعد العلوم وأصول الفنون . وتنتهى الى أواسط القرن الرابع ، وكل من أتى بعدهم من العلماء فليسوا إلا أهل تفریع وتنظيم وتحقیق وتدقیق ومناقشات ومجادلات لم تؤد الى ابتكار شئ جديد من أصول العلوم ، اللهم إلا أفذاذا كانوا ينجُمون فى أزمان متقطعة . لا ترتبط بهم سلسلة علم ، ولا يستطيل معهم تاريخ نشأة فن

موضوعات العلوم الإسلامية

أما موضوعات العلوم الإسلامية فقد شملت الشرعية منها عدّة علوم كال تفسير والقراآت والحديث والفقّه وأصول الفقّه والفرائض والخلاف والجدل والكلام وشملت اللسانية منها اللغة والنحو والصرف والبلاغة بأقسامها والأدب الشامل لتاريخ الدول والمغازى والسير والنوادر والأخبار والنسب ورواية الشعر وغير ذلك

كتابة التصنيف فى العلوم الإسلامية

كانت كتابة التصنيف فى العلوم الإسلامية عبارة عن سلسلة من الروايات

المستندة الى روايتها من أحاديث ، أو أقاويل صحابة ، أو فتاوى فقهاء ، أو أشعار اعراب ، أو أخبار فتوح ، أو نوادر ، أو غير ذلك . فكان عمل المصنف ينحصر في جمع هذه الروايات من أفواه الثقات ، ودرج كل طائفة متشاكلة منها تحت صنف خاص من المباحث ، وربما شرح المصنف بعض غريبها ، أو زاد من عنده ما يربط بعضها ببعض ، غير ان كتب الأدب من التاريخ والمغازي والسير والنوادر والأخبار وأيام العرب كانت لطول قصصها تظهر فيها عبارات المصنفين الأوائل ، إذ كانوا قد نقلوها عن أربابها من روايتها من الاعراب أو من أهل الكتاب بالمعنى غالبا ، فكانوا يكتبونها بعباراتهم إلا في نحو شعر أو خطبة ، وهم كانوا في جيلهم أهل فصاحة وبلاغة لا تجارى بل هم كانوا أئمة الأدب ورافعي قواعده ، مثل أبي عمرو بن العلاء والخليل والأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد وابن اسحق والكلبى وابنه والواقدي والمدائني وابن سعد ونظائرهم . ولكن ذلك لم يخرجها عن كونها روايات لا رأى المؤلف فيها . واستمر الحال على ذلك أكثر من قرن في أكثر الفنون غير الفقه والكلام

أما الفقه فقد بدأت هذه الطريقة تختلف فيه قبل انقضاء القرن الاول من ابتداء التصنيف فكان للمصنفين عبارات الاستنباط والتفريع والتعليل والشرح والاختصار وجمع فروع تحت أصول كلية مما أداهم الى اختراع علم الاصول وكان الامام الشافعي سابق حليته .
وأما علم الكلام فلانه وضع للرد على أصحاب المقالات من المبتدعة

والزنادقة وللدفاع عن أصول الاسلام كان المتكلمين فيه من أول الأمر مجال واسع ، وللعقل فيه مندوحة عن التزام النصوص ، لأن المعول فيه على قوة البرهان وفصاحة اللسان . فكانت أكثر كتبه مكتوبة بعبارة أصحابها وكلامهم إلا في الشواهد (ولعل ذلك كان سبب تسميته علم الكلام) ، ويقابلهم الصفائية وأصحاب الحديث من الواقفين عند حد النصوص والتوقف والتفويض فيما لم يرد فيه نص ولما ترجمت كتب الفلسفة والمنطق في زمن الرشيد والمأمون ومن بعدها امتزجت مباحثها بمباحث علم الكلام ، واستُخدم المنطق آلة للنظر ، فصار الكلام صناعة وخضعت عبارته للأساليب المنطق اليونانية ، وسرت منه إلى الأصول والخلاف والفقه والبلاغة . وكان أكثر مصنفات الطبقة الأولى والثانية ولا سيما الأدبية واللغوية منها كتباً صغيرة أو رسائل محدودة في موضوعات خاصة ، إذ لم تكن مفردات العلوم قد اندرجت تحت فنون عامة ، حتى لقد كان كل مبحث من مباحث العلم الواحد يُؤلف فيه كتاب مستقل ذاتاً أو اسماً ، فيقال في الفقه مثلاً كتاب الصلاة - البيع -

كتاب الفرائض ومن هذه الكتب جمعت المبسوطات

أما أسماء الكتب فكانت على غاية السذاجة والغضاضة لم تكلف فيها الأسماء الضخمة والعنوانات المزخرفة والالقاء المبهرجة ، فلم يتجاوز في تسميتها أسماء موضوعاتها الا قليلاً ، فيقال كتاب الشعر والشعراء ، كتاب تقيف ، كتاب المثالب ، كتاب النسب ، كتاب الحيوان ، كتاب البخلاء . وربما لجوا في التسمية إلى طول الكتاب أو قصره فسموا المبسوط والجامع

والوسيط والوجيز والكامل . . ومضت الطبقتان الاوليان من المصنفين في العلوم الاسلامية والامر على ما ذكر . فلما نضجت العلوم واستحصفت الفهوم واطلع العلماء على نظام الكتب التي ترجمت من اللغات المختلفة تجردت الطبقة الثالثة والرابعة في غير كتب الحديث الى اختصار الروايات وحذف المكرر فيها ، واغفال أسانيدھا ، وادخالها كل طائفة منها تحت حكم كلى ، واستخدموا في فهمها الاقيسة العقلية وأصبحت العلوم صناعات تنشأ عنها ملكات خاصة ، الا ان عبارتها كانت في أول الامر بليغة حصيفة . فلما غلبت الصناعة المنطقية ، وزاد الاختصار عن الحد الملائم ، ودخل كثير من الاعاجم في غمار المؤلفين ، صارت معقدة مشتبكة النظم عاتقة عن التحصيل . وزادوا في تفخيم أسماء الكتب والتهويل فيها وتحليتها فسموا العباب والبحر والمحيط والعقد والا كليل والتاج الخ

موضوعات العلوم الرغبية

تشمل العلوم الدخيلة في الملة الاسلامية علوم الطب اليونانى والهندي وعلوم الفلك والنجوم على طرق اليونان والفرس والهنود والفلسفة الالهية والرياضية والطبيعية والمنطق

كتابة التصنيف في العلوم الرغبية وترجمتها

كانت كتابتها عين ما كتبت به في لغاتها مقسرة فيها العبارة الاعجمية بالعربية ولذلك بقي نظامها وترتيب مسائلها كما وضعه أصحابها، أى انها كانت

ترجمة محضة بل ان ترجمتها لم تكن في عهد المنصور والرشد كما ينبغي لقلة من يجيد اللغتين العربية والاعجمية . فلما اتسعت دائرة الترجمة في زمن المأمون ، واستدعى المترجمين من جميع الاقطار ، وأفاض عليهم الذهب النضار، حتى كان يعطى أجرة ترجمة الكتاب زنته ذهباً . رحل كثير من أبناء السريان وغيرهم الى بلاد اليونان، وخذقوا اليونانية ، وترجموا كثيراً من كتبها، وصححوا ما ترجم من قبل ، وجلب اليهم المأمون كتب الفلسفة والطب من القسطنطينية ومن البلدان التي افتتحها في آسيا الصغرى ، ولم ينقض عصر المأمون حتى كان أكثر الكتب اليونانية قد ترجم الى العربية ترجمة صحيحة ، وحتى مهر من المسلمين واليهود والسريان والصابئة عدد غير قليل في الفلسفة بأقسامها ، وصارت لهم فيها ملكات راسخة كما كانت لحكام اليونان . فألفوا الكتب من تلقاء أنفسهم وصححوا أغاليط حكماء اليونان في الفلك والجغرافيه وغيرها . وانتشر بانتشار فلسفة اليونان نوع جديد من الاتحاد فاضطر علماء الكلام أن يدرسوها ليردوا على أهل الزيغ من نوع أدلتهم ، واستعملوا لذلك الاقيسة المنطقية ، فامتزجت الفلسفة الالهية بعلم الكلام ، حتى صاروا كشيء واحد . وكانت عبارة كتبها في بدء أمرها واضحة مفهومة ، ثم جنحوا فيها الى الاختصار وتعميتها على من ينتصبون لمعارضهم من الفقهاء والحنابلة ، فصعبت عبارتها حتى صارت رموزاً وكنائيات ، وبقيت كذلك الى الآن .

أما كتب الأدب التي ترجمت من الفارسية في أوائل عصور الترجمة ككتب ابن المقفع وسهل بن هرون فكانت من أبلغ ما كتب باللسان

العربي ، لتمكن أربابها من اللغتين ، ولأن موضوعها لا يحتاج الى كد ذهن
وكدح خاطر

ونشير الآن ببند يسيرة الى نشأة كل من العلوم الاسلامية والدخيلة
فنقول :

نشأة العلوم الاسلامية

تشمل العلوم الاسلامية العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية
وتقدم في كتابنا هذا الكلام في الثانية على الاولى اشدة ارتباطها
بموضوعه وهو تاريخ اللغة والأدب

وتشمل العلوم العربية اللغة والنحو والبلاغة والأدب . وكان النابغ في
واحد منها في هذا العصر عالما بسائرهما مع تفاوت قليل أو كثير فيها . وتقدم
ذكر الأدب لشدة ارتباطه بموضوعنا ، ولأنه غاية العلوم العربية

علم الأدب

(علم الأدب عند أي أمة هو العلم الذي يبحث فيه عما اشتملت عليه
لغتها من نتائج قرائح أبنائها ، وصور خيالاتهم ، وما انطبعت عليه نفوسهم من
فضائل أو رذائل ، من حيث ظهور أثر ذلك في الشعر والخطب والرسائل
والقصص والنوادر والأمثال ونحوها ، ليتعرف وجوه البلاغة منها ، ويحتذى
جيدها) . وهو بهذا الاعتبار يمتاز عن بقية العلوم الصناعية ذات القواعد
كالنحو والبلاغة ، وعن التاريخ وفروعه ، وان كان يتوقف على الامام

بأكثرها ، بل على غيرها من العلوم الشرعية والعقلية أحيانا .
ويرجع عهد اشتغال العرب بهذا الفن الى زمن جاهليتها فكان الغاية
التي يسمو اليها الأديب ، ويتطلعها الأريب ، وجاء الاسلام حائنا على
الاستكثار مما يؤدي منه الى تربية حكمة وتهذيب خلق . وكان كثير من
الصحابة من رواة الأدب . واعتنى خلفاء بني أمية به ، ولم يكتفوا أن يقيموا
لأبنائهم من يؤدبهم من فحول العلماء والرواة حتى أخرجوهم الى البادية لتلقى
اللغة والأدب عن فصحاء الاعراب . غير أن هذا الفن كان طوال هذه المدة
مما يُحفظ في الصدور ، ويؤخذ عن السنة الرواة والاعراب ، أسوة غيره من
علوم الاسلام ، ولم يُدَوَّن في الكتب الا في الدولة العباسية كما دُون غيره .
وكان علماءهم علماء النحو واللغة والأخبار كما قدمنا
وأول كتاب ظهر فيه جامع لفنون كثيرة من ضروب الأدب هو كتاب
البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ . وقبله كان
العلماء والرواة مثل الاصمعي وأبي عُبيدة وأبي زيد يكتبون فيه رسائل في
مباحث خاصة منه أو يجمعون شعر شاعر أو شعراء قبيلة في ديوان ، كرسائل
ابن المقفع ، ورسائل سهل بن هرون في الأدب ، وكتاب النوادر وكتاب
الاراجيز وكتاب معاني الشعر للأصمعي ، وكتاب البله وكتاب الضيفان .
وكتاب الشعر والشعراء . وكتاب المعانيات والملاومات . وكتاب المثالب
وكتاب مآثر العرب . وكتاب أدعية العرب لأبي عُبيدة ، وغير ذلك
وإذا تابعنا من يقول ان ابن المقفع هو الذي ابتدع كتاب كايمة ودمنة

ونحله للهند والفرس كان هذا الكتاب أول كتاب خاص ظهر في الأدب العربي . ولما كثرت الكتب الصغيرة والرسائل الخاصة في المسائل المتقاربة الموضوع دون علماء الطبقة الثانية والثالثة من هذه الرسائل كتبها مبسوطه ذات مباحث مختلفة ، فكان الجاحظ أول من سن هذه الطريقة في كتبه التي من أهمها البيان والتبيين . واقفى أثره أحمد بن أبي طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ في كتابه العظيم المنظوم والمثور في أربعة عشر جزءاً غير انه كان اختياراً بحتاً لم يأت فيه من عند نفسه بشيء كثير . ولم يكن أكثر من الجاحظ وابن طيفور في زمنهما تأليفاً . ثم ظهر كتابا الكامل . الروضة لأبي العباس المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ وعاصر هؤلاء الفحول كثير من مصنفى الأدب وذوى الاختصاص ببعض ضرؤبه كالعتابي وأبي حنيفة الدينورى وأبي زيد البلخى والبلاذرى والجيشبارى وأبي بكر الصولى الشطرنجى وجحظة البرمكى والزيادى والزبير بن بكار وقدامة بن جعفر وابن قتيبة صاحب كتاب أدب الكاتب وأبي حيان التوحيدى . ولم ينته هذا العصر الذى نحن بصدد الكلام فيه حتى نجم فيه أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد المتوفى سنة ٣٢٨ وأبو على القالى صاحب الأملى وأبو الفرج الأصبهانى صاحب الأغانى المتوفى سنة ٣٥٦ ولكن أولهم من أدباء الغرب وثانيهم من جالية المشرق الى الاندلس ويندكران فى أدبنا وثالثهم لم تزهر حياته العلمية إلا فى العصر الثانى وسنذكره بما هو أهله

وقال حكيم المؤرخين وأديبهم عبد الرحمن بن خلدون « وسمعنا من

شيوخنا في مجالس التعليم ان أصول هذا الفن (الأدب) وأركانه أربعة
دواوين ، وهي أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب
البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي ، وما سوى هذه
الأربعة فتبع لها وفروع عنها »

وأقول : أما أدب الكاتب فهو أقرب إلى اللغة والهجاء منه إلى الأدب.
وأما أن ماسواها تبع لها وفروع عنها فهو غمط لفضل كثير من المصنفين . فأين
العقد الفريد ؟ وأين الأغاني ؟ وأين المنظوم والمنثور وغيرها من الكتب
المُمتعة ؟ وأين يقع أدب الكاتب منها ؟
وإذ كان أبو عثمان الجاحظ هو شيخ هذه الطريقة رأينا ان تترجم له
ترجمة تبين بعض فضله فنقول :

الجاحظ

هو أعجوبة الزمان ، وسلوانة^(١) الثَّكلان^(٢) ، ولسان البيان ، وينبوع
الافتنان ، أديب العلماء ، وعالم الأدباء ، أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر
ابن محبوب الكِناني اللبني البصري ، ذو التصانيف المُمتعة ، والرسائل
المبدعة ، وأحد فحول النُّظار من المعتزلة المتكلمين ، وسيد كتاب التصنيف
المُتأديين ، وصاحب كتابي الحيوان والبيان والتبيين . ونسبته إلى كنانة

(١) أصل السلوانة : خرزة تدفن في الرمل ، تتسود فيبحث عنها وتوضع في ماء
فيسقاه الماشق أو الحزن فيلدها وهي من خرافاتهم (٢) فاقد الولد أو الحبيب

بالنسب أو بالولاء موضع خلاف بين من يتعصب له و بين من يتعصب عليه .
وسمى الجاحظ لجحوظ عينيه أى بروز مقلتيهما و يُسمى الحدّ قى لذلك أيضا

منشأه ومبناه - : ولد الجاحظ حوالى سنة ١٦٠ بمدينة البصرة

ونشأ بها ، وهى فى هذا العصر ما علمت . فتناول كل فن ومارس كل علم
عرف فى زمانه . وأدرك طبقة الأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد وغيرهم وأخذ
عندهم . ولازم أستاذه أبا اسحق ابراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلى المشهور
وعليه تخرج فى علم الكلام ، وخالط كثيرا من مشهورى الكتاب و مترجمى
الفرس والسريان ، وقرأ جميع ما ترجم فى أزمان المنصور والرشيد والبرامكة
والمأمون ، فلم يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كأننا ما كان ، حتى أنه كان
يكترى دكا كين الوراقين ويثبت فيها للنظر . فخرج من نوابغ الدنيا وغلب
عليه أمران ، الكلام على طريقة المعتزلة ، والأدب ممزوجا بالفلسفة والفكاهة
وأقام أكثر عمره بالبصرة يعيش معيشة الأدياء والعلماء محبوبا لولادة
البصرة وأعيانها من الهاشمية والعمانية ورؤساء الموالى والأبناء محبوبا من
الجميع بالعطايا والمنح بما كان يصنفه لهم من الكتب والرسائل العديدة التى
يتعصب فيها لمذاهبهم ، وبعض مزامعهم ، وينقض بها آراء مخالفينهم تلاعبا بهم
وتماجنا بفصاحته وبلاغته ونفوذ خاطره . وكان كثير الانتجاع لبغداد أو آخر
عصر المأمون وكل عصر المعتصم والواثق وشطرا من زمن المتوكل . وكان
ممن ينتجعهم المأمون ووزراؤه وكبار كتابه وُسَمَّارُهُ . ثم انقطع فى الانتجاع

إلى محمد بن الزيات طول وزاراته الثلاث . وكان يقيم بهذه المدة كثيرا
بسرٍّ من رأى . ثم أقام بعد موت ابن الزيات بالبصرة إلى أن فُلجَ وتي . فلو جا
مدة حتى مات سنة ٣٥٥

'اعتقاده ومذهبه' — : كان الجاحظ كما قدمنا يعتقد مذهب المعتزلة
ونصر هذا المذهب بفصاحته وكتبه البليغة حتى صار لسان المعتزلة في زمانه ،
وتغافل في الكلام ومزجه بكثير من كلام الفلاسفة اليونانيين ، وانفرد فيه
بمقالة وافقه عليها كثير من متكلمي زمانه وسُموا الجاحظية . ويتهمة كثير من
الصفاتية وأهل الحديث بالانحراف والكذب ، ويرون أنه ضال مضل ماجن
هازل متلاعب بالمذاهب والفرق يثبت الشيء ونقيضه . ويشدد انكارهم عليه
إلى حد نفي فصاحته وتفننه ، وعلى عكس قولهم كلام الأدباء والمؤرخين فيه
وكان عثمانيا يتنصب (يفضل عثمان على علي رضي الله عنهما) وعلى
هذا المذهب كان كثير من أهل البصرة منذ وقعة الجمل .

علمه وأدبه — : لم يكن في زمان الجاحظ رجل أغزرُ علما ، ولا
أمتعُ أدبا ، ولا أوسع اطلاعا ، ولا أكثر تصنيفا ، ولا ألطف بحثا ، ولا
أطيب فكاهة ، ولا أغوص على معنى مخترع ، ولا أصوغ لكلام بليغ
من الجاحظ .

وكان أبو الحسن المدائني كثير الكسب إلا أنه كان بوّدي ما سمع .
ويطول الكلام بنا جدًّا إذا تعرضنا لأقوال العلماء والمؤرخين حتى خصومه

منهم في وصف علمه والثناء عليه وتقرُّب كُتبه
وهو أول من أكثر التصنيف في الأدب ، وأول من أسهب القول
في اللطائف والفكاهات ، وأول من وضع كتب المحاضرات الكبيرة الجامعة
لفنون كثيرة ، وأول عالم عظيم جمع بين طرفي الجد والهزل ، فكان اماما
لبعض الفرق في الدين ، وسامرا من السمار

وكان له مشاركة في علم كل ما يقع عليه الحِسُّ أو يخطر بالبال ، فهو
راوية متكلم فيلسوف كاتب مصنف مترسل شاعر مؤرخ عالم بالحَيوان والنبات
والموات وصَّاف لأحوال الناس ووجوه معاشهم واضطرابهم وأخلاقهم
وحيلهم . وهو على الجملة أحد أفذاذ العالم . واحدى حجج اللسان العربي

زُكَّوهُ وَأَهْرَقَهُ — : كان غاية في الذكاء ودقة الحس وحسن الفِراسة

وله في ذلك نوادر تُعدُّ من خوارق العادات .

وكانت فيه دُعابة فاشية وبعضُ تماجنٍ وتطرُّب وكان قليل الاعتداد
بما يأخذ به الناسُ أنفسهم وينتحلونه من الرسوم والعادات وأنواع العصبية
المذهبية والجنسية ، قليل المبالاة بوقوع المتورعين فيه ، سمحا جوادا ، كثير
المواساة لأخوانه . وكان على دَمامة خَلقه وتناقض خُلُقهِ خفيفَ الرُّوح ،
فكهُ المجلس ، غايةً في الظَّرْفِ وطيبِ الفُكاهة وحلاوة الكلام

فصاحته وكنابته — : قرأ الجاحظ أ كثر الكتب المعروفة في زمنه

اسلامية ودخيلة ، فاستخلص بذكائه العجيب من كل ذلك علوما جهه تألف

أشتاتها على تنافرها ، ونسق ضروبها مع تضارُبها ، فطامن له بلطفه شامخها ،
وانقاد له بحسن رياضته حرونها ، فتهيا لملكته منها جملة مطاوعة لارادته
يستنبط منها ماشاء ، ويصرفها أتي شاء . فانتحل لنفسه من طرق البلاغ
والمصنفين طريقة كان أبا عذرة^(١) وابن بجدتها^(٢) وهي اختراعه طريقة
توجب القراءة في المطالعة بانتحاء عدة أمور

(أولاً) توخي التصنيف في الموضوعات الشبيهة اللذيذة ، أو التي لم يسبق
إليها كاتب أو الأمور الحقيمة الصغيرة التي لا يخطر على البال أن يؤلف
فيها كلام .

(ثانياً) سهولة العبارة وجزالتها

(ثالثاً) الاطناب بإيراد كثير من الألفاظ والجمل المترادفة

(رابعاً) الاستطراد لأدنى مناسبة إلى إيراد تعريف الأخبار والنوادر

تفكيها لنفس القارئ وترويحها

(خامساً) مزج الجد بالهزل لتجديد النشاط ورفع السآمة

(سادساً) استقصاؤه وتغافله في وصف ما يعنى بشرحه أو الاحتجاج له

وتلطفه لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر .

مصنفاته - : صنف الجاحظ أكثر من مائتي كتاب منها الكبير والصغير

وفي ذلك يقول المسعودي

(١) فلان أبو عذرة هذا الامر أي أول من سبق إليه . والعذرة البكرة

(٢) ويقال فلان ابن مجدة هذا الامر أي عالم به وبدليله . والبجدة العام ودخله

الامر وناطنه

« وكتب الجاحظ مع انحرافه (أى عن التشيع لأن المسعودى كان يتشيع) تجلو صدأ الاذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، وورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان اذا تخوف ملل القارئ وسامة السامع خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة ظريفة . وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين . وهو أشرفها لأنه جمع فيه من المنشور والمنظوم ، وغرر الاشعار ، ومستحسن الاخبار وبلغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مقتصر لا كتفى . وكتاب الحيوان وكتاب الطُّفيليين والبخلاء . وسائر كتبه فى نهاية الكمال ما لم يقصد منها الى نصب . ولا الى دفع حق . ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه » ويقول الاستاذ ابن العميد

« كُتِبَ الجاحظُ تعامُّ العقلِ أولاً والأدبِ ثانياً »

وطبع منها فى مصر كتاب الحيوان فى سبعة أجزاء لطاف ، وكتاب البيان والتبيين فى جزأين ، وكتاب البخلاء ، وكتاب رسائله ، وكتاب المحاسن والأضداد .

رسائله - : وللاجاحظ كثير من الرسائل ، منها الطوال والقصار فى

الأدب ومذاكرة الاخوان ونذ كر هنا نموذجاً منها تسكيلاً للمقام

كتب الى عبيد الله بن خاقان فى يوم عيد

« أخرتني العلة عن الوزير (أعزه الله) فحضرت بالدعاء فى كتابي

لِينُوبَ عَنِّي ، وَبِعَمْرٍ مَا أَخْلَتَهُ الْعَوَائِقُ مِنْي ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعِيدَ أَكْبَرُ الْأَعْيَادِ السَّالِفَةِ بِرُكَّةٍ عَلَى الْوَزِيرِ ، وَدُونَ الْأَعْيَادِ الْمُسْتَقْبَلَةِ فِيمَا يَحِبُّ وَيُحِبُّ لَهُ ، وَيَقْبَلُ مَا تَوَسَّلَ بِهِ إِلَى مَرْضَاتِهِ ، وَيَضَاعِفُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِ عَلَى الْإِحْسَانِ مِنْهُ ، وَيَمْتَعَهُ بِصِحَّةِ النِّعْمَةِ وَبِلِبَاسِ الْعَافِيَةِ ، وَلَا يَرِيهِ فِي مَسْرَةٍ نَقْصًا ، وَلَا يَقْطَعُ عَنْهُ مَزِيدًا ، وَيَجْعَلُنِي مِنْ كُلِّ سُوءٍ فِدَاءَهُ وَيَصْرِفَ عَيُونَ الْغَيْرِ عَنْهُ وَعَنْ حَظِّي مِنْهُ »

وَكُتِبَ - : « تَرَفَّعَ عَنِ ظَلَمِي إِنْ كُنْتُ بَرِيئًا ، وَتَفَضَّلَ بِالْعَفْوِ إِنْ كُنْتُ مُسِيئًا فَوَاللَّهِ إِنِّي لَا أَطْلُبُ عَفْوَ ذَنْبٍ لَمْ أَجْنِهِ : وَأَتَمَسُّ بِالْإِقَالَةِ مِمَّا لَا أَعْرِفُهُ » لِتَزْدَادَ تَطَوُّلاً ، وَأَزْدَادَ تَذَلُّلاً . وَأَنَا أَعِيدُ حَالِي عِنْدَكَ بِكَرَمِكَ مِنْ وَاشٍ يَتَكَبَّرُهَا وَأَحْرُسُهَا مِنْ بَاغٍ يُجَاوِلُ إِفْسَادَهَا . وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ حَظِّي مِنْكَ بِقَدْرِ وُدِّي لَكَ ، وَمَحَلِّي مِنْ رَجَائِكَ بِحَيْثُ أَسْتَجِيقُ مِنْكَ »

وَكُتِبَ إِلَى قَلِيبِ الْمَغْرِبِيِّ بِعَاتِمٍ - : « وَاللَّهِ يَا قَلِيبُ لَوْلَا أَنْ كَسَبْتَنِي فِي هَوَاكَ مَقْرُوحَةً ، وَرُوحِي بِكَ مَجْرُوحَهُ ، لَسَاجَلْتُكَ هَذِهِ الْقَطِيعَةَ ، وَمَادَدْتُكَ حَبْلَ الْمَصَارِمَةِ وَأَرْجُو اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُدِيلَ صَبْرِي مِنْ جَفَائِكَ فَيَرُدَّكَ إِلَى مَوَدَّتِي وَأَنْفِ الْقَلَارِغِمِ ، فَقَدْ طَالَ الْعَهْدُ بِالْإِجْتِمَاعِ ، حَتَّى كَدْنَا نَتْنَا كَرُّ عِنْدَ الْإِقَاءِ » .

وَكُتِبَ أَيْضًا - : « أَمَا بَعْدَ فَمَا أَقْبَحَ الْأَحْدُوثَةَ مِنْ مُسْتَمْنَحٍ حَرَمْتَهُ

وطالب حاجته رَدَدْتَهُ ، ومثابِرِ حَجَبَتِهِ ، ومُنْبَسِطِ اليك قَبَضَتَهُ ، ومُقْبَلِ اليك بَعَايَتِهِ ، لَوَيْتَ عَنْهُ . فثَبَّتْ فِي ذَلِكَ ، وَلَا تُطْعَمُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَازٍ مَشَاءً بِنَجِيمٍ .

وكتب مستعجزاً - : « أما بعد فقد رَسَفْنَا فِي قِيُودِ مَوَاعِيدِكَ ، وَطَالَ مَقَامُنَا فِي سَجُونِ طَلِكِ ، فَأَطْلُقْنَا (أَبَاكَ اللَّهُ) مِنْ ضَيْقِهَا وَشَدِيدِ نَعْمِهَا بِنَعْمِ مَنْكَ مَشْعَرَةً أَوْلَا مُرِيحِهِ »

علماء العروض والقافية

ومن ملحقات علم الأدب علماء العروض والقافية وأولها من اختراع الخليل بن أحمد . والثاني تكلم فيه قبله الأئمة كأبي عمرو بن العلاء إلا انه لم يدوّن وتُجَمَّلَ له مسائل خاصة الا على يد الخليل أيضا .
 وفضل الخليل على الادب العربي لا يُعَدُّهُ فضلٌ باختراع العروض . فقد حصر به ضروب الشعر العربي وحَفِظَهُ مِنَ الضِّيَاعِ وَحَرَسَهُ مِنَ الْاِخْتِلَالِ وذلك انه لما رأى بعض أهل زمانه ينظم على غير الاوزان المعروفة عند العرب وبعضهم يُخِلُّ بِالْاَوْزَانِ فِي نَظْمِ الشَّعْرِ وَقِرَاءَتِهِ لِاِخْتِلَالِ مَلِكْتِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَحْدَثِينَ ، أَشْفَقَ عَلَى أَكْرَمِ خَصَلَةٍ وَأَفْضَلِ مَنْقِبَةٍ لِلْعَرَبِ فَتَبَعَ أَشْعَارَهَا وَمَيَّزَ أَنْوَاعَهَا ، وَكَانَ لَهُ مَعْرِفَةٌ جَيِّدَةٌ بِالنَّعْمِ وَالْإِيْقَاعِ ، فَسَاعَدَهُ ذَلِكَ عَلَى رَدِّبَعْضِ الضُّرُوبِ إِلَى بَعْضٍ ، وَادْخَالَ كُلَّ طَائِفَةٍ مِمَّا كَانَتْ تَحْتَ نَوْعِ سَمَاءٍ بِمَجْرَاهُ ، لِأَنَّ الْإِيْقَاعَ تَقْسِيمُ الزَّمَنِ بِالنَّعْمِ ، وَالشَّعْرَ تَقْسِيمُ الزَّمَنِ بِالْحُرُوفِ ، فَلَبِغَتْ عِنْدَهُ

واذ لم يجدوا كبير مطمع في الزيادة عليه طفقوا بخالفونه في أسماء من
 الزحاف والعلل وارجاع بعض البحور الى بعض وغير ذلك من الابحاث العقلية
 التي لم يترتب عليها أدنى تغيير عملي
 فمن ذلك زيادة الاخفش عليه بحر الخبب (المتدارك) وبعض أضرب
 من المديد وغيره

وجاء بعده الجرمي ثم الزجاج وابن قتيبة والناشي وغيرهم قالوا كتبنا في
 العروض والقافية ناقشوا فيها الخليل والأخفش في اصطلاحهما والاستدراك
 عليهما على مقادير استنباطهم حتى وصل الامر الى أبي نصر اسماعيل بن حماد
 الجوهري صاحب الصحاح ، وكان من أذكياء العالم ، فبين أصول العروض
 وأوضحها في اختصار وخالف الخليل بأن أرجع البحور الى اثني عشر مجرا .
 على ان فيها المتدارك ، بأن جعل سبعة فيها مفردات ، وهي الوافر والكامل
 والهزج والرجز والرمل والمتقارب والمتدارك وخمسة مركبات وهي الطويل
 والمديد والبسيط والخفيف والمضارع

فالطويل مركب من المتقارب والهزج لان المتقارب مركب من (فعولن) ،
 والهزج مركب من (مفاعيلن) ، والمديد مركب من الرمل والمتدارك ،
 والبسيط من الرجز والمتدارك ، والخفيف من الرمل والرجز ، والمضارع من
 الهزج والرمل ، وجعل السريع من البسيط ، والمنسرح والمقتضب من الرجز
 بجعل (مفعولات) مقلوبة عن مستفعلان ، والمجتث من الخفيف . وأنت ترى
 أن ليس وراء ذلك كبير طائل وقرّ الامر على ما رسمه الخليل والاخفس

النحو وطبقات أئمة

الأرجح ان أول من وضع النحو أبو الاسود الدؤلى بأمر الامام على رضى الله عنه وكان أبو الاسود يقيم بالبصرة على تشييعه ونصبهم فأكمل كثيرا من أبواب النحو وأعراب المصحف بالنقط وانتشر علمه بالبصرة ، وأخذ عنه كثير من الفتيان خصوصا الموالى اذ كانوا أحوج الناس الى النحو . ولم يشتغل أهل الكوفة به الا بعد أن فشا في البصرة وما جاورها . واقتصروا على رواية الشعر والاخبار وجاءت الدولة العباسية والنحو علم يدرس فى المساجد ويدون فى الأوراق وقد اشتغل به فى البصرة طبقتان من العلماء

(الأولى) طبقة أبي الاسود ومعاصريه كعنبسة الفيل وعبد الرحمن بن

هرون الاعرج ونصر بن عاصم وميمون الاقرن ويحيى بن يعمر

(الثانية) طبقة عبد الله بن أبي اسحق الحضرمى وعيسى بن عمر الثقفى

وأبى عمرو بن العلاء وأبى الخطاب الاخفس الاكبر

وأدرك هؤلاء ما عدا أولهم عصر الدولة العباسية

وكانت الكوفة اذ ذاك قد ابتدأت تشتغل بالنحو ، وظهرت منها طبقة أخذت عن أبى عمرو ومعاصريه . ومن رجال هذه الطبقة بالكوفة معاذ الهراء أول من تكلم فى الصرف والاشتقاق والرؤاسى . وكان علم الطبقة الاولى من البصريين محفوظا فى صدورهم مرويا بأستهم ، وانما كان تدوينهم له

كتابة أوراق لم تبلغ حد الكتب المنظمة المفصلة ، أو أنها كانت كتباً مختصرة ، كالمختصر الذي ينسب لابن الأسود

فلما كانت الطبقة الثانية من هؤلاء والاولى من الكوفيين صنف عيسى ابن عمر الثقفي من البصريين كتاب الجامع والاكمل اللذين يقول فيهما الخليل بن أحمد

ذهب النحوُ جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك اكملٌ وهذا جامعٌ فهما للناس شمسٌ وقمر

وصنف الرُّؤاسي بن أخي معاذ الهراء كتاب الفيصل وهو أول كتاب في نحو الكوفيين . ونبغ في هذه الطبقة الثانية من البصريين أبو عمرو بن العلاء وبارك الله في عمره ، ولم يقتصر على علم النحو بل أنكب أيضاً على جمع اللغة والادب والخبار وجمع من الاشعار ما لم يجمعه أحد قبله حتى ملأ مما كتبه عن العرب بيتا الى سقفه . فراقت طريقته أهل زمانه . وأقبل عليه الطلاب من كل فج ، ولم ينزل به ريب المنون حتى ربي هو وعيسى بن عمر في البصرة طبقة وضعت أساس التصنيف في علوم اللغة العربية ، وهي الطبقة الثالثة طبقة الخليل بن أحمد ويونس وأبي معاوية شيبان البني ، وكان الخليل هو سابق حلبتها في استخراج مسائل النحو وتصحيح قياسه وزاد باخراج العروض وتدوين اللغة وجاءت الطبقة الرابعة من البصريين وقد تميزت علوم العربية من نحو وتصريف ولغة وعروض وقواف وأخبار وسير ونوادر فاشتغلت بكلمها ، وعلم بعضهم بعضاً ، وهي طبقة سيويه والاصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد

ومعاصريهم . فانتقطع سيبويه للنحو وأخذ جُلّ روايته عن الخليل وبقيتها عن
 الاعراب ووهبت له ملكة التصنيف والتنسيق فجمع كتابه من أقوال الخليل
 في مجالسه ومن يونس وحكى عن الرؤاسي من الكوفيين فكان كتابه أول
 كتاب حافل صحيح جامع لاصول النحو ودقائقه فأصبح عمدة العلماء بعده
 وتناولوه شرحا واختصارا . وكان في مقابلة هذه الطبقة من الكوفيين طبقة
 الكسائي ، وهو أمام الكوفيين على الاطلاق ، وكتبه في النحو والقراءة مرجعهم
 وله مع سيبويه مناظرة في مجاس يحيى بن برمك تذكر في ترجمتهما
 وكان أمام الطبقة الخامسة من البصريين الاخفش الاوسط ناشر كتاب
 سيبويه وشارحه ومنتقده

ويقاله في الكوفيين الفراء صاحب الكسائي وخليفته في علمه وصاحب
 كتاب الحدود وغيره ، وأول من استعمل في كتبه عبارات الفلاسفة وتعليقاتهم
 وعنه انتشر علم الكوفيين في بغداد والكوفة وغيرها . واشتهر في زمنه من
 الكوفيين ابن الاعرابي وأبو عمرو والشياني
 ثم نشأت في البصريين طبقة الشرح والتكميل والاختصار وتهذيب
 التعريفات ووضع الاصطلاحات ، وأئمتهم أبو عبد الله محمد التوّزي وأبو علي
 الحرّمازي وأبو عمرو صالح بن اسحق الجرّمي وأبو عثمان المازني وأبو حاتم سهل
 ابن محمد السجستاني .

ويقالهم في الكوفيين طبقة بن السكيت وأبي عبيد القاسم بن سلام
 ثم كانت الطبقة السادسة من نحوي البصريين وهي طبقة أبي العباس المبرد

ويقابلها من الكوفيين طبقة ثعلب واليهما انتهى علم البصريين وعلى أيديهما تمت أصول النحو، وبهما ختم علم الادب وجملة الفرق بين مذهب الكوفيين والبصريين

(١) ان البصريين يقدمون السماع على القياس، ولا يصيرون اليه الا اذا أعوزتهم الحاجة الشديدة، وربما توقفوا عن العمل بالقياس في بعض المسائل اذا لم يؤيده شاهد وهون عليهم ذلك كثرة جمهرة العرب الفصحاء بالبصرة. وقربها من عامر البادية كنجد والبحرين. وأن الكوفيين لكثرة اختلاطهم بأهل السواد والنبط وقلة بقاء جمالية العرب بها عن البصرة اعتمدوا على القياس في أكثر مسائلهم

(٢) تعصب البصريين في الرواية وحملها الا عن فصحاء العرب من صميم البادية وتساهل الكوفيين في ذلك ووثوقهم بأعراب لا يرى البصريون فصاحة لغتهم

(٣) اختلافهم في كثير من أوجه القياس وتبع ذلك اختلافهم في المسائل الكثيرة المعروفة في كتب النحو

هذا وكانت عناية الكوفيين بجمع الشعر وحفظه تفوق عناية البصريين. إلا أن هؤلاء يزعمون أن أكثره مصنوع محدث. وكان الخلفاء يؤثرون علم الكوفة ويقدمون علماءها، لأن الكوفيين قرعوا أبواب الملوك قبل البصريين. لقرب الكوفة من بغداد ولأن أهل الكوفة شيعةُ بني هاشم وأكثر البصرة عثمانيون وغير ذلك. وانتشر علم الكوفة ببغداد، وسكنها أمتهما قبل انتشار

علم البصرة بها وجلاء علمائها اليها وبقى المصران يتناظران في علوم العربية حتى تواتت عليهما الفتن والتخريب من الزنوج والقراطة فجلا علماؤهما الى بغداد ونشأت طريقة البغداديين وهي خليط من المذهبيين ولم يبتدئ القرن الرابع حتى اضمحلّ التنازع في المذهبيين واقتصر المؤلفون على حكاية مسائل خلافهما جاعلين أساس تأليفهم مذهب البصريين واستمر الحال على ذلك ولما نقل علم النحو الى الأندلس اشتغل به علماؤها وصار لهم فيه مذهب يخالف المذهبيين في بعض المسائل وله أئمة يذكرون في علماء الأندلس

علم اللغة

ويسمى علم متن اللغة ونعني به معرفة معاني ألفاظها المفردة . وهذا العلم كانت معرفته في زمن بني أمية وأوائل بني العباس مستمدة من تفهم كلمات القرآن الكريم وتتبع ألفاظ العرب في أشعارهم ولم يكن للمستكشف عن كلمة أن يعرفها الا اذا سأل عنها أحد الأئمة الموثوق بهم ، أو شافه الاعراب ، أو عثر عليها عرّضا في قراءة الشعر . ثم فكر الأئمة في تصنيف رسائل وكتب صغيرة في موضوعات خاصة من فقه اللغة فجمعوا الألفاظ الخاصة بمخاق الانسان أو الجمل أو الفرس أو النخلة أو السيف أو الرمح أو القوس أو غير ذلك وأفردوا لكل كتابا أو كتبا

فما ظهر الخليل أعمال فكره الثاقب في اختراع طريقة يحصى بها كلمات

العربية على حسب ما يتركب من حروف المعجم من الثانی والثلاثی والرابعی والخامس واستعمل في ذلك عملية حسابية أبانت له عدد المهمل والمستعمل ، فدون ذلك في كتاب جامع سماه كتاب العين لانه رتبه على ترتيب مخارج الحروف فقدم الكلمات المبتدئة بأحرف الحلق ثم ما يليها الى حروف الشفة وابتدا بحرف العين ، فكان هذا الكتاب في نظامه أصل جميع كتب المعاجم ويظهر ان الخليل مات قبل أن يتمه ، وأتمه جماعة مختلفون بعده .

واختصره أبو بكر الزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ من علماء الأندلس . ولم ينشر كتاب العين إلا بعد الخليل بنحو ستين سنة ، ولذلك بقي الأئمة في تصنيف كتب اللغة على طريقة جمع ألفاظ كل موضوع في رسالته كأنهم لم يسمعوا عن كتاب الخليل أصلا ، ولعل هذا إلى ما فيه من بعض الاختلال مهذ لكثير من العلماء سبيل الطعن في عزوه الى الخليل

واللاصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري والنضر بن شميل والليث ابن سعد المصري وابن الأعرابي وابن السكيت وغيرهم عظيم الفضل في جمع اللغة . وعلى ذلك مضى بعد الخليل أكثر من قرن ولم يوافق في اللغة معجم غير كتابه حتى جاء أبو بكر بن دريد فألف كتاب الجهرة منه ومن كتب الأئمة الآنفة الذكر ، ورتبه على حروف المعجم ابتداء بالألف ثم الباء ثم التاء الخ .

وأدرك عصره الأزهرى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ فألف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل ثم وضع الصحاح للجوهري والمحکم لابن سيده والمجمل (٧ — أدب اللغة العربية)

لابن فارس في المائة الرابعة وسيأتي الكلام عليهما . وهذه هي أصول كتب اللغة وما بعدها من العباب والتسكلة ومجمع البحرين للصاغاني والنهاية لابن الأثير ولسان العرب والقاموس وغيرها فهو جمع لها أو اختصار منها وستتكلم على كل في عصره

علوم البديعة

المعاني والبيان والبديع

لم يصنف العلماء في استنباط هذه العلوم الثلاثة إلا بعد ان فرغوا من تدوين العلوم التي تحفظ صحة الكلام العربي من حيث اعرابه وتصريفه ومادته . فلما أتوا ذلك بحثوا في الوجوه التي يطابق بها الكلام مقتضى الحال (وهي مانسميه بعلم المعاني) وعن أوجه استعمال اللفظ بطرق مختلفة الدلالة باختلاف لوازمه (وهي مانسميه علم البيان) وعن الأساليب الجميلة وأنواع المحسنات اللفظية والمعنوية (وهو مانسميه علم البديع)

ويظهر أن أول كتاب دُوِّن في هذه العلوم كان في علم البيان وهو كتاب مجاز القرآن الذي ألفه أبو عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦ هـ عقب أن سُئِل في مجلس الفضل بن الربيع عن معنى قوله تعالى (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) وأن الشياطين ورءوسها لم تعرف . وأجاب بأنه على حد قوله

أَيَقْتَلَنِي وَالْمَشْرِفِي مَضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زَرْقٍ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

ثم تبعه العلماء في ذلك ، فدونوا رسائل وأقنوا بعض أمال في الاستعارة

والكناية لم تميّز علم البيان تمييزاً خاصاً . وبقى كذلك مدة العصر العباسي الاول . ولا يُعلمُ أولُ من تكلم في المعاني بالضبط ، وإنما أُثر عن بعض البلغاء من الكتاب والخطباء والفصحاء كلامٌ في معنى البلاغة في أمال أو مجالس متقطعة مثل جعفر بن يحيى وبشر بن المعتز وسهل بن هرون . وأول من تعرّض لذلك في كتب منتظمة هو الجاحظ في البيان والتبيين واعجاز القرآن وغيرها وتابعه العلماء والكتّاب من بعده في مثل ذلك كأبي العباس المبرد . وقُدّامة بن جعفر الكاتب . وبقى كذلك مدة هذا العصر .

وأما علم البديع فيقال ان أول من كتب فيه كتاباً خاصاً عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ وكان قبله يتناوله الناس بالاستطراد والمناسبات ، ويتعمدونه في شعرهم مثل بشار ومسلم بن الوليد وأبي تمام . فجمع ابن المعتز من أنواعه سبعة عشر نوعاً وقال في كتابه : وما جمع قبلي فنون البلاغة أحد ، ولا سبقني اليه مؤلف ، ومن أحب أن يقتدى بنا ، ويقتصر على ما اخترعناه . فليفعل ، ومن رأى اضافة شئ من المحاسن اليه فله اختياره . وكان ممن يعاصره قُدّامة بن جعفر الكاتب فجمع عشرين نوعاً ، توارده معه على سبعة منها وسلم له ثلاثة عشر ، فتكامل لهما ثلاثون ، وانقضى هذا العصر ولم يجمع أكثر من ذلك . وزاد في العصر التالي كل من أبي هلال العسكري وابن رشيق القيرواني ، وعبد العظيم بن أبي الاصبع المصري أنواعاً كثيرة وسند ذكر ذلك في موضعه .

وكانت مباحث هذه العلوم الثلاثة تسمى قديماً علم البيان وأحياناً تسمى علم البلاغة .

ولم تميز مسائل هذه الفنون وتفصل وتبويب الا في العصر التالي . وأول من أقدم على ذلك شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ ثم بقي الأمر كذلك حتى جاء فارس الحلبة أبو يعقوب يوسف السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، فبسط هذه العلوم ضمن مابسطه في كتابه المفتاح وأحصى أبوابها وهذب مسائلها ونقحها ورتبها فكان كل من أتى بعده عالماً عليه . وسندكر ذلك فيما بعد

أئمة العربية

أئمة البصريين

الخليل بن أحمد الفراهيدي

هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي البصري نابغة العرب ، وسيد أهل الأدب ، ومخترع العروض ، ومبتكر المعاجم ، وصاحب الشكل العربي المستعمل .

وأحمد أبوه أول من سمي (أحمد) في الاسلام

ولد الخليل سنة ١٠٠ هـ بالبصرة ونشأ بها وأخذ العربية والقراءة عن أئمة زمانه كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفي ، وروى الحديث عن علية رواته ، وأكثر الخروج الى البوادي وسمع الاعراب والفضحاء فنبغ في العربية

نبوغا لم يكن لأحد ممن تقدمه أو تأخر عنه

وكان غاية في تصحيح القياس ، واستخراج مسائل النحو وتعليقه ، فبسطه
وفرع على أصوله ، وجعله علما مضبوطا ، ولقن سيديويه تلميذه علم ما صنف من
كتابه أصل كل كتاب في النحو .

وكان الخليل أحد الأفراد القلائل الذين سمحت بهم الدنيا ، يشهد لذلك
اختراعه العروض علما كاملا ، غير دارج في مدارج النشو والارتقاء (كما
يقولون) واختراعه طريقة تدوين المعاجم بتأليفه كتاب العين الذي يظهر أنه
مات قبل إكمله وأكمله بعض أصحابه ، والذي صار بعد نموذجاً واماماً لكتب
المعاجم .

وتدوينه أول كتاب في الموسيقى على غير معرفة بلغة أجنبية ينقل عنها ،
و ضرب بآلة من المعازف ، أو جلوس في مجلس لهو . وكان ممن استمد من
هذا الكتاب اسحق الموصلي . وزاد في الشطر نج قطعة سماها جملا فاعب بها
الناس زمانا

وبقى الخليل مقبلا بالبصرة طول حياته زاهدا متعففا متقشفا منكباً على
العلم والتعليم حتى مات سنة ١٧٤ في أوائل خلافة الرشيد

ويقال في سبب موته أنه قال : أريد أن أعمل نوعاً من الحساب تمضي
به الجارية إلى البقال فلا يظلمها ، فدخل المسجد وهو يعمل فكره فاصطدم في
سيارية صدمة شديدة ارتج منها دماغه واعتل من ذلك ومات رحمه الله

سيبويه

هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بنى الحرث بن كعب امام
 البصريين ، وحجة النحويين ، ووارث نحو الخليل ، وصاحب الكتاب شيخ
 الكتب . أصله من البيضاء (بلدة قرب شيراز) من بلاد فارس ومعنى كلمة
 (سيبويه) رائحة التفاح : نشأ بالبصرة وكان أول أمره يطلب الحديث والفقہ .
 فكان يوماً يستملي على حماد بن سلمة . فقال حماد : قال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم (ليس أحد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء)
 فقال سيبويه (ليس أبو الدرداء) فقال حماد : لئنت ياسيبويه (ليس أبا الدرداء)
 فقال سيبويه : لا جرم لأطلبن علماء لا يلجنني فيه أبدا . وطالب النحو ولازم
 الخليل وأخذ أيضا عن يونس وعيسى بن عمر وغيرهما . وكان الخليل يؤثره
 ويقدمه على جميع أصحابه . فدون سيبويه جميع ما أخذه عن الخليل ،
 وكثير من عبارته وأبوابه معقود^ة بلفظه . ونقل فيه عن غيره من بعض
 البصريين والكوفيين فجمع في كتابه ما لم يجتمع قبله في كتاب . وصارت
 كتب النحو بعده عالية عليه ولولا هذا الكتاب لما كان لسيبويه خبر يشهر
 بلوفاته كهلا ، ولقلة من أخذ عنه ، ولأنه لا يعرف له كتاب غيره وبجسبك هو
 وما أحسن سيبويه بفضل معرفته في النحو خرج الى بغداد وافدا على
 البرامكة فجمعه يحيى بن خالد بالكسائي فتناظرا في مجلس أُعد لذلك فكان
 من مسائل المناظرة أن سأله الكسائي : ما تقول في قول العرب (كنت أظن

أن المقرب أشد لسعة من الزبور فاذا هو هي أو فاذا هو اياها) فقال سيبويه (فاذا هو هي ولا يجوز النصب) فقال الكسائي : العرب ترفع ذلك وتنصبه واشتد بينهما الخلاف فتحا كما الى رواة الاعراب بياب يحيى فوافقوا الكسائي فاستكان سيبويه . فقال الكسائي يحيى (أصلح الله الوزير) انه قد وفد اليك مؤملا فان رأيت ألا ترده خائبا . فأمر له بعشرة آلاف درهم وما يروى في هذه الحكاية غير هذا فمن زيادة متعصبى البصريين وليس في العلم كبير . وخرج سيبويه بعد هذه المناظرة الى ناحية بلدة البيضاء .. ومات بها بعد نحو عشر سنين من المناظرة سنة ١٧٧ على الأرجح وسنه نيف وأربعون سنة .

أبو الحسن الرفعة بن الأوسط

هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة النحوى العروضى العلامة . راوى كتاب سيبويه وناشره . وهو أحد الأخفش الثلاثة المشهورين أولهم أبو الخطاب الأخفش الكبير من متقدميهم ، وثالثهم على بن سليمان تلميذ المبرد ، والأخفش الأوسط هو الذى ينصرف اليه الاسم عند الاطلاق وهو المحكى عنه فى أكثر مسائل الخلاف

أصله من بلخ من موالى مجاشع من بطون بنى تميم ، وسكن البصرة ، وأخذ عن من أخذ عنه سيبويه غير الخليل . ثم لزم سيبويه أثناء تأليفه الكتاب وكان يقول فى ذلك : ما وضع سيبويه فى كتابه شيئا إلا عرضه علىّ وكان يرى أنه أعلم به منى وأنا اليوم أعلم به منه . ولم يقرأ كتاب سيبويه عليه أحد غيره

فهو طريقه ، ومنه انتشر بين الناس . وأخذ عنه الجرمي والمازني . والأخفش هو الذي استدرك على الخليل بحر الخب (المتدارك) وبعض ضروب في بحور أخرى صحت رواية الجميع عنده ، ولم تصح عند الخليل . وله في فن النحو والعروض والثقافية والاشتقاق واللغة والرسم مذاهب مشهورة مؤيدة . وكان مع ذلك من كبار المتكلمين المعتزلة ، ومن أهدق الناس بصناعة الجدل ، وهذا ما حمله على الخروج الى بغداد لينظر الكسائي انتصارا لشيخه سيويه ، فكان ذلك سببا لمصادقتها وساعده بالمال ، فصنف له كتابا عديدة من رواية البصريين ومات الأخفش سنة ٢١٥ وله كتب كثيرة منها الكتاب الأوسط في النحو وكتاب الاشتقاق وكتاب العروض والقوافي وشرحه للكتاب

المبرد

هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الاكبر الأزدي وارث علوم العرب ، وخاتم رواة الأدب ، وصاحب الكامل والروضة والمقتضب ، ولد سنة ٢١٠ بالبصرة وبها نشأ وقرأ على الجرمي والمازني والسجستاني ثم أقام بغداد ولم ينبغ في البصريين بعده مثله . وكان هو في البصريين وشماب في الكوفيين امامي عصرهما ، وينهما من المنافرة والمناقضة أشد ما كان بين بصرى وكوفى ، ولم يعد ذلك حد المداقشة في الصناعة ، واذ استئل أحدهما عن الآخر شهد أنه واحد زمانه . ويمد المبرد من فحول كتاب التدوين والتصنيف كما يمد من ظرفاء الشعراء ، وشهرته بذلك عند المتأخرين نسخت شهرته بالنحو

واللغة عند المتقدمين ، اذ لم يبق في أيدي الناس من كتبه الممتعة غير كتابه
الكامل المعداد أحد أركان الأدب . وكان المبرّد حسن السمّت (١) صادق
الرواية وجيها عند أصحاب السلطان ، لا يعلم إلا بأجرة على قدر كسب
الطالب . وقد خلف المبرّد الجاحظ في تأليف الكتب المؤتفة الممتعة في
الشؤون المختلفة . وله كتب مشهورة أشهرها الكامل والروضة في الأدب
والمقتضب في النحو ومات سنة ٢٨٥ ي بغداد

ابنه دربر

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريّد الأزدي خليفة الخليل في اللغة
وصاحب كتاب الجمهرة وناظم المقصورة . ولد بالبصرة سنة ٢٢٣ وبها نشأ وتعلم
وأخذ اللغة عن طبقة المبرّد ، ثم رحل مع عمه عند حدوث فتنة الزنج الى عُمان
موطن قبيلته واستوطنها اثنتي عشرة سنة انقطع فيها لأخذ الشعر واللغة عن
الاعراب

وكانت اللغة لاتزال بعدُ صحيحة فصيحة في جزيرة العرب ثم رجع
الى البصرة بعد هلاك الزنج وسكنها أزماناً أكل فيها علمه ، ثم خرج الى فارس
منتجعاً الشاه بن ميكال وابنه وابن ابنه وكانوا على عمالة فارس من قبل الخليفة
فصنف لهم كتاب الجمهرة من أقدم معاجم اللغة وأصحها ، ومدحهم بالمقصورة
المشهوره . فأجزلوا صلته وتولى دبوان فارس لابن ميكال حتى عزلا . فرجع الى

بغداد مدة المقتدر فأجرى عليه راتباً خمسين ديناراً كل شهر حتى مات سنة
٣٢١ هـ وسنه ثمان وتسعون سنة .

وكان يقال فيه أنه أفقه الشعراء وأشعر الفقهاء . وكان يتهم بشرب النبيذ
متبعاً في ذلك رأى من يجيزه من فقهاء العراق وينفق جميع ما يكسبه على
أخوانه وموآنسيه .

أئمة الكوفيين

مُعَاذُ الْهَرَاءِ

هو أبو مسلم معاذ بن مسلم الهراء النحوى الكوفى واضع علم الصرف
وأحد قدماء النحاة الكوفيين . وسمى الهراء لبيعه الثياب الحرورية وهو من
الموالى . نشأ بالكوفة وأخذ النحو عن علماء الطبقة الثانية والثالثة من البصريين ،
وكان مقرئاً ، وله روايات فى القراءآت ، وصنف فى النحو وأملى فيه وفى الصرف
ولم تظهر له كتب . والمشهور انه أول من تكلم فى الصرف ووضع له القواعد ،
وكان شيعياً مصادقاً للكُمَيْت . وعاش قريباً من تسعين سنة . وكان له أولاد
وأولاد أولاد ماتوا كلهم وهو باق قوى حتى مات سنة ١٨٧ هـ

الكسالى

هو أبو الحسن على بن حمزة بن عبد الله بن فيروز الأسدئى ولاءً
الكوفى منشأ أحد القراء السبعة وامام الكوفيين فى النحو واللغة . نشأ

بالكوفة ويقال انه لم يتعلم النحو إلا على الكبر وذلك أنه جلس الى بعض اخوانه من طلبة العلم فلحنوه فلأزم مُعَاذًا الهراء والرؤاسى من الكوفيين حتى أنفذ ما عندهما ثم خرج الى الخليل بالبصرة وجلس فى حلقة وأعجبه فقال له من أين علمك هذا . قال : من بوادى الحجاز ونجد تهامة فخرج الكسائى وأنفذ خمس عشرة قِنِينَةً ^(١) حبر فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظه عنهم ، وأخذ القراءة عن حمزة الزيات وأقرأ أهل بغداد بقراءته ثم اختار لنفسه قراءة فأقرأ بها الناس .

ولما رجع من البادية وجه اليه المهدي فخرج الى بغداد ، فخطب عنده ووضعه الى الرشيد . ثم جعله الرشيد مؤدب ولده الأمين وبقى وجيها عنده فكان يجلسه هو والقاضى محمد بن الحسن على كرسيين متميزين بمحضرتة ويأمرها ألا ينزعجا بقيامه ومجيئه ، وما زالا معه على هذه الكرامة حتى خرج الرشيد الى الرى وهما فى صحبته فماتا فى يوم واحد فبكاها وقال : دفنت الفقه والعربية بالرى وذلك سنة ١٨٩ هـ

وقد انتهت اليه امامة القراءة والعربية بالكوفة وبغداد وكان يروى الشعر وليس له فيه جيد نظر . . وفى تسميته بالكسائى أقوال منها انه أحرم فى كساء ومنها انه كان يجلس فى حلقة معاذ فى كساء والناس يجاسون فى الحلال وله نحو عشرين كتابا منها كتاب معانى القرآن وكتاب النحو وكتاب النوادر وكتاب الهجاء .

(١) القنينة كسكته القارورة للشراب ونحوه

النظر

هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الديلمي امام العربية وعالم الكوفة وبغداد وصاحب التصانيف المبتعة .

ولد سنة ١٤٤ هـ بالكوفة وأخذ النحو عن الرؤاسي ويونس ، ثم لزم الكسائي وتخرج عليه ، ومنه استمد وأخذ عن الاعراب ، ثم نظر في علوم كثيرة من الطبيعة والنجوم وأخبار العرب وأشعارها فامتاز بذلك عن أستاذه الكسائي كما امتاز الكسائي بقراءته

وكان يميل الى الاعتزال ، وبحب النظر في علم الكلام من غير ان يكون له طبع فيه ، غير ان اشتغاله بهذه العلوم أكسبه ملكة النظام والترتيب والاستنباط والتعليل . ولم يعرف في الكوفيين بعده من أبلى بلاءه في خدمة العربية .

وكان له مذاهب مختارة في النحو والصرف والهجاء يخالف فيها الكسائي ولما عظم أمره خرج الى بغداد فهد له الكسائي الإقامة بها . ولما مات خلفه علي درسه حتى ولى المأمون فأنصل به وجعله مؤدب ولده وحمله على تصنيف كتاب الحدود الذي جمع أصول العربية

ودوّن فيه مذهب الكوفيين واحتج له فكان في علم الكوفيين نظير كتاب سيويه عند البصريين

ثم جاس الى الناس وأملى عليهم كتاب معاني القرآن وتفسيره في أربعة

أجزاء كبار فكان من أجل التفسير

وله كتب غيرها تبلغ ثلاثة آلاف ورقة كبيرة أملاها من حفظه . وكان
الفرّاء متدينا متورعا على تبه وعجب وتعظم . وكان شديد التعصب على
سيبويه وكان طلابا للنكسب يجمع المال طوال دهره وينهقه على أهله بالكوفة
ومات في طريق مكة سنة سبع ومائتين هجرية عن ستين سنة .

علم التفسير

كان الصحابة رضوان الله عليهم يقرءون كتاب الله ويعلمون بفظرتهم
العربية وصحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا من أحواله لفظا ومعنى
ويعرفون وقائع نزوله وأحكامه المرادة منه . ويرجعون فيما أُبهم عليهم من
مجملة ومتشابهة وناسخه ومنسوخه الى رسول الله ثم من بعده الى كبارهم
وفقهاءهم كالخلفاء والعبادلة وأبي بن كعب وأنس بن مالك . وكانت روايتهم
عن النبي صلى الله عليه وسلم محفوظة لم يكتب منها الا قليل من ضحفت غير
متضامة الأجزاء لتخرجهم كان من التدوين حتى لا يختلط التفسير بالمفسر
وأخذ عن الصحابة جماعة من التابعين كأصحاب ابن عباس بن بكّة
ومنهم مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وطاوس بن كيسان
وعطاء بن أبي رباح . وأصحاب عبد الله بن مسعود بالكوفة كإبراهيم النخعي
والشعبي . وأصحاب زيد بن أسلم بالمدينة والبصرة وغيرهما كمالك بن أنس
والحسن البصري وأبي العالية رفيع بن مهران ومحمد بن كعب القرظي والضحاك

ابن مزاحم وقتادة بن دعامة والربيع بن أنس والسدي .
وقدما هذه الطبقة من التابعين لم يدوتوا كتب تفسير جامعة وانما
أدرك بعض متأخريهم زمن أبي جعفر المنصور فدوتوا مع من دون من
طبقة تابعي التابعين الذين وضعوا كتب التفسير الجامعة لسور القرآن كلها .
وكانت كتبهم تجمع أقوال الصحابة وكبار التابعين . ومن هؤلاء سُفيان
ابن عُيينة ووَكيع ابن الجراح وشعبة بن الحجاج ويزيد بن هرون وآدم
ابن أبي إياس واسحق بن راهويته والكلبي ومحمد بن اسحق ومقاتل بن
سليمان والفراء وغيرهم

وبعض هذه الطبقة كتب في غريب القرآن ، وبعضهم كتب في
معاني القرآن وتأويل بعض آياته المحتملة لجملة معان ، وبعضهم كتب في مجازه
ومن أشهر التفاسير التي رويت من طريقهم عن الصحابة تفسير ابن
عباس وقد روى من طرق مختلفة صحة وضعها . وطبع ببعض طرقه الضعيفة
في مصر سنة ١٢٩٠ هـ فهو بذلك أقدم تفسير نعرفه

وتفاسير هذه الطبقة كثيرة ذكر صاحبها الفهرست وكشف الظنون منها
جملة وافرة ولكنهم ومن قبلهم رَوَوْا كثيرا من أقوال من أسلم من أهل
الكتاب في القصص وبدء الخليقة وأسرار الوجود ككعب الأجار وهب
ابن منبّه وعبد الله بن سلام وأمثالهم وانما كان هؤلاء بدوًا لا تحقيق عندهم
ولا تمحيص . ودخل مع ذلك كثير من الأقوال الفاسدة والتأويلات الباطلة
والأحاديث الكاذبة التي دسها مُتَسَتِّرو الزنادقة ممن كانوا يكيدون للإسلام

بإفساد أصوله . فصارت الكتب الأولى لطبقة التابعين ومن بعدهم حاوية
 للفت والسمين خصوصا كتب مقاتل والسكابي . ثم جاء بعد هؤلاء طبقة
 أحصت علم من قبلها وزادت عليه ، وتجرد كثير منهم لتحقيق الروايات ونفى
 الأكاذيب كعلي بن أبي طلحة والحاكم وابن ماجه . ومن متأخري هؤلاء
 البحر الخضم والعيلم الأعظم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المولود سنة
 ٢٢٤ هـ والمتوفى سنة ٣١٠ هـ فقد جمع في تفسيره الكبير صحاح الروايات
 عن الصحابة والتابعين فكان كتابه أول كتاب عظيم صحيح وضع في التفسير
 على مذهب السلف وتابعه في ذلك الثعلبي والواحدى ومنهم استمد كل ذى
 تفسير بعدهم .

وانتهى العصر الأول من بني العباس والأمر على ما ذكرنا . وبعده
 نشأت طبقات رغب بعضهم في تجريد أسانيد الروايات ، وبعضهم في
 تصحيحها ، وبعضهم في اضافة كثير من مباحث العلوم الى التفسير كالتحوي
 والصرف والفقہ والأصول والبلاغة والفوائد والتاريخ والأقاصيص حتى صار
 كل تفسير يغلب عليه علم من العلوم . ثم تجردت طائفة الى التفسير بالرأى
 والقياس وعدم الوقوف عند حد أقوال الصحابة . فانقسم التفسير بذلك الى
 قسمين : تفسير سلفى ، يقتصر على نقل أقوال الصحابة والتابعين بنصوصها ،
 وتفسير فنى يتعرض فيه للصناعات اللفظية والبلاغة وتوؤل فيه الآيات بما
 يمكن احتمالها كما سيأتى بيانه

الحديث

كان كثير من الصحابة يُعْتَوْنَ بِحِفْظِ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ويتحدثون عن أفعاله وأحواله واشتهر منهم في ذلك أبو هريرة وابن عباس وأنس بن مالك وعائشة وأبو سعيد الخدري وأبو الدرداء وابن مسعود وغيرهم ممن ذكرنا في رجال التفسير

ولما فتح المسلمون البلدان ومات كثير من الصحابة خاف أعلام الأمة أن تضع معالم الدين بضباع السنة وموت الصحابة ، فاشتدت عنايتهم بجمعها وطوفوا المدن والأصهار والسهول والأوعار في طلب الحديث وسماعه عن أشخاص رواته . ومن أشهر التابعين في ذلك سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وخارجة بن زيد والزهرى وأبو سلمة وسعيد بن جبير وقتادة الاعمش وابن جريج وغيرهم . وأدرك عمر بن عبد العزيز على رأس المائة ضرورة تدوين الحديث فأمر ابن شهاب الزهري أو ابن جريج أو أبا بكر بن حزم بجمعه وتدوينه واقتدى بهم الناس حتى جاء عصر المنصور فأمر مالك بن أنس بجمع كتابه الموطأ وهو أقدم كتاب باق في الحديث والفقهاء إلى وقتنا هذا . ومن هذا العهد انصرفت هم كل أئمة المسلمين إلى جمعه وتدوينه حتى كان أنفاس ما يتنافس في معرفته العلماء ، وراجت رجاله عند الخلفاء وأشرف الأمة فاندس بينهم كثير من أهل الضلالة والمتزندقة فوضعوا كثيرا من الأحاديث وقبيلها منهم بعض أهل الغفلة من طلاب الحديث ، فشق ذلك

على الخلفاء، فتبعوهم قتلا وحبسا، وأكب الأئمة على تمحيص الصحيح من المصنوع فاقتفوا آثار الرواة جرحا وتعديلا، ونظروا في الأحاديث نقدا وتصحيحا، ووضعوا لذلك متونا وكتبا خاصة، ورتبوا أنواع الحديث مراتب مختلفة صحة وضعفا. وأشهر من قام بذلك امام المحدثين اسحق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ هـ كما أنه أول من جرد كتب الحديث من مسائل الفقه والتفسير، وكانت تكون قبل ممتزجة. ثم اشتهر بعده تلميذه شيخ الحديث وامام السنة محمد بن اسمعيل البخاري فوضع بإشارة منه كتابه الجامع، جمع فيه الصحاح فقط، وكانت الأحاديث قبل تجمع مختلطا صحيحا بضعيفا منها على مرتبة كل منها. وتبعه في ذلك تلميذه مسلم بن الحجاج فكان صحيحا عما أصح الكتب بعد كتاب الله. ثم استدرك عليهما الأئمة بعدهما ما فاتهما من الصحيح والحسن، وألفوا كتباً شتى أجمع الناس على صحة أربعة منها وهي

الجامع لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ والسنن لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ والسنن أيضا لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة ٢٧٥ هـ والسنن أيضا لأبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هـ .
وبعضهم يعد الموطأ بدل سنن بن ماجه وآخرون يحسبون مسند الامام أحمد بن حنبل منها.

وجمع غير هؤلاء في عصرهم وبعده أحاديث بمراتب مختلفة من طرق

متعددة لم تحل من ثقة الأمة محل الكتب الستة والمسند لأحمد والموطأ .
وقد شرحت هذه الكتب وجمعت في كتب عظيمة تشملها وغيرها
ومن فعل ذلك الرَّمَّانِي والحَمِيدِي والعبْدَرِي والسيوطي والشوكاني .

أئمة الحديث

الامام البخارى

هو امام المسلمين ، وقدوة الموحدين ، وسيد المحدثين ، أبو عبد الله
محمد بن اسمعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَه بن بَدِذْبَه الجعفي ولاء
البخارى منشأ صاحب الجامع الصحيح أجل كتب الاسلام وأفضلها بعد
كتاب الله العزيز . ولد ببخارى سنة ١٩٤ ونشأ بها يتيماً ، فحفظ القرآن وشداً
العربية وهو صبي وحجبه اليه سماع الحديث وهو في المكتب ، فكان أول
سماعه سنة ٢٠٥ من علماء بخارى وأشهرهم البَيْكَنْدِي (١) وكان يهابه اذا
جلس أمامه لكثرة حفظه . ولم يناهز البلوغ حتى حفظ عشرات الألوف
من الأحاديث . وكان أهل المعرفة يتعادون خلفه في طلب الحديث ، وهو
بعد شاب لم يخرج وجهه ، حتى يجلسوه في بعض الطريق فيجتمع عليه كثير
ممن يكتب عنه

وخرج مع أمه وأخيه سنة ٢١٠ هـ الى مكة فحجوا ورجع أخوه وأمه
وتخلف هو لطلب الحديث وصنف كتاب التاريخ المشهور عند قبر النبي صلى

(١) هو ابو احمد محمد بن يوسف البيكندي نسبة الى بيكند (بلدة بين بخارى

وحجيجون على مرحلة من بخارى)

الله عليه وسلم في الليالي المقمرة .

ودخل البخارى في طلب الحديث أ كثر ممالك المشرق من خراسان
والجبل والعراق والحجاز ومصر والشام وأخذ عنه علماءؤها وأئمتها، ومنهم أحمد .

ابن حنبل . وتفقه البخارى على مذهب الشافعى وله اجتهاد خاص

ولما نضج علمه واجتمع له يقينه شرع في تمييز الأحاديث الصحيحة من
غيرها بعد أن عرف علما ووجوهها معرفة لم تتم لاحد قبله . فكان المقدم
بذلك على جميع علماء الارض . واستخرج كتابه (الجامع الصحيح) من
ستمائة ألف حديث في ست عشرة سنة . وكان لا يضع فيه حديثا حتى يغتسل .
ويصلى ركعتين . جمع فيه تسعة آلاف حديث مكرر بعضها بتكرار وجوهها .
وقال أنى جعلته حجة بينى وبين الله . فأجمع علماء السنة على أنه لم يكن فيها
أصح منه حتى ولا صحيح مسلم خلافا لبعض المغاربة وتناوله العلماء شرحا
وتخریجا واختصارا وترتيا بأوجه لاتنأهى .

وبقى طول حياته يتردد بين الأمصار ويقم ببغداد ونيسابور وغيرها
حتى اشتاق الى بلاده . فرجع اليها ، وابتلى فيها بفتنة خلق القرآن . وكان
ممن يتوسط فيها ويقول بأن ألفاظ القرآن ونقوشه مخلوقة ، وإن كلام الله
النفسى قديم غير مخلوق فأثار عليه والى بخارى العامة ، فأخرجوه من بخارى ،
فمات في طريقه بقرية يقال لها (خرتنك) على ثلاثة فراسخ من سمرقند
سنة ٢٥٦ هـ وله من العمر ٦٢ سنة الا ١٣ ليلة .

وله كتب كثيرة غير الجامع الصحيح

الإمام مسلم

هو أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري أحد الشيخين
وصاحب تائي الصحيحين

ولد سنة ٢٠٦ هـ ورحل الى العراق والحجاز والشام ، وسمع من أمتهما ،
وقدم بغداد مرارا ، وأخذ عن البخاري ، وكان صديقا له كثير المناضلة عنه .
وأخذ عن أحمد بن حنبل واسحق بن راهويه والقنبري (١) وخلق كثير
وجمع صحبته من ثلثمائة ألف حديث وهو صنو حديث البخاري في الصحة
ومن الناس من يرجحه عليه وهم بعض المغاربة
وأقام بعد رحلاته العديدة ببلدة نيسابور وكان له فيها أملاك وثروة فبقى
يتاجر بها حتى توفي سنة ٢٦١ هـ وله كتب كثيرة

علم الفقہ

كان الصحابة رضوان الله عليهم يرجعون في أمور دينهم وأحكام عبادتهم
الى النبي صلى الله عليه وسلم والى الخلفاء والقراء من أصحابه بعد وفاته ،
وعنهم أخذ التابعون . واذ كان المرؤي عن رسول الله وظاهر نص القرآن
الكريم لا يستوعبان كل أحكام الوقائع المختلفة المتجددة بتجدد الزمان
والمكان وقع الخلاف من زمن الصحابة في تحري الأحكام من الوجوب

(١) هو محمد بن مسلمة

والحظر والندب والكراهة والاباحة . فحدث الاجتهاد منذ زمن الرسول في بعض المسائل في الصحابة ، ثم في التابعين لاسيما متأخريهم . فما لم يكن له حكم في الكتاب والسنة قاسوه على نظيره ان وجد ، والا رأوا ما فيه المصلحة العامة والموافقة للعرف الصالح الذي لا يخالف روح الشرع فعملوا به . ولما كان العراق أقل من الحجاز في رواية الحديث عمل أكثر أهله بالقياس والرأى فانقسم الفقهاء بذلك الى فريقين . فريق غلب عليه الرأى والقياس لتجرجه في تصحيح الحديث (لكثرة ما صنعه منه متزندقة العراق) وهم أهل العراق ، وامامهم الأعمش أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، وفريق غلب عليه الحديث لوفرتة كان عندهم وامكان تمييز غثه من سمينه ، وهم أهل الحجاز ، وامامهم مالك بن أنس ثم الشافعي من بعده . ثم انتقل كثير من المحدثين الى العراق فانتشر الحديث الصحيح بين علمائه بعد أن مهرروا في استعمال القياس ، فمزجوا به علمهم واحتجوا به لا رأاهم . وفعل ذلك من أتباع أبي حنيفة أبو يوسف ومحمد صاحبه وغيرهم . ورحل الشافعي الى العراق ، فأخذ عنه محمد وغيره مسائل القياس والرأى ، فوضع مذهبه وسطا بين المذهبين . ولما رحل الى مصر رجع عن بعض مسائل مذهبه القديم ، ووضع مذهبه الجديد بها . ومن كبار أصحابه الربيع المرادي والمزني ، فرويا للناس كتبه وحفظا مذهبه الجديد . وأخذ أحمد بن حنبل من أصحاب الحديث عن الشافعي وبعض أئمة القياس والرأى من الحنفية ، فاختار له مذهبها خاصا غير أن الغالب عليه وعلى أصحابه الحديث .

وانتشر مذهب أبي حنيفة بالعراق وفارس وخراسان والهند والصين
وببلاد الترك ثم غرب إلى آسيا الصغرى وشرق أوربة وبعض بلاد الشام
وقليل من مصر .

وانتشر مذهب مالك في الحجاز ومصر أولا ثم غرب إلى برقة وأفريقية
والغرب الأقصى والصحراء والأندلس . وأول من نشره بالاندلس تلميذه
يحيى بن كثير . وكان من أقوى أنصاره بأفريقية المعز بن باديس . ثم عاد
كثير من جالية المغرب إلى مصر فسكنوا الصعيد والاسكندرية وانتشر
مذهب المالكية فيهما .

وانتشر مذهب الشافعي في مصر خصوصا وفي بعض بلاد الشام والعراق
وانتشر مذهب أحمد في أسفل العراق وبلاد نجد والبحرين وبعض الشام .
وهذه المذاهب الأربعة هي التي رجعت إليها الأمة في أحكام دينها
ودنياها . وثمة مذاهب كثيرة لأئمة التابعين والمحدثين المجتهدين ، أشهرها
مذهب داود بن علي الظاهري وابنه وأتباعهم ، وهؤلاء ينكرون القياس يأخذون
بظاهر النص ، ومذهب الامام محمد بن جرير الطبري ويقرب من مذهب
الشافعية وقد انقرض أصحاب هذين المذهبين .

وهذه المذاهب جارية جميعها على الأخذ بالكتاب والسنة الصحيحة .
وشذ من جماعات المسلمين بعض فرق الشيعة والخوارج بمذاهب غريبة لم
تحملها الأمة محل الاعتدال وهي قاصرة على بلادهم وآخذة في الاضمحلال
وخاصة مذاهب الخوارج الذي كاد ينقرض من الدنيا ومنهم بقية من الاباضية

تقيم الآن في جزيرة (جربة) على ساحل تونس
وأشهر أمهات كتب الفقه المبسوط رواية السرّحسي عن طريق محمد
ابن الحسن في مذهب الحنفية ويطبع بمصر ومختصر المزني في مذهب الشافعية
وهو الأتم ويطبع بمصر ومدونة مالك في مذهب المالكية وقد طبعت في مصر
وكانت كتابتها روايات متالية عن الأئمة ومنها استخرجت المسائل
ورببت وهذبت .

علم الاصول

ولما أبلغ علم الفقه ورسخت ملكته في أئمة الامتصار وخصرت مسائله
ووجوه استنباط فروعه رجعوا بها الى أصول ستة ، وهي الكتاب والسنة واجماع
الصحابة والقياس والاستحسان على خلاف قليل بينهم في الأخيرين .
واستخرجوا منها أصول المسائل ضبطا لوجوه الاجتهاد والاستنباط وتفريع
الاحكام ، وسموا ذلك علم الاصول . والراجح أن أول من وضع فيه كتابا
الامام الشافعي ثم انتشر في العراق وبرز فيه الحنفية وأثوا فيه بالعجب العجيب
ومقدمهم في ذلك أبو زيد الدبوسي

ثم اشتد الحجاج والمناظرة بين الشافعية والحنفية ، وبينهم وبين المتكلمين
في الانتصار لأرائهم فنشأ من ذلك علما الخلاف والجدل

أئمة المذاهب الأربعة

الامام أبو حنيفة النعمان

هو الامام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطا بن ماه فقيه العراق وقدوة أهل الرأي . وصاحب المذهب المقضى به الآن في أكثر الممالك الاسلامية ، وأول من فتح الفقه وفصل فصوله وأقسامه وميز مسائله ورتب قياسه . والأشهر ان أصل جده زوطا من فرس كابل ولد سنة ٨٠ ونشأ بالكوفة ، وعاصر بعض الصحابة ، واشتغل بالفقه وأخذ كل علمه عن شافه الصحابة ونقل عنهم ، وقد كان كثير من الزنادقة في عصره يضعون الاحاديث ويقبلها منهم أهل الغفلة فحمل أبا حنيفة شدة تورعه واحتياطه على ألا يأخذ في دينه وفقهه الا بما لا شك عنده في صحته ، وتصعب في ذلك ، فلم يصح عنده الا احاديث قلائل عمل بها . واستنبط سائر فقهه من القرآن واستعمال القياس والرأي ، وتابعه في ذلك أكثر أئمة العراق لقله رواة الحديث بينهم وكثرتهم في الحجاز . ولذلك امتاز فقهاء الحجاز بمتابعة السنة في أكثر فقههم ، وأنكروا الرأي على أهل العراق ولكل حجة كما ترى

وكان من أعبد الناس وأكثرهم تهجدا وقراءة للقرآن وأكثرهم ورعا وتقية^(١) وتوخيا للكسب من وجه حل رغب عن وظائف الملوك والخلفاء ، ورضى أن يعيش تاجر خبز ، وعرض عليه القضاء من قبل أمراء بني أمية ثم

(١) التقية الحذر وشاعت في الحذر من السلطان والعمل له

المنصور فأبى حتى سجنه المنصور على ذلك وآذاه، فكان يعتذر بأنه لا يأمن نفسه . قيل ان المنصور حلف ليلين له عملاً فكفر عن يمينه بأن ولاه تعداد الآجر في بناء مدينة السلام، وكان الناس قبله يعدونه بالاحاد فعدده بانقصب المكعب بعد رصفه

وقرأ عليه الفقه علماء الكوفة وبغداد وتخرج عليه منهما الائمة من أصحابه كمحمد بن الحسن وأبي يوسف وزفر وربيعة الرأي ووكيع بن الجراح وغيرهم .

ومات أبو حنيفة رحمه الله ببغداد سنة ١٥٠

وله من الكتب التي رواها عنه أصحابه وتابعو أصحابه كتاب الفقه الأ كبر وكتاب العالم والمتعلم وكتاب الرد على القدرية

الامام مالك بن أنس

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الحميري الاصبحي امام دار الهجرة وسيد فقهاء الحجاز وأحد الائمة الباقية مذاهبهم أبد الدهر ولد سنة ٩٥ بالمدينة المنورة ونشأ بها وأدرك خيار التابعين من الفقهاء والعباد ، ورحل اليهم وأخذ عنهم ، وما زال يدأب في التحصيل وجمع السنة حتى صار حجة من حجج الله في أرضه وروى عنه أنه قال (قلّ رجلٌ كنت أعلم منه مامات حتى يجيئني ويستفتيني) وضرب بذلك المثل فقيل (لايفتي ومالك بالمدينة)

وعرف الخلفاء مقداره فأجلوه وحملوا اليه بدرّهم
وكان المنصور ولى ابن عمه جعفر بن سليمان على المدينة لتسكين الفتن
بها وتجر يد بيعته على الناس ، فسعى بمالك اليه ، وأنه يفتى الناس بأن أيمان
البيعة لا تنعقد لا كراه الوالى لهم عليها . فأتى بمالك وجرده وضربه سبعين
سوطا ، ومدّ لذلك فأنخلع كتفه ، فلبث مريضا مدة ، فكانت هذه السياط
كانت حلية عليه . ولما بلغ المنصور ذلك غضب على جعفر وعزله عن المدينة
وأقدمه الى بغداد على قتب . ولقى مالكا من قابل في موسم الحج فاعتذر
اليه واستسمح له ولجعفر ، وفاتحه في مسائل كثيرة من العلم . ثم قال له يا أبا عبد
الله لم يبق في الناس أفقه منى ومنك . فاجمع هذا العلم ودونته ، ووطئه للناس
توطئة ، وتجنب شدائد عبد الله بن عمر ، ورخص عبد الله بن عباس ، وشواذ
ابن مسعود ، واقصد الى أواسط الأعور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة
رضى الله عنهم (فى كلام طويل) فاعتذر مالك ، فلم يقبل منه فجاء ابنه
المهدى من قابل حاجا فسمع الموطن منه وأمر له بخمسة آلاف دينار . ولم
يلبث المنصور أن مات رزاحم فقه أهل العراق فقهه ولكن ذلك لم يمنع الرشيد
أن يرحل هو وأولاده اليه بالحجاز سنة ١٧٤ ليعلم عليه موطأه ، ولم يتم ذلك
حتى جلس الرشيد بين يديه وحضر المجلس فقهاء الحجاز والعراق وأغدق
عليه الرشيد

وكان مالك فى أول أمره فقيرا ، فلما كثرت عليه منحة الخلفاء حسن
حاله ، وأظهر نعمة الله عليه ، ووصل أهل العلم وشركهم فى ماله ، وصنع ذلك

مع الشافعي رحمه الله

وأخلاق مالك من الكرم والطلاقة والوقار والنبيل والتواضع والحب
 لرسول الله صلى الله عليه وسلم تجل عن الوصف . وكان لا يجلس للحديث إلا
 متوضئاً متمكناً ، ولا يركب دابة في المدينة مع كبره وضعفه إجلالا لرسول
 الله . وتوفي مالك سنة ١٧٩ بالمدينة ودفن بالبقيع

وله من الكتب كتاب الموطأ وهو مطبوع في مصر وغيرها عدة
 طبعات وشرحه كثير من العلماء ، ورسائله الى الرشيد وهي مطبوعة أيضا في مصر

الرواسم الشافعي

هو أبو عبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن
 السائب القرشي المطلي عالم قریش وفخرها وامام الشريعة وحبها
 وهو من ولد المطالب بن عبد مناف ويجمع مع رسول الله صلى الله
 عليه وسلم في عبد مناف . ولد الشافعي بمدينة غزة من أرض فلسطين سنة ١٥٠ ،
 وحمل الى مكة وهو ابن سنتين ، فنشأ بها وما ميز حتى صار نادرة الدنيا ذكاء
 وحفظا . حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين وأولع بالعربية من النحو والشعر
 واللغة ، وتبعها من رواها ، ورحل الى البادية في طلبها ولم يناهز سن البلوغ
 حتى حفظ منها شيئا كثيرا . وبينما هو يتنم بشعر للبيد زجره بعض الحجة
 عن أن يكون مثله في شرفه ونسبه راوية للشعر . وقال له : تفقه يعلمك الله .
 فانتفع بهذا الكلام وحفظ موطأ مالك ، وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة .

ثم رحل في هذه السن الى مالک ، بالمدينة وقرأ عليه الموطأ من حفظه . فقال مالک : ان يكن أحد يفلح فهذا الغلام . وضافه مالک على رقة حاله وقتئذ ، وخدمه بنفسه ، فبقي عنده مدة . ثم رجع الى مكة وعلم بها العربية والفقه . وصحح عليه الاصمعي فيها شعر الهدليين .

وكان الشافعي في حدائته فقيرا تربيه أمه وهي أرملة فكان يتقبل معونات الأغنياء من ذوى قرابته من قریش . ثم ان أحد أصدقائه ولاء الرشيد عملا باليمن ، فخرج معه وولى بعض الاعمال بها فأحسن التصرف ، وبقي مدة حتى وُشي به الى الرشيد وأنه يؤامر الطالبين للخروج عليه . فحُمِل مع الطالبين الى الرشيد وهو بالرقة فلم يتبين شيئا في أمره فأطلقه . فقيل كان ذلك بشفاعة الفضل بن الربيع ، وقيل بشفاعة محمد بن الحسن ، وقيل غير ذلك . ثم دخل بغداد سنة ١٩٥ فاجتمع عليه علماءؤها وأخذوا عنه . ومنهم أحمد بن حنبل فأقام بها حولين أملى فيهما مذهبه القديم ، واجتمع أثناء اقامته بالعراق بمحمد بن الحسن ، فأكرمه وأغدق عليه ، وكتب عنه الشافعي علما كثيرا ثم رجع الى مكة ، ثم عاد الى بغداد سنة ١٩٨ فأقام بها شهرا ، ثم خرج الى مصر ، فوصل اليها سنة ١٩٩ أو سنة ٢٠٠ فألقى عصاه بها ، وسكن الفسطاط ، فكانت دار هجرته ، وبها أملى مذهبه الجديد بجامع عمرو :

واستنبط الشافعي مذهبه بعد القرآن من الحديث والقياس والرأى فكان مذهبه وسطا بين أهل الرأى من مثل أصحاب أبي حنيفة وبين أهل السنة من مثل أصحاب مالک وأحمد . ثم توفي سنة ٢٠٤ ودفن بالقرافة وقبره

بها مشهور حتى صارت تنسب اليه .

وكان الشافعي أفضل من رأى الناس ذكاء وعقلا وحفظا وفصاحة
لسان وقوة حجة ولم يناظر أحدا إلا ظهر عليه وكان يقول ما نظرت أحدا إلا
وددت أن يظهر أن الحق على يديه .

وجملة القول أنه كان إماما فى كل شئ . حتى الرمى فكان يصيب تسعة
من عشرة

ومن كتبه التى أملاها على أصحابه المبسوط الذى سمي فى مصر باسم
الأم وأكثر الناس على أنه أول من صنف فى أصول الفقه . وله كتب
أخرى كثيرة .

الإمام الصمري بن حنبل

هو الإمام الصابر الحنبل أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال الذهلي
الشبلي أحد الأئمة الأربعة وحافظ السنة وقدوة أهل الحديث وأعداء أهل
زمانه ، ولد ببغداد سنة ١٦٤ فتعلم ، وطلب الحديث ، وسمع من أئمة وقته ،
وكان الحديث وقتئذ قد أئع وكثرت رجاله ، وصنفت كتبه ، وتميز صحيحه
من موضوعه ، فلقى أحمد من لا يُحصى من رجاله ، فجاب البلاد ، وطوف
الأقطار ، ودخل الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة ،
حتى حفظ مئات الألوف من الأحاديث ، واختار منها نيفا وأربعين ألف
حديث ضمنها كتابه (المسند) وهو أصل من أصول الإسلام

وكان أحمد أحفظ أهل زمانه بالحديث ، وأعرفهم بصحيحه وضعيفه
والمجروح من رجاله والمعدّل . واستنبط مذهبه من السنة مشوبا بشيء من
القياس والرأى وكان عامة أصحابه هم جمهور أهل الحديث والمقتفين آثار
السلف . وهم الذين كانوا يناهضون أهل الكلام وأصحاب الفلسفة من
الجيل الذى نشأ فى عصر الرشيد والمأمون وقرأوا كتب الأمم الأوائل .
وظهرت فى مدته فتنة خلق القرآن ، وامتنحن فيها فى رمضان سنة ٢٢٠ فى
مجلس المعتصم ايجيبهم الى القول بخلق القرآن فلم يفعل ، فضرب تسعة
وعشرين سوطا ضربا موجعا ، فسال منه الدم ، وأغمى عليه . ثم لما خيف
عليه التلف أطلق ، فأقام فى منزله مدة مريضا ، ثم عوفى وبقى بعدها مشغولا
بالعلم والتعليم ببغداد حتى مات سنة ٢٤١ ومشى فى جنازته من لا يحصى
عددهم وقبره ببغداد مشهور . وله كتب كثيرة منها (المسند) وطبع فى مصر
وغيرها وشرح شروحا عديدة - وكتاب العلال - وكتاب التفسير - وكتاب
التاريخ والمنسوخ - ومجموع كتبه فى الفقه - وكتاب الزد على الجمهوريه وغيرها

علم السلف

كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين يستدلون على عقائدهم بظاهرا
الكتاب والسنة . ولم يقع فيهما من التشابه وما يؤهم التشبيه المنافى لتزيه
المعبود ، توقفوا فيه خوف أن يزل بهم تغلغلهم فى التأويل عن القصد ، فيقعوا
فيما وقع فيه الأمم قبلهم ، فيتفرق أمرهم ويكونوا شيعة ، الا ان ذلك لم يلبث

كثيرا حتى ظهر من متأخري التابعين ومن بعدهم من تناول البحث في ذلك . فبعضهم فهم هذه الآيات والنصوص على معناها الحقيقي ، وتغلغل في التشبيه ، إما في الذات باعتقاد اليد والعين ، فوقعوا في التجسيم الصريح المنافي للتبزيه المطلق ، وإما في الصفات باثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت . وكلا الفريقين من مشبهة الذات والصفات يفر من تشبيه الخالق بمخلوقه بأن ما ثبت من ذلك ليس مثل ما في العباد . فيقولون له يد لا كالأيدي . وجهة لا كالجهات . وقاومهم في نشر هذه البدع أئمة الحديث وكبار العلماء ممن أخذ برأى السلف ، غير أن حججهم بالتوقف والتسليم لم تقنع من دخل في الاسلام من الفرس والطوائف القديمة التي امتلأت ديانتها بالشبه والأوهام ، فأدخلوا كثيرا من عقائدهم وأقوالهم في مباحث العقائد الاسلامية وأضلوا كثيرا من الناس ونحووا في أبحاثهم مناجي الأقيسة الصناعية والعقلية فاضطر العلماء أن يجاروهم ويعارضوهم بمثل ذلك . وساعدهم الخلفاء في عملهم . وكان أول من حمل الناس منهم على الخوض في علم الكلام ، ووضع الكتب فيه والرد على المتدعة الخليفة المهدي

وتجرد لذلك فريقان . فريق أصحاب الحديث وبعض معتدلي الصفاتية الآخذين بمذهب السلف ، وفريق المعتزلة الجامعين في أداتهم بين الآخذ بالكتاب والسنة والعقل . ومقدم هؤلاء واصل بن عطاء أول من خالف مذهب الحسن البصري واعتزل حلقته بجامع البصرة فمد مسألة المنزلة بين

المنزلتين (١) ثم تشعبت مسائل المعتزلة وزخر بحرهم وقويت شوكتهم بتعصيد الخلقاء وحملهم الناس على مذاهبهم مستحلين في ذلك سفك الدماء والجلد . وكان مجمل ما يرمون اليه نفي صفات المعاني من العلم والقدرة والارادة والحياة بحجة أنها لو كانت قديمة للزم تعدد القديم . ونفوا السمع والبصر والكلام لكونها من عوارض الأجسام ، وكذلك لم يفهموا معنى الكلام النفسى . فجزموا بأن القرآن مخلوق . وتشدد المأمون والمعتصم والواثق في ذلك وعظمت الفتنة في بدعتهم ، ثم خمدت بعد زمن المتوكل فحات محلها فتنة الصفاتية (ممن يثبتون الصفات التي نفاها المعتزلة) وأصحاب الحديث والحنبلة المنتظم (٢) كثير منهم في فهم مذهب السلف ، حتى وقعوا في التشبيه والتجسيم وترجمت في هذه العصور الكتب اليونانية والفارسية والهندية والسريانية فكانت في الفتنة ضِعْمًا على الإبالة (٣) وفتحت للناس أبواب اللجاج (٤) وأحدثت في الامة فرقا جديدة من المتفلسفة . وامتزج كثير من مباحث علم الكلام بالفلسفة ، حتى جاء فحل المتكلمين أبو الحسن الأشعري ، ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية . واستعمل في أدائه النقل والعقل . وألحق بالكلام مبحث الامامة للرد على الامامية القائلين بأنها من عقائد الانسـلام . وتبعه كثير من الفريقين . وسمى مجموع مباحثهم بعلم الكلام ، اما لما فيه من المناظرة ،

(١) ومعنى أن الفاسق مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر منزلة بين المنزلتين فتوسط بين مذهب الحسن بأنه مؤمن وبين مذهب الخوارج بأنه كافر (٢) تنطع في الكلام تشدق وغالى فيه (٣) الضغث القبضة من الحنثيش مخملطة الرطب باليابس . والابالة الحزمة من الحطب والحنثيش . وهو مثل وسعنا بلية على بلية (٤) شدة الخصومة

وهي كلام صرف وليست راجعة الى عمل ، وأما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في اثبات الكلام النفسى واشتهر مذهب الأشاعرة بمذهب أهل السنة ، وكثير ردهم على المعتزلة وشغب هؤلاء عليهم ، وتمكن مذهبهم بتأييد القاضى أبى بكر الباقلانى وامام الحرمين وغيرهما حتى نسخ كل مذهب فى العقائد غيره إلا مذهب الشيعة ، فلا يزال عليه بقية من أكثر بلاد فارس وبعض بلاد الهند .

أبو الحسن الأشعري

هو أبو الحسن على بن اسمعيل سليل أبى موسى الأشعري (صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم) وشيخ طريفة أهل السنة والجماعة وامام المتكلمين وصاحب المذهب الكلامى الناسخ لكل مذهب والمنتشر الآن فى أكثر بقاع العالم الاسلامى .

ولد بالبصرة سنة ٢٦٠ هـ ونشأ بها وتلقى العلم على أئمة زمانه وأخذ الكلام عن أبى على الجبائى شيخ المعتزلة وتبعه فى الاعتزال ، واحتج له حتى صار لسان المعتزلة والنائب عن الجبائى فى مواقف الخصام والجدل ، اذ كان هذا يجيد التصنيف ولا يجيد المناظرة . وبقي كذلك أكثر من ثلاثين عاما . ثم هداه البحث فى السنة ومذاهب المتكلمين من الصفاتية والفقهاء وأصحاب الحديث فرأى أن كلا الفريقين من هؤلاء ومن المعتزلة غالٍ فى نظره فتوسط ،

وتغيب عن الناس مدة ألف فيها كُتبه في نصره أهل السنة والرد على المعتزلة، ثم خرج إلى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة وورق المنبر وصاح بأعلى صوته : أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أَعْرَفُه بنفسى، أنا فلان ابن فلان (و ذكر نسبه) إني تغيت عنكم هذه المدة لأنني نظرت فكافات عندي الأدلة ، ولم يترجح عندي شيء على شيء ، فاستهديت الله فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كُتبي هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد كما انخلعت من ثوبي هذا ، (وانخلع من ثوب كان عليه، ورمى به) ، ودفع الكتب التي ألغها على مذهب أهل السنة إلى الناس . فنصب له المعتزلة بالرد والتزييف، فما زال يُدحض حججهم حجة بعد أخرى حتى انقطعوا عن مناظرته ، وتبعه كثير منهم ومن غيرهم من الصفاتية والفقهاء .

وكان أبو الحسن من أروع الناس وأزهدهم مع دُعابة ومزاح . وكان يعيش من غلة قرية وقفها جده بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري على نسله . وكان شافعي المذهب

وشهرة أبي الحسن أجل من أن توصف في مثل عُجالتنا . وقد صنف أبو القاسم بن عساكر في مناقبه مجلدا ، وتوفي سنة ٣٢٤ هـ على الأرجح . وله كتب كثيرة في مذهبه والرد على المعتزلة وكتب أخرى في الرد على الملاحدة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر فرق المبتدعة .



فن التاريخ

هو من الفنون القديمة التي عنيت بها الأمم المتحضرة قبل الاسلام من الفرس والهنود والصين واليونان والروم ، وحدث الاشتغال به في الملة الاسلامية لمعرفة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتوقف كثير من مسائل الدين عليه ، ومعرفة أحوال فتوح البلدان أكانت صالحا أم عنوة ، لترتيب الخراج والعشور ، ومعرفة رواة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، ومعرفة أنساب الأشراف من القرشيين ورؤساء القبائل وترتيب أعطياتهم في الديوان حسب منازلهم . فكان التاريخ في الصدر الأول ينقسم الى أقسام

(١) فن السير والمغازي

(٢) فن فتوح البلدان

(٣) فن طبقات الرجال

(٤) فن النسب

وكان ابتداء تدوين هذه الفنون في أول عصر بني العباس . ثم عرض لأوائل الخلفاء العباسيين أن يترجموا بعض سير ملوك الفرس ومشهورى سؤاتهم ومصالحهم ليتعرفوا نظام سياسة الممالك والشعوب . فترجم بعض كتاب الفرس كثيرا منها لأبي جعفر المنصور ومن بعدهم . فزاد بذلك قسم خامس : هو فن تاريخ الممالك (تاريخ الملوك) واقتدى بذلك بعض المشتغلين بالفنون السابقة فعملوا كتباً في تاريخ بني أمية ثم في تاريخ بني العباس .

ثم عرض الأدباء أثناء جمعهم للشعر واللغة أن يعرفوا أسباب ما قيلت فيه هذه الأشعار فتجدوا لمعرفة أيام العرب ووقائعهم وأخبارهم ونواديرهم ، ووجدوا من الخلفاء والرؤساء ارتياحا لسماع هذه الأخبار فاستكثروا منها . وتكون بذلك قسم سادس : هو فن معرفة أيام العرب وأخبارها في جاهليتها . ونقل كثير ممن أسلم من أخبار اليهود والنصارى قصصا عن التوراة وغيرها للأنبيا وبنى اسرائيل . فصار للتاريخ بذلك قسم سابع : هو فن قصص الأنبياء وكتب في كل فن من هذه الفنون الكتب المتعددة ، واشتهر فيها كثير من فحول الرجال . فكان من أشهرهم ابن اسحق في السير والمغازي ، والكلبي وابنه في النسب ، والواقدي والمدائني وأبو مخنف في الفتوح ، وأبو عبيدة والأصمعي في أخبار العرب وأيامها ، وابن قتيبة والهيثم بن عدى وابن واضح اليعقوبي في تاريخ الملوك وغيرها . وبقى الأمر كذلك حتى جاء شيخ المؤرخين وعمدتهم محمد بن جرير الطبري فجمع كتابه من كل هذه الفنون ، وخط للناس بذلك طريق تصنيف التاريخ وراعى في كتابه ما سبقه به بعض المؤرخين من ترتيب الحوادث على حسب السنين ومن جمع الروايات المختلفة في الخبر الواحد . وعلى طريقته مشى المؤرخون بعده ، وعنه أخذ جلهم ،

نشأة العلوم الرفيعة (العلوم الكونية)

وترجمتها وأشهر المترجمين

وكانت تسمى علوم الفلسفة والحكمة . وتشمل أربعة علوم . المنطق والطبيعات

والرياضيات والأهليات . وتشمل الطبيعيات الطبيعة والكيمياء وفن الموالييد
الثلاثة والطب والصيدلة والفلاحة ونحوها .

وتشمل الرياضيات علم الحساب وعلم الجبر وعلم الهندسة والحيل والفلك
بما فيه الهيئة والتنجيم ومن متعلقاته علم الجغرافيا .

ويالحق بهذه العلوم علوم السياسة وتدبير المنزل والمال والأخلاق .

وتشمل الأهليات علم ما وراء الطبيعة من الروحانيات والمدركات العقلية
كالبحت عن صفات الخالق والقوى النفسية والجن والملائكة ونحو ذلك

وهذه العلوم طبيعية في الانسان من حيث أنه متفكر متمدين لا تختص

به أمة دون أخرى . ولذلك كان الاشتغال بها ضروريا لكل أمة أصبحت

ذات حضارة . ولما فتح العرب الممالك العظيمة ذات العمران الوفير والمدنية

الضخمة لم يروا بدا من استعمال أهل هذه الصناعات من الوطنيين على جباية

الخراج ردى الأرض ومداواة الأمراض وتشييد الأبنية العظيمة لأمتهم

ومكان الساطان منهم . فلما رسخت فيهم ملكة العلوم والنظام ، وفرغوا من

ضبط أصول دينهم ولغتهم ناقت نفوسهم الى معرفة علوم الأمم العظيمة قبلهم

وكان أعظم ما جرهم الى ذلك ظهور فائدة الطب المنقول عن اليونان

بواسطة السريان وحُب الاطلاع على الأمور الخفية المستمدة من التنجيم .

وابتدا ذلك في زمن بنى العباس إلا قليلا من الكتب كان قد ترجم في زمن

بنى أمية ككناش أهرؤن في الطب الذي ترجمه ماسرجويه من السريانية الى

العربية في زمن مروان بن الحكم ، ونشره للناس عمر بن عبيد العزيز ، والآ

ما قيل عن الكتب التي ترجمت لخالد بن يزيد في الكيمياء . وأول من أمر
بترجمة الكتب من خلفاء بني العباس أبو جعفر المنصور ، فإنه استقدم جرجيس
الكبير ابن بختيشوع السرياني رئيس أطباء جنديسابور ونوبخت وابنه سهل
والبطريق وابنه وغيرهما من منجمي الهند والفرس . فترجموا له كتب الطب
والنجوم . وكان من أشهر مترجمي كتب الفلك الهندية وأقدمهم محمد بن ابراهيم
الفرزاري ، وهو الذي ترجم كتاب السنديهند الكبير في حركات الكواكب
وارصادها . ويقال ان المنصور كتب الى ملك الروم أن يبعث اليه بكتب التعاليم
مترجمة ، فبعث اليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات ، فقرأها المسلمون
واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصا على ما بقي منها . وترجم ابن المقفع بعض كتب
في المنطق والطبيعيات والطب والفلسفة كانت نقلت قبل الى الفارسية . ولما مات
المنصور فتر أمر ترجمة الكتب الدخيلة مدة المهدي والمهدي وأكثر أيام الرشيد ،
ثم أعاد سيرتها البرامكة ، فوجهوا الى علماء الهند والفرس والسريان ، فترجموا لهم
كتبا كثيرة من كل فن ، ورغبوا الرشيد في ذلك ، فجاراهم وأثاب العلماء
والمترجمين ، وصححوا في زمنه بعض ما ترجم في عصر المنصور . ثم جاء عصر
المأمون فزخرت بمحور الترجمة . واشتغل خاصته بذلك وتقرّب الناس اليه بمعرفة
علوم الأوائل ، وغصت مجالسه برجال العلم من فقهاء وأدباء وأطباء وحساب
ومتكلمين ومتفلسفة . وامتاز عصر المأمون بكثرة ترجمة الكتب الفلسفية
الالهية ، وكان الناس قبله يتحاشون الخوض فيها ، فبعث الى بلاد الروم جماعة
من المترجمين كابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة والحجاج بن مطر ،

وعليهم حنين بن اسحق، فاختروا كتبها حملوها الى بغداد، فترجمت وأقبل عليها الناس ودرسوها وفهموها وصححوا كثيرا من أغاليطها خصوصا الفلكية والجغرافية. وما انتهى عصر المأمون والمعتمد والواثق حتى لم يبق علم مما صنف فيه اليونان والسريان والفرس والهنود والنبط ألا ترجم منه أكثر من كتاب خلا السحر وعبادة الأوثان، وحتى لم يبق علم مما ترجم إلا نبغ فيه جماعة نبوغا بلغ بهم الى درجة التأليف والابتكار أو الإصلاح والتحقيق. فمن المترجمين من اليونانية والسريانية حبش الأعمى واصطفان بن باسيل ويوحنا بن ماسويه وقسطا بن لوقا. ومن الفارسية غير ابن المقفع وآل توبخت موسى ويوسف ابنا خالد والبلاذرى. ومن الهندية منكه وابن دهن الهنديان. ومن النابغين من العلماء في ذلك العصر في الطب والفلسفة والمنطق والرياضيات بأنواعها وعلم النجوم والألحان والترجمة الصحيحة فياسوف الاسلام والعرب أبو يوسف يعقوب بن اسحق بن الصباح الكندي، وقد بلغت مؤلفاته في هذه العلوم نيفا وثلاثين كتابا ومائتين وتلميذه أحمد بن الطيب وأبو معشر الفلكي وبنو موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن أشهر رياضي هذا العصر وأول المخترعين من المسلمين في الخيل والهندسة. وفتر الاشتغال بالفلسفة والترجمة في عصر المتوكل ثم عاد الى ما كان عليه، غير أن اهتمام الخلفاء والرؤساء بهم لم يبلغ عناية المأمون. ومن أشهر المترجمين بعد عصر المأمون. أبو بشر مقلد بن يونس وثابت بن قرّة وأبو عثمان الدمشقي ويحيى بن عدى ثم ذهب طور الترجمة والتصحيح، وتلاه طور التأليف والتكميل والاختراع،

فأتى فيه الرازي وغيره من حكماء المسلمين بالعجب العجاب في كل فن مما
لو أتينا على بعضه لخرج الكلام بنا عن موضوع هذه العجالة
ودام الاشتغال بهذه العلوم الى ما بعد العصر الاول من حكم بني العباس
حيث ظهر فيما يليه فخلا الفلسفة الفارابي وابن سينا .

الشعر

كان الشعر في عصر الدولة الاموية ينبع من المعين الذي تنبع منه
أمة العربية وفحول الفصاحة، أعنى جزيرة العرب والعراق والجزيرة . فلما قرت
دولة العرب والعراق وتوسطت دار خلائقهم بين العراق والجزيرة صارت
بغداد قبلة الشعراء ووجهة الادباء ، ومن لم يقصدوها للاقامة في ظلال الخلفاء
والملوك ، قصدها للنجعة والامتياع

تسقط الطير حيث ينتثر الحبوب وتغشى منازل الكرماء
ولم يمض على بغداد قرن من تأسيسها حتى صارت عُشًا للادب وميدانًا
لتسابق جياذ العقول في كل فن ، ولا سيما الشعر ، فقد كان له عند الخلفاء والوزراء
والقواد سوق نافذة حتى عند رؤساء الاعاجم من الديلم والترك وحتى تكلف
بعضهم أن يعانیه وينظمه بل ينبغ فيه . ودام كذلك الى انتهاء الدولة العباسية
بعضها . وبهذه العناية العظيمة به وكثرة قائله ومنتحليه تفتن الناس وأدخلوا

عليه فنونا لم تعهد فيه . واستعملوه في كل غرض حتى التعبد به . وتشكل أسلوبه وتنوعت معانيه بما يطابق أغراض استعماله ، غير أن من مميزات الامة الاسلامية وخصائص اللسان العربي مجازاة كل مستحدث جديد ضروري مع المحافظة والحنين الى الصبغة الاصلية في الجملة ، بحيث لا يتأتى نسخ الجديد للقديم بالمره فمن الامور التي لم تنسخ اصول الوزن والقافية ، والتمهيد للمدح بالغزل والتشبيب بالنساء والنسيب بذكر الديار ودروسها ، والاضمان وحدوجها (١) ، وذكري المنازل والمياه في جزيرة العرب ونحو ذلك . فكان التغيير الذي طرأ على مثل هذه الامور بالزيادة عليها لا بالاستغناء عنها ، وكأنهم أبقوها في شعرهم تذكارا للوطن القديم النازحين منه الى ممالك المعمورة ، وحنينا الى مهد لغتهم ، ونزوعا الى استحياء شعائر عنصرهم ، وتخليدا لحسن خيالاتهم ، كما نحاكي نحن قدماءنا في أبنيتهم وفرشهم ، وفتنافس في اقتناء مختلفاتهم . على أن النسيب بمثل هذه الامور لم يعد ملتزما في مطالع القصائد منذ صدر الدولة العباسية ، بل كثيرا ما كان يحل محله ذكري القصور ونعيم العيش وصحبة اخوان الطرب وغناء القيان ونحو ذلك ، أو يُستبدل به ذكر الحجر وأوصافها والحث على اصطبايحها (٢) واغتهاقها (٣) بل لم يقف الامر عند هذا الحد حتى تعدها الى التنديد بذكرها وتسخيف من يلجج بها . ويظن أن أول من خلع هذا التقليد أبو نواس في كثير من قصائده لاسيما الحزريات تطرُّبا منه وتماجنا . ثم صار ذلك متبعا

(١) جمع حدج (بفتحين) وهو مركب من مرآكب النساء يوضع على البعير

(٢) الشرب في الصباح (٢) الشرب في المساء

كثيرا في شعر من بعده . ومن قول أبي نواس في ذلك
 ياربعُ شغلك أنى عنك في شغلٍ لاناقتي فيك لو تدرى ولا جملي
 وقوله

سقياً إغير العلياء^(١) فالسندِ وغيرِ أطلالِ مَيَّ بالجرَدِ^(٢)

وقوله

لاتبك ليلى ولا تطرب الى هندٍ واشرب على الورد من حمراء كالورد
 واستحسن بعض علماء الادب منه ومن تبعه نبذ هذا التقليد وعدوه من
 حسنات المولدين جريا مع دواعي الزمان والمكان، ونعموا على من يجمدُ على
 ذكرك ديار لم يرها وجمال لعله لم يركبها

أما التغيرات التي طرأت على الشعر إبان الدولة العباسية فهي :

أولا ما يتعلق بفنون الشعر وأغراضه

ثانيا ما يتعلق بألفاظه وأسلوبه

ثالثا ما يتعلق بمعانيه وخيالاته

رابعا ما يتعلق بأوزانه وقافيته

الصور التي هزئت في فنون الشعر وأغراضه

(١) زيادة استعماله في إثارة العصبية والمفاخرة : اما بين العجم والعرب كما

في شعر بشار وعبد الله بن طاهر وسعيد بن حميد وغيرهم من طوائف الشعوبية

(١) العلياء والسند موضعان (٢) الجرَد الفضاء لا نبات فيه

وإما بين اليمانية والمضرية كما في شعر مسلم بن الوليد والحكم بن قنبر وأبي نواس وخلف الأحمر ، وإما بين شيعة آل العباس وآل أبي طالب كما في شعر مروان بن أبي حفصة والسيد الحميري وعلي بن الجهم ودعبل الخزاعي وغيرهم . وأما بين علماء المذاهب المختلفة في الاعتقاد والفقہ والنحو كما في شعر أبي محمد اليزيدي وغيره

(٣) زيادة استعماله في الأغراض السياسية من استحقاق الخلافة وتحريرىض ولاية الامور وتهديدهم وانتقاد أعمالهم في شعر كثير من شعراء الدولة (٣) الاغراق في المدح والتلق المشين في شعر أغلب شعراء الدولة وذلك لكثرة المشتغلين بالشعر من الادباء وقلة موارد الكسب الشريف. اذ لم تكن ثمة مطابع ولا شركات لنشر الكتب وتوزيعها ، ولا تعلم شامل لكل طبقات الامة حتى تروج الافكار ويقع الاقبال العظيم على المؤلفات والقصائد التي قد أنشئت في أنواع متعددة تروق الشعب ويستغنى بها عن أبواب الملوك ، فلم يجد الشاعر سوقا رابحة لبضاعته إلا أبواب الخلفاء ، ولا يرى لنفسه شعرا أسير ولا جائزة أربى إلا بما أغرق المدح فيه وخرج عن الذوق بل العقل بل الشرع

(٤) الاقذاع في الهجاء والتصريح المعيب بأسماء العورات والتعرض للحرّم ، لتناقض الوازع الديني وازدياد الزنادقة وفجار الموالى والكتّاب بعدوى تمازج العادات والأخلاق .

(٥) الغزل بالمذكور والاستقصاء فيه حتى غاب على ما سواه ، ويظهر أن

أول من أعلن ذلك والبة بن الحباب وتبعه أبو نواس والحسين بن الضحاك

ومنها طمَّ عَمَّ

(٦) الاغراق في وصف الخمره وتشبيهها والدعوة اليها والنشوة بها وذكُرسقاتها

وندمائها . وأول من اشاد بذلك في شعره من المسلمين أبو الهندي

غالب بن عبد القدوس أحد شعراء خراسان من مخضرمي الدولتين ،

ومنه أخذ بشار وأبو نواس ومسلم بن الوليد وتبعهم غيرهم

(٧) ازدياد المجون والتهتك وحكاية الخازي والفسوق ونحو ذلك

(٨) ازدياد وصف الرياض والبساتين والقصور ومجالس الانس وأحوال

الطبيعة ومصايد الوحوش والطيور والسماك والأمر الدقيقة كما في شعر

أبي نواس ومسلم والبحترى وابن الرومي وابن المعتز

(٩) الوعظ والتزهيد في الدنيا وامام هذه الطريقة أبو العتاهية

(١٠) الحكمة وضرب المثل كما في شعر صالح بن عبد القدوس وأبي

تمام والمتنبي

(١١) تأديب النفس والقصاص والحكايات ، وأول من فعل ذلك ابان بن

عبد الحميد اللاحق ناظم كيلة ودمنة للبرامكة وأول هذا النظم :

هذا كتاب أدبٍ ومحنة وهو الذي يدعى كليلَ دمنه

(٢١) ضبط قواعد العلوم من فقه وغيره . وأول من نظم ذلك أبان أيضاً

وابنه . وغير ذلك من الفنون التي استحدثت في الشعر واستفحل

أمرها غضون الدولة العباسية

الأمور التي استحدثت في المعاني والخيالات الشعرية

- (١) ترتيب الأفكار وأخذ بعضها بحجز بعض بحيث يقل الاقتضاب وشدوذ الانتقال من معنى الى مبان له كما كان يقع كثيراً في الشعر القديم .
- (٢) استعمال الخيال الفرضي الوهمي الذي لا يتصور تحقته في الخارج أو في الذهن مما يستدعيه الغلو والتغلغل في المدح أو الهجو أو التشبيه
- (٣) اختراع الخيالات الجميلة المتصور في التشبيه والاستعارة والأوصاف وحسن التعليل .
- (٤) الاستدلال بالحكم والأمثال وقواعد الفلسفة وشعائر الدين ونحو ذلك .

الأمور التي استحدثت في نطق الشعر وأسلوبه

- (١) هجر الالفاظ الغريبة بالتدرج .
- (٢) زيادة دخول الكلمات الاعجمية نظراً كما في شعر أبي نواس متبعاً في ذلك الأعشى من الجاهلية وقفاه ابن المعتز وغيره
- (٣) رقة الاسلوب مع بقاء الجزالة ووضوح المعنى وجلالته
- (٤) اختراع البديع والاستكثار من أنواعه . وأول من أقدم على ذلك ابن هرمة و بشار ثم مسلم وأبو نواس ثم أبو تمام والبحري ثم ابن المعتز

الأصـور التي استحدثت في الأوزان الشعرية والقافية

- (١) الأكثر مما لم تستكثر منه العرب كالنظم من المضارع والمقتضب والمجثث والمتدارك والمنهوك من الضروب ومخلع البسيط وغير ذلك
- (٢) اختراع أوزان ولدها الخليل من عكس دوائر بحوره ونظم منها كثير من المولدين . من ذلك ما نظمه بعضهم من البحر المسعي المستطيل أو الوسيط وهو عكس الطويل يقول
- لقد هاج اشتياقي غرير الطرف أحورٌ أدير الصدغ منه على مسك وعنبرٌ
وما نظمه بعضهم من البحر المسعى بالمتد وهو عكس المديد يقول
- قد شجاني حبيبي واعتراني ادكارٌ ليته اذ شجاني ماشجته الديار
- (٣) اختراع أوزان أخرى كبعض أوزان اخترعها مسلم بن الوليد ونظم منها ، وكالمواليه واخترع في رثاء البرامكة باللغة العامية ، ثم زاد هذا الامر تفاقما اختراع الفنون السبعة والموشحات في أواخر الدولة العباسية . ومن الأمور التي استحدثت في القافية
- أولا الشعر المسمط وهو أن يبتدىء الشاعر بيت مصرع ثم يأتي بأربعة أقسام على غير قافيته ثم يعيد قسما (شطرا) من جنس ما ابتدأ به وهكذا الى آخر القصيدة . ويقال ان أول من فعل ذلك امرؤ القيس ، وهو غير مسلم ورووا له في ذلك قوله :

توهمت من هند معالم أطلال عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي
مربع من هند خلت ومصايف يصبح بمغناها صدى وعواضف

وغيرها هُوجُ الرياحِ العواصفِ وكل مسف ثم آخر رادف
باسمهم من نوء السماء كين هطال

وربما كان المسقط بأقل من أربعة أقسامه وبلا بيت مصرع كقول بعضهم
غزال هاج لي شجنا فبت مكابدًا حزنا
عميد القلب مرتهمنا بذكر اللهو والطرب
وجرى على ذلك ويسمى بالمسقط تشبيهاً له بالمسقط

(٢) الخمس وهو أن يؤتى بخمسة أقسامه من وزن وقافية ثم بخمسة أخرى
من الوزن وقافية أخرى الى آخر القصيدة وأكثر منه

(٣) المزدوج وهو أن يؤتى بشطرين من قافية ثم بآخرين من قافية
أخرى، وأكثر منه جداً في نظم، كتب الادب والعلوم كما في نظم الالفية
وأول من نظم هذه الانواع بشار ثم أبان بن عبد الحميد اللاحق وبشر
ابن المعتز ودرج عليها الناس كابن المعتز وابن وكيع والامير تميم بن المعز

العصراء وطبقاتهم

ونريد بالطبقة هنا طائفة ظهرت براعتهم في عصر واحد ولو لم يتحدوا
في المنزعة والاهجة أو يدخلوا في مناقضة أو مهاجاة أو يتزاحوا على باب ماك
أو يتقاربوا في الوفيات، ويمكن تقسيم طبقات هذا العصر الى ما يأتي :

(١) طبقة مخضرمي الدولتين أي الذين أدركوا طرفاً من عصر بني أمية
وطرفاً من عصر بني العباس ومن أشهر هؤلاء بشار بن برد وحماد بن عجراد
ومطيع بن اياس وصالح بن عبد القدوس وأبو دلامة والسيد الحميري ومروان

ابن أبي حفصة وأبو الشمقمق . ومن رجازها رؤبة بن العجاج
(٢) الطبقة التي نشأت في صدر دولة بني العباس ، وأشهرها أبو نواس
وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع السلمي وسالم الخاسر والحسين بن
الضحاك والعباس بن الأحنف وأبان اللاحق والعتابي وأبو الشيص ، ومن
رجازها عمارة بن عقيل

(٣) طبقة أبي تمام ودعبل وديك الجن وعلى بن الجهم وغيرهم .

(٤) طبقة البُحترى وابن الرومي وابن المعتز وابن بسام وغيرهم .

وإيس علينا في برنامجنا غير دراسة أخبار بعضهم ممن كان لكلامه
تأثير في اللغة والأدب والأخلاق .

وربما أدرك بعض رجال طبقة عصر الطبقة التي تليها

بشارة بهم براء

هو أبو معاذ بشار المرعث بن برد بن يرجوخ العقيلي ولأهـ، البصري منشأ
أشعر مخضرمي الدولتين ، ورأس الشعراء المحدثين ، وآخر من يحتج بشعره من
المولدين ، وممهد طريق الاختراع والبديع للمتفتنين ، وأحد البلاغاء المكفوفين
منسؤه ومرباه - : وأصله من فرس طخارستان من سبي المهلب بن
أبي صفرة ، ووقع ملك أبويه ابني عقيل بن كعب فنشأ بشار عتيقاً لهم ، وورث
في منازلهم ومنازل بني سدوس وأولع بالاختلاف إلى الأعراب الضاربين
بيادية البصرة حتى خرج نابغة زمانه في الفصاحة والشعر ، قيل له (ليس لأحد
من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من ألفاظهم

وشك فيه. وليس في شعرك ما يشك فيه . قال: ومن أين يأتيني الخطأ ؟ وُلدت هاهنا ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عُقَيْل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ . وان دخلت الى نساءهم فنساءؤهم أفصح منهم . وأيفعت فأبديت^(١) ألى أن أدركت . فمن أين يأتيني الخطأ)

وبذلك صرح كثير من الأئمة بالاستشهاد بكلامه اقتداءً بامامهم سيوييه وان قيل : انه فعل ذلك ابتغاء لسانه

ولقب بالمرعَّث لانه كانت في أذنيه وهو صغير رِعات (والرَّعْثَةُ القُرْطُ)

صفاته وأهمه — : كان بشاراً كمه (ولد أعمى) جاحظ الحدقين

قد تغشاها لحم أحمر . وكان قبيح المنظر ، مفرط الطول ، ضخمة الجثة ، مجدور الوجه ، متوقد الذكاء ، صادق الحس ، لطيف الهداية ، شديد المجون والعبث بالناس ، كثير الاستهتار بشعائر الدين ، قليل المبالاة بالوقعة فيه ، متهما بالزندقة وأنه يدين بالرجعة^(٢) ويفضل النار على الارض ، ويصوب رأى ابليس في امتناعه من السجود لآدم ، وان الناس كلهم كفروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان شعوبياً متعصباً على العرب يفرى الموالي بنبذ ولائهم والانتماء الى الفرس ، شديد التبرُّم بالناس ، ثلاًباً لهم ، نهاشاً لاعراضهم ، لم يسلم من عقرة من لسانه خليفة أو سوقة حتى أهل بيته . وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشاراً ولا يعرفه ، فانه ان لم

(١) أى أخرجت الى البادية (٢) أى بالرُوع الى الدنيا بعد الموت

يَمْتَحِنُ بِلِسَانِهِ امْتَحِنَ بِهِ فِي مَالِهِ

منزلة في الشعر - وقال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ثم بلغ

الحلم وهو نخشي معرّة لسانه . وكان يقول : (هجوت جريرا فأعرض عنى
واستصغرنى . ولو أجابنى لكنت أشعر الناس)

وكان وهو صغير اذا هجا قوما جاءوا الى أبيه وكان طيّانا (بناء) فشكوه
اليه فيضرب به ضربا مبرّحا . فكانت أمه تقول له : كم تضرب هذا الصبي الصغير
الضريير ! أما ترجمه ! فيقول بلى والله انى لارحمه ، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه
الى . فسمعه بشار فطمع فيه : فقال يأبت : ان هذا الذى يشكونه اليك منى

هو قولى الشعر . وانى أن أتممت عليه أغنيتك وسائر أهلى . فاذا شكونى فقل لهم :
أليس الله عز وجل يقول (ليس على الأعمى حرج) فلما أعادوا شكواهم
قال لهم ذلك . فانصرفوا وهم يقولون (فِقْهُ بُرْدٍ أَعْيِظُ لَنَا مِنْ شَعْرِ بَشَارِ !)

وقد أجمع رواة الشعر ونقدته والباحثون فى طبقات الشعراء . على أن
بشارا هو رأس المحدثين ومقدمهم وأسبقهم الى معاوية البديع وطرق أبواب
المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضرى والهجاء المقذع . وانه أول من جمع فى

شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين وفتق عن المعانى الدقيقة والاختيالة
اللطيفة . وعلى هذا رأى الأصمعى وأبو عبيدة وغيرهما ، ويخالفهما اسحق
الموصلى من المتقدمين ، وصاحب المثل السائر من المتأخرين ، ولا يقر له إلا

بالآيات النادرة . ومن يُحْسِنُ رَأْيَهُ فِيهِ ابْنُ رَشِيقِ الْقَيْرَوَانِي قَالَ فِي الْعَمْدَةِ

« وأما بشار فقد شبهوه بامرئ القيس لتقدمه على المولدين وأخذهم عنه .
ومن كلامهم : بشار أبو المحدثين وسمعت أبا عبد الله غير مرة يقول : إنما
سمى الاعشى صنّاجة العرب لأنه أول من ذكر الصنّج (١) في شعره قال :
ويقال بل سمي صنّاجة لقوة طبعه وجلبة شعره ، يُخَيَّل لك إذا أنشدته أن
آخر ينشد معك . ومثله من المولدين بشار بن برد فانك تنشد أقصر شعره
عروضا ، وألينه كلاما ، فتجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع وقد
شبهه تصرفا وضربا في الشعر وكثرة عروض مدحا وهجاء وافتخارا وتطويلا »
والحق أن له الجيد والردى قال عن نفسه (لى اثنا عشر ألف بيت عين .
فقليل له : هذا ما لم يكن أحد يدعيه سواك . فقال : لى اثنا عشر ألف
قصيدة لعننا الله ولعن قائلها ان لم يكن فى كل واحدة منها بيت عين) (٢)
وقصارى القول ان شعر بشار هو الحد الوسط بين الشعر القديم والحديث
وقد طرق بشار كل باب من أبواب الشعر التى عرفت قبله وأرّبى عليها
وغلب عليه الهجاء والتشبيب بالنساء والغزل بهن والخروج بذلك عن الحد
المألوف عند أهل زمانه حتى أنكروه عليه العلماء والمتأهلون لما رأوا من استهتار
نساء البصرة وشبانها بشعره حتى قال سَوَّار بن عبد الله الأ كبر ومالك بن
دينار (ماشى أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعشى)

(١) الصنّج آلة من آلات الموسيقى تتخذ من صفر وهى قطعتان تضرب احدهما
على الأخرى وتطلق أيضا على آلة ذات أوتار (٢) ضاع كل هذا الا نتفا فى كتاب
الآغانى وغيره ولم يدون له ديوان

وما زالا يعظانه . وكان واصل بن عطاء يقول : ان من أخدع حباثل الشيطان
وأغواها الكلمات لهذا الأعمى الملحد . فلما كثر ذلك وانتهى خبره من
وجوه كثيرة الى المهدي وقدم عليه مادحا له استنشده قوله

قاس الموم تَنَلُّ بها نُجُجًا والليل ان وراءها صُبُجًا
لا يُؤَيِّسَنَّكَ من مُخَدَّرَةٍ قولٌ تُغَلِّظُهُ وان جَرَحًا
عُسرُ النساءِ الى مُياسِرَةٍ والصعبُ يَمَكِّنُ بعد ما جَمَحًا

فأنشده إياه ، وكان المهدي غيورا ، فغضب وزجره . وقال : أتحمض الناس
على الفجور وتقذف المحصنات المحبآت ! والله لئن قلت بعد هذا بيتا واحدا
في تشبيب لآ تينَّ على رُوحك ! فكان بشار اذا تاقت نفسه لقول ذلك ذكر
أن الخليفة منعه من كذا وكذا ، ويذكر من اللهو وحديث النساء ما يريد ،
ويقول انه مطيع له خائف أن يفعل كيت وكيت . وضمن ذلك بعض
قصائد مدح بها الخليفة . فلم يزد على أن حرّمه الجائزة عليها . وشجعه على
ذلك وزيره يعقوب بن داود ، وكان متورعا ، فهجاها . فكان ذلك الى
زندقة سبب قتله .

فمن قوله يتبرا من التشبيب ويمدح الخليفة

يا مَنْظَرًا حَسَنًا رَأَيْتُهُ مِنْ وَجهِ جَارِيَةٍ فَدَيْتُهُ
بَعَثْتُ الى تَسْومِي بُرْدَ الشَّبَابِ وَقَدْ طَوَيْتُهُ
وَاللَّهِ رَبِّ مُحَمَّدٍ مَا اِنْ غَدَرْتُ وَلَا نَوَيْتُهُ
أَمَسَكَ عَنْكَ وَرَبِّهَا عَرَضَ الْبَلَاءِ وَمَا ابْتَغَيْتُهُ

ان الخليفة قد أبى واذا أبى شيئاً أبيتُهُ
 ومخضَّبِ رخصِ البنا ن بكى علىَّ وما بكيتُهُ
 ويشوقني بيتُ الحبيبِ إذا ادكرتُ وأين بيتُهُ
 قام الخليفةُ دونهُ فصبرتُ عنه وما قلته
 ونهاني الملكُ الهما م عن النساءِ وما عصيتُهُ
 لا بل وفيتُ فلم اضعُ عهدا ولا رأيا رأيتُهُ
 وأنا المطلُّ على العدا واذا غلا الحمد اشتريته
 وأميلُ في أنسِ النديمِ من الحياءِ وما اشتبهتُهُ
 أصفى الخليلَ اذا دنا واذا نأى عنى نأيتُهُ

ثم أنشده ما مدحه به بلا تشبيب فخرمه

وبهذا الشعر الرقيق تعرف كيف كان ولوع شبان البصرة ونساءها وخلعائها
 بشعره وتغنيهم به ، وكيف كان اغراؤه لهم بالاستهتار والمجون . وكانت
 متأدبات النساء والقيان لذهاب بصره يحضرن مجلسه ويسمعن شعره ويتناشدنه
 ويغنين ويتعابن به . فهوى بشار منهن جارية تسمى عبدة فشهرها في شعره
 حتى صار له معها أخبار طائرة وأشعار سائرة . فن قوله فيها

يزهدني في حب عبدة معشره قلوبهم فيها مخالفة قلبي
 فقلت دعوا قلبي وما اختار واراضي فبالقلب لا بالعين يبصر ذوالحب
 فما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
 وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا وألف بين العشق والعاشق الصب

وقوله

لم يَطْلُ لَيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أَنْمِ وَنَفِي عَنِ الْكُرَى طَيْفٌ أَلَمْ
 وَإِذَا قَلْتُ لَهَا جُودِي لَنَا خَرَجْتَ بِالصَّمْتِ عَنِ لَأَوْنَعَمْ
 رَقَبِي يَا عَبْدَ عَنِي وَاعْلَمِي أَنْتِي يَا عَبْدًا مِنْ لَحْمٍ وَدَمِ
 أَنْ فِي بُرْدِي جَسْمًا نَاحِلًا لَوْ تَوَكَّأْتُ عَلَيْهِ لَأَنْهَدَمْ
 وَكَانَ يَوْلَعُ بِهِ فِي هَذَا الْمَعْنَى وَشَبَّهَهُ إِذْ كَانَ ضَخْمًا كَأَنَّهُ قَيْلٌ . وَمِنْ قَوْلِهِ

فِي ذَلِكَ

يَا قَوْمِ أَذْنِي لِبَعْضِ الْحَى عَاشِقَةٌ وَالْأَذْنَ تَعَشَّقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانًا
 قَالُوا بَيْنَ لَاتْرَى تَهْدَى ! فَقُلْتُ لَهُمْ الْأَذْنَ كَالْعَيْنِ تُوْفِي الْقَلْبَ مَا كَانَا
 هَلْ مِنْ دَوَاءٍ لِمَشْغُوفٍ بِجَارِيَةٍ يَلْقَى بِلِقْيَانِهَا رَوْحًا وَرَيْحَانًا
 وَهَاجِي بِشَارِ الشُّعْرَاءِ الْمُفْلِقِينَ فِي زَمَانِهِ وَنَصَبَ لَهُ مِنْهُمْ حَمَادَ عَجْرَدٍ ، وَاحْتَدَمَ
 بَيْنَهُمَا اللَّجَاجُ وَالْتِقَازُفُ بِالْأَقْوَالِ الْمُقْدَعَةِ (١) وَظَهَرَ حَمَادٌ عَلَيْهِ فِي بَعْضِ أَهَاجِيهِ
 مَعَ أَنَّ الْجَيْدَ مِنْ هَجَاءِ بَشَارٍ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ جَيْدِ هَجَاءِ حَمَادٍ . فَهَجَاءُ بَشَارٍ
 هَتَكَ حَمَادًا ، وَبَعْضُ هَجَاءِ حَمَادٍ أَلَمْ يَشَارَا وَإِنْ لَمْ يَسْقُطْ مَنْزِلَتُهُ . قِيلَ أَنَّهُ لَمَّا
 هَجَاهُ حَمَادٌ بِقَوْلِهِ

وَيَا أَقْبَحَ مِنْ قَرْدٍ إِذَا مَا عَمِيَ الْقَرْدُ

قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ! قَدْ وَاللَّهِ كُنْتُ أَخْشَى أَنْ يَأْتِيَ بِهِ ! وَاللَّهِ لَقَدْ وَقَعَ لِي
 هَذَا الْيَوْمَ مِنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ سَنَةً فَمَا نَطَقْتُ بِهِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَسْمَعَ

(١) القذع الفحش وقول الحنا والقذف والاقوال المقذعة المشتملة على ذلك

فأهجى به حتى وقع عليه النبطى . وقيل أنه لما سمعه بكى . فقال له قائل :
أتبكى من هجاء حماد ! فقال والله ما أبكى من هجائه ، ولكن أبكى لأنه
يرانى ولا أراه ، فيصفنى ولا أصفه !

معانيه ونصواته — : وإبشار من المعانى المبتكرة والخيلات البديعة

فى فنون الشعر المختلفة ، اجعل منهجه برزخا بين الشعر القديم والحديث ، ومجازا
يعبر عليه الشعر من مرابع البداوة الى مقاصير الحضارة . وفى ذلك يقول
الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين « كان بشار خطيبا صاحب مشور ومزدوج
وسجع ورسائل وهو من المطبوعين أصحاب الابداع والاختراع المتفنين فى
القائلين فى أكثر أجناسه وضرابه »

ومن غرر كلامه فى الحكم والنصائح . قوله

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن	برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة	فان الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها	وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وخلّ الهوينى للضعيف ولا تكن	نوؤوما فان الحر ليس بنائم

وقوله

إذا كنت فى كل الأدور معاتباً	صديقك لم تلق الذى لاتعابه
فمش واحدا أوصل أخاك فانه	مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى	ظمت وأى الناس تصفو ومشاربه

وقوله

خليلى ان المال ليس بنافع
وكنت اذا ضاقت على محالة
وماخاب بين الله والناس عامل
وماضاق فضل الله عن متعفف
اذا لم ينل منه اخ وصديق
تيممت اخرى ماعلى تضيق
له فى التقى اوفى المحامد سوق
ولكن اخلاق الرجال تضيق

وقوله

طبعت على مافى غير مخير
اريد فلا اعطى ، واعطى ولم ارد
فاصرف عن قصدى وعامى مقصر
هواى ولو خيرت كنت المهدبا
وقصر علمى ان انال المغيا
وامسى وما اعقتب الا التعجبا

ومن قوله فى الوصف

وجيش كجنح الليل يزحف بالخصى
غدونا له والشمس فى خدر امها
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه
كان مثارا النقع فوق رؤوسنا
بعثنا لهم موت الفجأة اتنا
فراحوا فريق فى الاسار ومثله
اذا الملك الجبار صعّر خده
وبالشوك والخطى حمر ثعالبه (١)
تطالعنا والظل لم يجز ذائبه
وتدرك من نجى الفرار مثالبه
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
بنو الموت خفاق علينا سبابه (٢)
قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه
مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

(١) الثعالب جمع ثعلب وهو هنا طرف الرمح الداخلى فى جية السنان - أى والرمح
حمر اطرافها من دماء الاعداء (٢) يريد بها الاعلام

ومن قوله في المدح يمدح خالد بن برمك وهو بفارس

أخالدُ لم أخبِطُ اليك بذيمة سوى أنني عافٍ وأنت جوادُ
أخالدُ بين الأجر والحمد حاجتي فأَيُّهما تأتي فأنت عمادُ
فان تعطني أفرغ عليك مدائحي وأن تأب لم يضربْ على سداد
ركابي على حرف وقلبي مشيع ومالي بأرض الباخلين بلاد
إذا أنكرتني بلدةٌ أو نكرتها خرجت مع البازي على سواد (١)

وقوله

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يُعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعداني فأتلقت ما عندي
وقوله يمدح عقبة بن سلم بن قتيبة

انما لذة الجوادِ بن سلم في عطاء ومرَّ كَب للقاء
ليس يعطيك للرجاء ولا الخور ف ولكن يلدطعم العطاء
يسقط الطيرُ حيث ينثر الحبوب ويغشى منازل الكرماء

ومن قوله في الحماسة

إذا ما غضبنا غضبةً مُضرية هتكنا حجاب الشمس أو تظنر الدما (٢)
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة ذرى منبر صلي علينا وسالما

ومن ابتداءاته البديعة قوله

(١) أي فارقها متنكراً مصاحباً البازي لأنه أنكر الطيور ، على بقية من الليل
(٢) رقى رواية (أو قطرت دما)

أبي طلل بالجِزَع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متبها
وبالجِزَع آثار بقين وباللوى ملاعب لا يُعرفن الا توها
ومن أبياته السائرة قوله

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدنى اليك فان الحب أقصاني
وقوله (وهو أغزل بيت للمولدين)

أنا والله أشهى سحر عَيْنِكَ وأخشى مصارع العشاق
ومع ما لبشار من هذا الشعر الرائع قد يأتي بالمرذول الساقط . فمن ذلك
ربابة ربة البيت تصب الخلل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت
وقوله

ان سلمى خلقت من قصب قصب السكر لا عظم الجمل
واذا أدنيت منها بصلا غلب المسك على ربح البصل

وان كان يعتذر عن مثل ذلك بأنه قاله في صباه أو المزاح
وكان بشار من المغلبين لأبي الشمقمق يخشى هجاءه ويصطنعه بالمال .
قته - : ولما اشتهر بشار بالزندقة أمر المهدي وهو بالبصرة بجلبده بالسياط
في حرّاقة بدجلة . فضرب سبعين سوطا مات منها وألقى في بطيحة البصرة
فدفنه أهله بجانب قبر حماد عجرد

وقيل ان سبب قتله أنه هجا المهدي ويعقوب بن داود بقوله

بنى أمية هبوا طال نومكو ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

و بقول آخر مُقذِع

ويجوز أن يكون ذلك مما أحفظه عليه مضافا الى زندقته
وكان قتله سنة ١٦٨ هـ وقد نيف على تسعين وقيل سبعين سنة وهو عندى أظهر

سروان بن أبي حفصة

هو أبو السِّمِط مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة أحد الشعراء
البلغاء المداحين والبخلاء المشهورين

وأصل جده مولى فارسى لعثمان بن عفان رضى الله عنه فوهبه لمروان بن الحكم
نشأ فى أواخر عصر بنى أمية . واشتهر شعره فى خلفاء بنى العباس
وأول من نوه به ورفع من قدره ووهب له الجوائز السنية معن بن زائدة
الشيبانى . ثم مدح المهدي وبالغ فى استحسان بنى العباس للخلافة ورد فى
شعره على العلويين المطالبين بها بأشنع الأقوال ولذلك آثره الخلفاء على غيره
فاختص بهم وبوزرائهم

روى عن الفضل بن الربيع قال : « رأيت مروان بن أبي حفصة وقد
دخل على المهدي بعد وفاة معن بن زائدة فى جماعة من الشعراء فيهم سلم
الخاصر وغيره فأنشد مديحا فيه . فقال له ومن أنت ؟ قال شاعرك يا أمير
المؤمنين وعبدك مروان بن أبي حفصة . فقال له المهدي ألسنت القائل

أقمنا بالجمامة بعد معن مُقاما لا نريد به زوالا

وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلانوالا

قد ذهب النوال فيما زعمت ، فلم جئت تطلب نوالنا؟ لا شيء لك عندنا ! جروا
برجله ! فجروا برجله حتى أخرج . فلما كان من العام المقبل تلتطف حتى
دخل مع الشعراء وانما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء كل عام مرة فمثل بين
يديه وأنشده بعد رابع أو خامس من الشعراء

طرقك زائرة فخيَّ خيالها بيضاء تخط بالجمال دلالها

قادت فؤادك فاستقادومثلها قاد القلوب الى الصبا فأمالها

قال فأنصت له الناس حتى بلغ قوله

هل تظمسون من السماء نجومها بأ كفكم أو تسترون هلالها

أو تجحدون مقالة عن ربكم جبريل بلغها النبي فقالها

شهدت من الانفال آخر آية بترائمهم فأردتمو أبطالها

قال فرأيت المهدي قد زحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط اعجابا
بما سمع . ثم قال كم هي ؟ قال مائة بيت . فأمر له بمائة ألف درهم . فكانت
أول مائة ألف درهم أعطيها شاعر في أيام بني العباس

قال ومضت الأيام وولى هارون الرشيد الخلافة فدخل اليه مروان

فرأيته واقفا مع الشعراء ثم أنشده قصيدة امتدحه بها . فقال له من أنت قال

شاعرك وعبدك يا أمير المؤمنين مروان بن أبي حفصة . قال له ألسنت القائل

في معن وأنشده البيتين اللذين أنشدهما المهدي . ثم قال خذوا بيده ! فأخرجوه

الاشئ لك عندنا ! فأخرج . فلما كان بعد أيام تلتطف حتى دخل فأنشده
قصيدته التي يقول فيها .

لعمرك ما أنسى غداة المحصب إشارة سلمى بالبنان المخضب
وقد صدر الحجاج إلا أقلهم مصادر شتى موكبا بعد موكب
قال فأعجبه فقال كم قصيدتك من بيت ؟ فقال ستون أو سبعون . فأمر له
بعدد أبياتها ألوبا . فكان ذلك رسم مروان عندهم حتى مات «
ومروان في طبقة بشار في المدح أو يزيد ويمتاز عنه بشار بضره في
فنون مختلفة . وكانا متعاصرين . وبين العلماء خلاف في الموازنة بينهما وأكثرتهم
على تقديم بشار . وكان ابن الأعرابي يحتم به الشعراء وما دون لأحد بعده
شعرا وروى عنه ذلك في أبي نواس

وفيه يقول عبد الله بن المعتز في كتاب طبقات الشعراء

(وأجود ما قاله مروان قصيدته الغراء اللامية وهي التي فضل بها على
شعراء زمانه يمدح فيها معن بن زائدة الشيباني ويقال أنه أخذ منه عليها مالا
كثيرا لا يقدر قدره . ولم ينل أحد من الشعراء الماضين ماناله مروان بشعره
فما ناله مروان بشعره (مما ناله ضربة واحدة) ثلثمائة ألف درهم من بعض
الخلفاء بسبب بيت واحد)

يريد به البيت المشهور الذي يدفع به العلويين عن طلب الخلافة

وهو قوله

أني يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثه الأعمام

ويقال ان هذا البيت كان سبياً في ان أحد شيعة العلويين عمِل على اغتياله فتجب اليه حتى صار يأنس به ويخلو معه فانهز فرصة مرضه بالحمى وخلو المكان من أهله فخنقه ، ثم خرج وعاد عند سماع الواقعة . متباكياً . وجهل أمره . وكانت وفاة مروان سنة ١٨١ ببغداد وقصيدته اللامية مشهورة مطولة منها

تشابه يوماه علينا فأشكلا فلأنحن ندرى أى يومه أفضل
أيوم نداء الغمر أم يوم بأسه وما منهما الا أغر محجل

أبو نُوَاس

هو أبو عليّ الحَسَن بن هانيّ بن عبد الاول بن الصباح الحكيم الشاعر المتفنن الجاد الماجن صاحب الصيت الطائر والشعر السائر ورأس المحدثين بعد بشار

منسؤه — وهو فارسي الأصل وجده كان من موالي الجراح بن عبد الله الحكيم والى خراسان في عصر بني أمية . وكان أبوه من جنده مروان ابن محمد آخر ملوك بني أمية من أهل دمشق وانتقل الى الأهواز للرباط بها فتزوج أمه جلبان وولد أبو نواس بقرية (أستان ماتارد) من كورة خوزستان سنة ١٤١ وقدمت به أمه البصرة بعد سنتين فنشأ وتعلم العربية ورغب في الادب وأشعار الخلفاء والمُجَّان . فلم تبعاً أمه بحاله وأسلمته الى عطار بالبصرة . فكث عنده مدة وهو لا يفتر عن معاناة الشعر والاختلاف الى الأدباء . وكان يعجبه شعر والبة بن الحباب من الكوفة أحد المستهترين المجان . فاتفق أن

قدم والبة البصرة واجتمع بأبي نواس عند العطار وأعجب كلاهما بالآخر فأخرجه والبة معه الى الكوفة ليتخرج في الشعر فبقى مع والبة وندمائه من خلعاء الكوفة وتخرج عليهم في الشعر حتى فاقهم جميعا ولكنه غلب عليه مذهبهم في وصف الخمر ومجالس اللهو والطرب والعبث والمجون والعدول بالغزل من صفات المؤنث الى صفات الذكر . ويقال ان أول من اتهم ذلك في الشعر أستاذه والبة بن الحباب . وقدم بغداد وقد أربى سنه على الثلاثين . ولم يلحق بها أحدا من الخلفاء قبل الرشيد . فاتصل ببعض الامراء ومدحهم وبلغ خبره الرشيد فأذن له في مدحه فمدحه بقصائد طنانة . ثم كان يقصد بعض عمال الولايات ويمدحهم ، ومنهم الخصب عامل مصر فمدحه بقصائد بليغة وروى عنه المصريون شعرا كثيرا لم يحفظه العراقيون . ثم انقطع الى مدح محمد الأمين . وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه ، وبقى في سجنه مدة . وقيل سجنه الرشيد أيضا قبل ذلك لهتكه واغرائه الشبان بالفجور ولم يلبث بعد خروجه من السجن كثيرا حتى مات ببغداد سنة ١٩٩

صفاته وأهمه - كان أبو نواس جميل الصورة فكذلك المحض خفيف

الروح كثير الدعاية حاضر البديهة فصيح اللسان عالما بالشعر واللغة والاخبار علما قلما يتفق لأحد من أئمة زمانه الا أنه كان ماجنا شديدا الاستهتار بشعائر الدين والا داب ، وأكثر من الارفاث والمجون في شعره . ومع كل هذه الهنات لم يتخرج أئمة اللغة والأدب عن الاقرار بفضله في صناعته وأنة نسيج وحده وأعجوبة زمانه

وكان في أبي نواس عصبية لليمانية على المضرية ويشايه في ذلك خلف الأحر وهو الذي أغراه بالسكنى بأبي نواس اذ قال له : أنت من أهل اليمن فتكن باسم من أسماء الذوين . ثم أحصى له أسماءهم وخيره فقال : ذو جردن ، وذو كلال ، وذو بزن ، وذو كلاع ، وذو نواس . فاختر ذا نواس . فكناه أبا نواس وكان قبل يكنى أبا الحسن فغلبت عليه . وقبل كنى بذلك لذو ابنتين كانتا له في صغره تنوسان على عاتقيه

منزلته في الشعر — : أ كثر علماء الشعر وتقدته وفحول الشعراء على

ان أبانواس أشعر أهل زمانه وأكثرهم تفننا وأرضهم قولاً وأبدعهم خيالاً مع رقة لفظ وبديع معنى . وكان بطاولة مسلم بن الوليد وأبو العتاهية في هذه الصفات الا أن الاول كان به على فضله بعض تكلف وتصنع قليل البديهة والارتجال يتعمّل التوقر والتعظم في شعره . وكان أبو العتاهية مطبوعاً على الشعر حتى كاد كل كلامه يكون شعراً الا أنه غلب عليه فنان من الشعر : الغزل في صباه ، والزهد في كهولته وشيخوخته . وأبو نواس شاعر مطبوع برز في كل فن من فنون الشعر وامتاز عن كل الشعراء بقصائده الخمرية ومقطعاته المجونيات التي أسقطته عند المتورعين وحببته الى المستهترين . وكان أبو نواس يعمل القصيدة ويتركها ليلة ثم ينظر فيها فيلقى أكثرها ويقتصر على العيون فلماذا قصر أكثر قصائده

تأثير شعره — : والمطلع على تاريخ الشعر العربي لا يسعه الا موافقتنا

في أن شعر أبي نواس كان لقاح الفساد والقذوة السيئة في نقل الغزل من أوصاف
المؤنث الى أوصاف الذكر والخروج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم
واحتماسهم ولم يجسر أحد قبله وقبل شيطانته والبة أن يذكر ذلك في شعره
الا قليلا وان وجدت دواعيه بعدوى المدينتين الآرية والسامية خشية
الانكار والمقت ، حتى جاء أبو نواس فسار شعره في ذلك ، وبذ غيره ، وتفتن
وتوفر فيه على المزل ، واخترع المعاني الفريدة ، فأغوى بها العقول ، واستهوى
القلوب ، وزاد على ذلك انفراده بالابداع في وصف الخمر وصفا لم يختر بيال
أحد ممن تقدمه أو كما يقول أحمد بن يوسف الكاتب : وصفا لو سمعه الحسان
لهاجرا اليها واعتكفا عليها (يعني الحسن البصرى وابن سيرين) فصار نموذج
سوء لمن تأخره . فافتن بشعره الشبان والمتصابون في زمانه وبعده . وجا كوه
وغلب عليهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يعد نظريفا الا اذا مزج شعره
بشيء من ذلك وان لم يقع في محظوراته . جنابة جناها أبو نواس على الشعر
العربي ، ومعرفة اصقتها أرفائه وأخباره بالأدب لم تقتلها من أهله عذابات الحوادث
وزواج الزمان ، فانا لله !

ويعد أبو نواس ثاني بشار في منزعه لفظا ومعنى ، وكثيرا ما صب على
قوالب معانيه وجرى في مضماره . وفي ذلك يقول الجاحظ وقد وصف بعض
الشعراء (وأما بشار وأبو نواس فمعناهما واحد والعدة اثنان ، بشار حل من
الطبع بحيث لم يتكلف قط قولاً ولا تعب من عمل شعر ، وأبو نواس حل
من الطبع بحيث يصل شعره الى القلب بلا أذن) ويقول أيضا في موضع

آخر (لا أعرف بعد بشار مولدا أشعر من أبي نواس)
 واستقصاء أخبار أبي نواس وأقوال الناس في شعره يستوجب عمل
 مجلدات وهيئات أن تفي هذه العجالة بذلك

وقال أبو نواس الشعر وهو صبي وأول شعر قاله هو

حاملٌ لهوى تعبُ	يستخفه الطرب
أن بكى يحق له	ليس ما به لعب
تضحكين لاهيةً	والحب ينتحب
كلما انقضى سبب	منك جاني سبب
تعجيبين من سقمي	صحتي هي العجب

وعن المبرد أنه قال: ما تعاطى قول الشعر أحد من المحدثين أحذق من أبي
 نواس فإنه شبب ومدح في أربعة أبيات . فقال :

تقول غداة البين احدى نساءهم	لى الكبد الحرى فسر ولك الصبر
وقد خضبتها عبرة فلد معها	على خدها خد وفي نحرها نحر
وقالت الى العباس ؟ قلت فمن اذا؟	وما لى عن العباس معدى ولا قصر
فهل يكفان الا براحتة الندى	وهل يزهون الا بأوصافه الشكر

وأشده المأمون لأبي نواس قوله

إذا امتحن الدنيا لييب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

فقال: لو ان الدنيا نطقت فوصفت نفسها لما عبرت عنها عبارة أبي نواس .
 وقال سفيان بن عيينة لرجل من أهل البصرة أنشدني لأبي نواسكم فأشده

ما هوى الآله سبب يتدى منه وينشعب

فقال سفيان آمنت بالذى خلقه

وعجب سفيان أيضا من قوله

ياقرا أبصرتُ فى ماتم يندُب شجوا بين أتراب

يبكى فيلقى الدرَّ من نرجس ويلطم الورد بعناب

قيل فاذا أعجِبَ به سفيان مع زهده وورعه فما الظن بغيره . وروى الثعالبي

عن هرون بن على بن يحيى بن المنجم : أجمع أهل العلم بالشعر على أن أجود

بيت للمحدثين فى المدح قول أبى نواس

وكلت بالدهر عينا غير غافلة بجود كفك بأسوكلَّ ماجرحا

وقال غيره بل قوله

أنت على ما بك من قدرة فلست مثلَ الفضل بالواجد

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

ومن مدائحه القصيدة الطائفة التى مدح بها الأمين ومطلعها

يادار ما صنعت بك الأيام لم تبوقيك بشاشة تُستام

ومنها

وإذا المَطىُّ بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام

ومن قوله فى صفة الخمر

فتمشَّت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم

فعلت فى اللب اذ مزجت مثلَ فعل النار فى الظلم

فاهتدى سارى الظلام بها كاهتداء السفر بالعلم

وقوله فى مطلع قصيدة

ألا فاستنى خمرًا وقل لى هى الخمر ولا تسقى سرا اذا أمكن الجهر

وقوله

ومستطيل على الصهباء باكرها فى فتية باصطباح الراح حذاق

فكل شئ رآه ظنه قدحا وكل شخص رآه قال ذاساق

وقوله فى الشكوى وسوء الحال

ولو أنى استزدتك فوق ما بى من البلوى لأعجزك المزيدي

ولو عرضت على الموتى حياة بعيش مثل عيشى لم يريدوا

وقيل انه لما حضرته الوفاة أنشد

يارب ان عظمت ذنوبى كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم

ان كان لا يرجوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير المجرم

أدعوك رب كما أمرت تضرعا فاذا رددت يدي فمن ذا يرحم

مالى اليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك ثم أنى مسلم

مسلم به الوليد صريع الغواني

هو أبو الوليد مسلم بن الوليد الأنصارى ولأى الكوفى منشأ أحد الشعراء

المفلقين ، وبالبلغاء المبدعين ، وأحد الفحول الثلاثة المشهورين من الطبقة الثانية

من شعراء بنى العباس ، وثانيهم وثالثهم أبو العتاهية وأبونواس . قال مسلم الشعر

في صباحه، ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء مكتفياً بما يناله من قليل العطاء، وينفقه على ملاذحه مع اخوانه من خلعاء الشعراء. ثم انقطع الى يزيد بن يزيد الشيباني قائد الرشيد، فمدحه بأسنى المدائح. وكان يتلف على حرمانه من الوصول الى الخليفة. حتى ذكره بعض اخوانه في مجلس الرشيد. فوجه اليه. فحضر، وأنشده ما قاله فيه من الشعر. فأجزل صلته. وعد من شعراء الرشيد. وهو الذي سماه صريع الغواني لقوله في قصيدة له بليغة

هل العيش الا أن تروح مع الصبا صريعاً حُجَّياً الكأس والأعين النجل
ثم اتصل بالبرامكة، وحسن رأيهم فيه وتحفيمهم به، وكانوا يقدمونه على أبي نواس ولما بويج المأمون بالخلافة بمرور، وأصبح العقد والحل بيد ذي الرياستين الفضل ابن سهل، وكان نديماً له أثيراً عنده قبل وزارته، قر به وأدناه وحظى عنده. وولاه أعمالاً بمرجان اكتسب فيها ألف ألف درهم. فلما حصل المال عنده لزم منزله، وكان كريماً سمحاً، فأتلف جميع ما اكتسبه. ثم صار الى الفضل مستجداً يفتقد له ألم أغنك؟ فقال ما غناني في ألف ألف وألف ألف وألف ألف فقال له الفضل: ان بيوت الأموال لا تقوم على هذا الفعل. ثم قلده الضياع بأصبهان، وضم اليه رجلاً يأخذ مرافق العمل، ويطلق له شيئاً يحتاج اليه بقدر نفقته، ويتابعه بالباقي ضياعاً. فاكتسب منها أيضاً ألف ألف ابتاع له بها ضياعاً. فلما قتل الفضل بن سهل لزم منزله ونسك ولم يمدح أحداً حتى مات بمرجان

سنة ٢٠٨ هـ

منزلة في الشعر — : المأثور عن العلماء أن مسلماً وأبا العتاهية وأبانواس

ثلاثتهم هم الذين انتهى اليهم التفوق في الشعر من الطبقة الثانية. وفي تفضيل أحدهم على الآخر خلاف عريض بين علماء النقد . وكل فريق يعيل الى فن من فنون الشعر ، يقدم صاحبه . قال ابن رشيق في العمدة «وسمعت جماعة من العلماء يقولون : كان مسلم بن الوليد نظير أبي نواس وفوقه عند قوم من أهل زمانه في أشياء إلا أن أبا نواس قهره بالبديهة والارتجال مع تقبُّض كان في مسلم واظهار توقر وتصنع . وكان صاحب روية وفكرة ، لا يبتدعه ولا يرتجل . وكان أبو العتاهية فيما يقال أقدر الناس على ارتجال وبديهة لقرب مأخذه وسهولة طريقه » ومن مخض أقوال العلماء وتفهم شعر الثلاثة قضى لأبي نواس عليهما .

ومسلم أول من تكلف البديع في الشعر وجمع أنواعه المعروفة وقتئذ وهي (الجناس والمطابقة والاستعارة) من القرآن الكريم وكلام العرب . واستكثر منها في قوله . وسبقه بشار الى ذلك إلا أنه لم يبلغ شأو مسلم . ولقب مسلم هذا النوع من الشعر بالشعر البديع . وأنكر عليه العلماء . هذا التصنع والتكلف وعدوه إفسادا للشعر واغراقا عن مذهب العرب فيه فيقولون : ان مسلما أول من أفسد الشعر . وتبعه في ذلك أبو تمام الطائي ، ثم الشعراء بعده حتى انتهى السبق فيه الى ابن المعتز

وفي شعر مسلم يقول اسحاق الموصلي ، وقد حكاه الفضل بن يحيى بين منصور النمرى وبينه « انه مزج كلام البدويين بكلام الحضريين ، فضمنه المعاني اللطيفة ، وكساه الألفاظ الطريقة فله جزالة البدويين ، ورقة الحضريين »

فقال الفضل: وصفت والله فأحسنت وأوتيت الحكم
ولمسلم قصائد طنانة في أكثر فنون الشعر ومقطعات جميلة وأبيات سائرة
تجدها في ديوانه المطبوع في ليدن والهند ومصر
واجتمع أصحاب المأمون عنده يوما فأفاضوا في ذكر الشعر والشعراء
فقال بعضهم أين أنت يا أمير المؤمنين من مسلم بن الوليد حيث يقول؟ قال:
ماذا قال. قال: حيث يقول وقد رثى رجلا

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر ذل على القبر
وهجا رجلا بقبح الوجه والأخلاق. فقال:

قُبِحَتْ مناظره فحين خَبَرته حَسُنَتْ مناظره لقبح المخبر

ومدح رجلا بالشجاعة فقال

يجود بالنفس ان ضنَّ الجودُ بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وتغازل فقال

هوى يجِدُّ وحبيب ياب أنت لقي^(١) بينهما معذب

فقال المأمون هذا أشعر من خضتم اليوم في ذكره

ولمسلم مهاجاة ومناقضة مع الحكيم بن قنبر ظهر فيها ابن قنبر، واستكان
له مسلم. ثم وبخه قومه فحى وأحى عليه بالهجاء. وتعرضا للعصية فهجا ابن قنبر
الأنصار. وهجا مسلم مضر. واسترسل حتى هجا قرشا وأخش. وأصلح
بينهما رؤساء اليمانية والمضرية بعد أن ظهر مسلم عليه

ومن هجاء مسلم لدِ عِبل الخزاعي قوله وهو فيما يقال أهجى كلام المحدثين

أما الهجاء فدقَّ عرْضك دونه والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليقُ عرضك انه عرض عززت به وأنت ذليل

ومن كلامه في المدح

وردن رواق الفضل فضل بن خالد فخط الثناء الجزل نائله الجزلُ
بكف أبي العباس يُستمطر الغنى وتُستنزل النعمى ويُستعرف النصل
ويُستعطف الأمر الأبي بحزمه اذا الأمر لم يعطفه تقض ولاقتل

ومن شعره في وصف البحر والسفينة قوله من قصيدة وقد ركب الفرات الى

مدوح (وهو من أبداع ما قيل في ذلك) قال

وملتطم الأمواج يرمى عبابه بجرّجرة^(١) الأذى للعبر فالعبر
مطعمّة حيتانه ما يُغيبها^(٢) ما كل زاد من غريق ومن كسر
اذا اعتقت^(٣) فيه الجنوب تكفّات^(٤) جواريه أوقامت مع الريح لا تجرى
كأن مدبّ الموج في جنباتها مدبّ الصبا بين الوعاث^(٥) من العفر
كشفت أهاويل الدجي عن مهوله^(٦) بجارية محمولة حامل بكر^(٧)
لطمتُ بمخديها الحباب^(٨) فأصبحت موقفة^(٩) الدأيات مرثومة النحر

(١) الجرّجرة صوت الماء والاذي الموج والعبر حافة النهر (٢) ما يغيبها النهر واضل الغب أن تشرب الابل يوما وتدع يوما فهذا النهر لا يفعل ذلك بل يطعمها كل يوم لكثرة الفرقى فيه (٣) اضطربت واستدارت (٤) انكفّات وانقلبت (٥) الرمال الدقيقة اللينة والعفر الكشبان الحمر (٦) هوله (٧) يريد أنها لم تتركب قبل هذه المرة (٨) الموج (٩) الموقعة المخططة والدأيات جمع دأية وهي الظهر أو الجوانب وأصلها

اذا أقبلت راعت بَقْنَةَ قَرْهَب (١) وان أدبرت راقت بقادَمَتِي نَسْر (٢)
 تَجَانِي (٣) بِهَا النَوْتِي حَتَّى كَأَنَّهَا يسير من الاشفاق في جبل وعر
 تَخَلَّج (٤) عَنْ وَجْهِ الْحَبَابِ كَمَا تَنْت من كسر ستر الى ستر
 أَطَلَّتْ بِمَجْدَافِينَ يَتَوَرَّانَهَا (٦) وقومها كبح اللجام من اللدبر (٧)
 فحامت (٨) قليلا ثم مرت كأنها عقاب تدار من هواء الى وكر
 أناف (٩) بهاديبها ومد زمامها شديد علاج الكف معتمل الظهر
 اذا ما عصت أرخى الجرب (١٠) لرأسها فلكم اعصابها وهي لا تدرى
 كأن الصبا تحكي بها حين واجهت نسيم الصبامشي العروس الى الخدر
 يمينا بها (١١) ليل التمام لاربع فجات لست قد بقين من الشهر
 فما بلغت حتى الطلاح خفيها (١٢) وحتى أنت لون اللحاء من القشر
 وحتى علاها الموج في جنباتها بأردية من نسج طحلبيه الخضر
 رمت بالكري أهوالها عن عيونهم فبات أهوايل السرى بهم تسرى
 توئم محل الراغبين وحيث لا تذاذ اذا حلت به أرحل السفر
 ركنا اليه البحر في مؤخراته (١٣) فأوفت بنا من بعد بحر الى بحر

للماشية. والمرثومة الداية في وجهها بياض (١) رأس ثور وحشي (٢) يريد بها المجذافين .
 (٣) أي تنحى بها الملاح عن الحشف وهي الحجارة تحت الماء قريب سطحه
 (٤) تنحى عن وجه الحباب حيث يكون الصخر قرب الماء (٥) أي جارية منجثة
 (٦) يتداولانها (٧) أراد به سكانها ويسمى أيضا رجل السفينة وذنبها ويسمى بلسان
 ملاحى العراق (الاشباطة) (٨) استدارت (٩) أي أشرف بمنقها (١٠) الحبل
 (١١) أي قصدناها ليل التمام لاربع عشرة مضت من الشهر فبانت الممدوح لست ليلال قد
 بقين منه (١٢) أي الاغنياء ملازمها صارت في لون اللحاء (١٣) أي أواخر أبان ركوبه

ومن كلامه في ذم الدنيا
 دلت على عيبها الدنيا وصدقها ما استرجع الدهر مما كان أعطاني
 ولما احتضرت نظر الى نخلة لم يكن بجرجان غيرها فقال
 ألا يا نخلة بالسفح من أكناف جرجان
 ألا انى وايك بجرجان غريبان

﴿ أبو العتاهية ﴾

هو أبو اسحق اسمعيل بن القاسم بن سُوَيْد بن كيسان مولى عنزة أطبع
 أهل زمانه شعرا وأسملهم لفظا وأسرعهم بديهة وارتجالا وأول من فتح للشعراء
 باب الوعظ والزهد والحكمة والإمثال
 أصل جده كيسان من عين التمر^(١) ثم انتقل أباه إلى الكوفة فولد أبو
 العتاهية بها سنة ١٣٠ ونشأ في صناعة أهله ، وكانوا باعة جرار إلا أنه ربا بنفسه
 عن صناعتهم وقال الشعر في صباه وامتزج بلحمه ودمه وخف على طبعه وزنه
 حتى صار كما قال عن نفسه لو شئت أن أجعل كلامي كله شعرا موزونا لفعلت
 فذاع صيته في الكوفة والحيرة وسلك طريق خلعاء أهل الكوفة ثم قدم بغداد
 ومدح المهدي ونفق عنده . وتعرف ببعض خدمه وجواريه فعشق منهم فتاة
 تسمى عتبة وكانت أمة لريطة بنت العباس بن السفاح أو للخيزران فهتف
 بها وأكثر من غزله بها فأراد المهدي أن يستوهبها من سيدتها له فاستغاثت

(١) قرية قرب الانبار غرب الكوفة

به الجارية والسيدة . فكان المهدي يلهيه عن ذكرها بالمال الكثير ، فيقبل المال ولا يفتر عن ذكرها في شعره حتى في مدائح له . والمهدي يحتمل ذلك منه على مريض رجاء استصلاحه وابقاءه على شاعر عظيم من شعراء بيت الخلافة . ثم لها عنها بعض الشيء ودرس كثيرا من مذاهب المتكلمين والشيعة والجبيرية والزهاد فكان يأخذ بكل وقتا ثم ينصرف عنه حتى اختار له من كل ذلك عقيدة مختلطة أفضت به الى العبادة والزهد في الدنيا قولاً ومعيشة على افراط في حب المال وجمع له وبخل به وتقتير على الاهل والولد والخدم ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغزل وقصر قوله على التزهيد في الدنيا والتذكير بالموت وأهواله وهو في خلال ذلك يمدح الخليفة وملوك الدولة . ثم عرضت له حالة امتنع فيها عن قول الشعر بته . فاراده الرشيد على أن يقول شعرا اقترحه عليه ، فرده رداً أغضبه فأمر بحبسه . ثم رضى بقول الشعر فشفع له فاطلق وأقبل على عادته فيه وترك الغزل والمجاء وبقي على ذلك مدة الرشيد والامين وأكثر أيام المأمون ولم تتضع منزلته عند الخلفاء والملوك حتى مات سنة ٢١١ ببغداد

عقبرته ومزجه — يتبع مجال العذر لمن كان يقول ان أبا العتاهبة معتل العقيدة لا اضطرابه في الآراء وتلونه في النحل . فقد كان خليعاً ماجناً مفككاً عاشقاً مدحاً ثم صار عابداً ناسكاً . ولو وقف عند هذا الحد لكان من عداد عباد زمانه كشقيق الباجي والفضيل بن عياض وابراهيم بن يسار وابراهيم

ابن أدهم لكنه كان يحب المال جاجا ، ويفعل به يده عن أهله وخدمه وهو مع هذا يتردد بين مذاهب المعتزلة والجبرية والشيعة وغيرها

والدارس لحياة الرجل المتبع لآثار شعره يرى أن الرجل كان مضطرب المزاج مبلبل الخاطر به (كما كانوا يقولون) دخلة من السوداء فلم يكن تقشفه وتمخضه اصطناعا وتكلفا والا لظهر عليه مرة بين حساده ومنافسيه فقد غير أكثر حياته يلبس غليظ الكرباس أو خشن الصوف والشعر ، بل ربما غلا ولبس قوصرين يثقب احداهما ويخرج منها رأسه ويديه و يقيمها مقام القميص ويثقب الاخرى ويخرج منها رجله و يقيمها مقام السراويل ويكتفى بخبز الشعير ويأتمم بالخل والكامنخ واذا قرم اجتزا بالراءوس . وكان يحج كل عام مرة . والله في خلقه شؤون

منزله في الشعر — : يعد أبو العتاهية ثالث أبي نواس ومسلم وكثير

من معاصريهم يفضله عليهما غير أن لكل بابه هو فيها نسيج وحده فتذهب أبي العتاهية في التزهيد ووصف الدنيا لم يسبقه اليه سابق بل هو مخترع هذا المذهب في الشعر ، ويمتاز فوق ذلك بانه أسرع الثلاثة بديهة وأكثهم قولا وأسهبهم لفظا وأطبعهم شعرا الا أن أبا نواس يفضلهم بساوكه في شعر كل مذهب

ومن قوله في عتبة

عيني على عتبة منهلة بدمعها المنسكب السائل

يا من رأى قبلى قتيلا بكى من شدة الوجد على القاتل
 بسطت كفى نحوكم سائلا ماذا تردون على السائل
 ان لم تديلوه فقولوا له قولا جميلا بدل النائل
 أو كنتم العام على عسرة منه فمنوه الى قابل

وجلس المهدي للشعراء يوما فأذن لهم وفيهم بشار وأشجع وأبو العتاهية . فلما
 سمع بشار كلامه قال لأشجع يا أخا سليم أهذا ذلك الكوفي الملقب قال نعم
 قال لاجزى الله خيرا من جمعنا معه . ثم قال المهدي لأبي العتاهية أنشد
 فأنشده قصيدته التي أولها

ألا ما لسيدتي ما لها أدلاً فأحمل إدلالها
 والا فقيم تجنت وما جنيت سقى الله أطلالها

واستمر في انشادها فاسترد لها بشار حتى أتى على قوله

أنته الخلافة منقادة اليه تجرر أذيالها
 فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
 ولو رامها أحد غيره لزلت الأرض زلزالها
 ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها
 وإن الخليفة من بغض لا اليه ليغض من قالها

فقال بشار لأشجع وقد اهتز طربا أترى الخليفة لم يطر عن فراشه طربا لما
 يأتي به هذا الكوفي

ومن حكمه وأمثاله مزدوجته التي ضمنها أربعة آلاف مثل ومنها

حسبك مما تبغيه القوت ما أ كثر القوت لمن يموت
هي المقادير فاعنى أو فذر ان كنت أخطأت فما أخطأ القدر

ومنها

ان الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أى مفسدة

ومن قوله الذى يناقضه فعله

اذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذى هو مالكة

ألا انما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركة

اذا كنت ذاهال فبادر به الذى يحق والا استهلكته مهالكه

وشعره فى وصف الدنيا والاغترار بها والتزهيد فيها كثير فى ديوانه الذى
طبع بالشام فراجعه ان شئت

أبو تمام

هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائى أسبق ثلاثة الشعراء الذين سارت

بذكرهم الركبان ، وخلد شعرهم الزمان ، ثانيهم البحتري وثالثهم المتنبي .

والمعروف فى نسبه أنه عربى طائى ولد سنة ١٩٠ هـ بقرية جاسم من

أعمال دمشق من أبوين فقيرين . ونقل صغيرا الى مصر فنشأ بها واشتغل

بمن حقيرة ثم كان يسقى الماء بالجرّة فى جامع عمرو بالقسطاط . والظاهر أن

طول مقامه بالمسجد بين أئمة اللغة والفقه والحديث حجب اليه العلم والأدب

فتعلم العربية وحفظ ما لا يحصى من شعر العرب . قيل انه كان يحفظ أربعة

عشر ألف أرجوزة للعرب غير المقاطيع والقصائد .

ولما أينعت ثمار أدبه عرف أن مصر لا تنهض باذاعة فضله وتحقيق أممه
فخرج الى مقر الخلافة . فمدح المعتصم وحظى عنده ، ومدح وزيره محمد بن الزيات ،
والحسن بن وهب ومحمد بن حميد الطوسي والأفشين . ورحل الى كبار العمال
بمالكهم كعبد الله بن طاهر بنخراسان وأبي دلف العجلي ببلاد الكرج وأرمينية
ومدحهم بالقصائد الخالدة ، وقربوه منهم الى حد الصداقة والاخاء فرغبوا به
عن التكسب بالشعر فولاه الحسن بن وهب صاحب الرسائل في زمن المعتصم
بريد الموصل فأقام بها أقل من سنتين وتوفي بها سنة ٢٢١ هـ

ورثاه الوزراء ورؤساء الدواوين كابن الزيات والحسن بن وهب ومات

عن إحدى وثلاثين سنة

صفاته — : كان أبو تمام أسمر طويلا فصيحاً حلوا الكلام فيه تتممة

يسيرة وكان حاضر الذهن سريع الجواب قلما عرف من أهل زمانه في حدة
الخطاطر ولطافة الحس مثله . حكى أنه لما مدح أحمد بن المعتصم بقصيدته السينية
وانتهى فيها الى قوله

أقدامُ عمرو^(١) في سماحة حاتم^(٢) في حلم أحنف^(٣) في ذكاء اياس^(٤)

قال له أبو يوسف يعقوب المكندي الفيلسوف وكان حاضرا (الأ مير فوق

(١) هو عمر بن معد يكرب الزبيدي (٢) هو حاتم الطائي المشهور بالكرم (٣) هو
الاحنف بن قيس سيد تميم وأحلمها (٤) هو اياس بن معاوية المزني قاضي البصرة للمعري
عبد العزيز وأزكى أهل زمانه وأصدقهم فراسة

من وصفت فاطرق مليا) وقال
لا ننكروا ضربى له من دونه
فالله قد ضرب الاقل انوره
مثلا شرودا فى الندى والباس
مثلا من المشكاة والنبراس
ولما أخذت القصيدة من يده لم يجدوا فيها هذين البيتين فعجبوا من سرعته
وفطنته ولما خرج قال الفيلسوف هذا الفتى يموت قريبا فكان كما قال
ولما قصد أبو تمام عبد الله بن طاهر بخراسان وامتدحه بالقصيدة التي أولها
﴿ هن عوادي يوسف وصواحيه ﴾ أنكر عليه أبو العمائل وقال له :
لم لا تقول ما يفهم؟ فقال له : لم لا تفهم ما يقال؟ فاستحسن منه هذا الجواب على
البدئية .

منزلته فى الشعر - بعد أبو تمام رأس الطبقة الثالثة من المحدثين انتهت اليه
معانى المتقدمين والمتأخرين وظهر والدنيا قدملت بترجمة علوم الاوائل وحكمتها
من اليونان والفرس والهند فحصف عقله ولطف خياله بالاطلاع عليها، واستخرج
من جملة ذلك طريقته التي آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فكان
أول من أكثر من الحكم والأمثال والاستدلال بالأدلة العقلية والكنائيات
الخفية لكثرة لوازمها ولو افضى الى التعقيد أحيانا . ولما رأى أن قد فاتته سلامة
اللفظ وحسن ديباجته أراد ان يجبر الكسر بانتحاء طريقة بشار ومسلم وأبي نواس
فى الجناس والمطابقة والاستعارة فسلم له بعضها ، واعتل عليه بعضها ، فأتى
من الجناس بما التاث به شعرة ، وصار كالكلف فى صفحة البدر ، ومع هذا
قد سلم له من كلامه جملة لم يحجم حولها شاعر سابق ، وأعجزت عن محاكاتها كل

لاحق ، لما حوته من عيون المعاني المبتكرة . وصيغت فيه من الألفاظ الرائعة ، وضمته من الأمثال والحكم التي زادت في ثروة الأدب العربي ، ومهدت لمن خلفه طرقا لم تكن لولاه مُعَبَّدَةً ومنها سلك المتنبي وأبو العلاء وغيرهما إلى حكمهم وأمثالهم . ولغلبة الحكمة عليه قيل ان أبا تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحرى

ولم يرزق أحد السعادة في شعره وتناول الناس له نقدا وشرحا واستشهادا به مثل أبي تمام والبحترى والمتنبي . وقد نال أبو تمام هذه الشهرة الذائعة ، وأثر عنه هذا الشعر الكثير ، ولم تزد سنة على ٣١ عاما فكيف به لو عُمر .

وأجاد أبو تمام القول في كل فن من فنون الشعر . أما مراثيه فلم يتعلق بها خاطر أحد جاش صدره بشعر . وأشهرها القصيدة المشهورة التي رثى بها محمد ابن حميد الطوسي وأولها .

كذافا لي جبل الخطب وليفدح الأمرُ فليس لعين لم يفيض ماؤها عنذرُ
ومن قصائده المشهورة قصيدته التي هنا بها المعتصم بفتح عمورية وأولها .

السيف أصدق أنباء من الكتب في خده الحد بين الجد واللعب
وله من قصيدة يمدح بها الحسن بن رجا

لاتنكرى عطال الكريم من الغنى فالسبيل حُرْبٌ للمكان العالي
وتنظري (١) خَبَبَ الرَّكَّابِ (٢) ينصها (٣) محني القريض الى تميت المال

(١) أي تأتي (٢) الركاب الابل يرخل عليها (٣) نص ناقته استخرج أقصى ما عندها من السير

ومن قوله في الحجاب

يا أيها الملكُ النأي برؤيته وجوده لُزاعى جُوده كُتبُ
ليس الحجابُ بمقص عنك لي أملا أن السماء تُرَجى حين تَحْتَجِبُ

وقوله

فلو صوّرت نفسك لم تزد لها على ما فيك من كرم الطباع

وله ديوان شعر مشهور مطبوع في مصر وغيرها مرارا

ومن تأليفه ديوان الحماسة الذي اختاره من كلام العرب فدل على حسن اختياره وسلامة ذوقه وله مجموع آخر سماه فحول الشعراء جمع فيه مختار شعر الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وغيرها من الكتب

دِ عِ بِلُ الخِزَاعِي

هو أبو علي دعبيل بن علي بن رزّين الخِزَاعِي أحد الشعراء المطبوعين

والشيعة المغالين والهجائين المفحشين

مَمْسُوه — : ولد دعبيل سنة ١٤٨ هـ من بيت معروف في خِزَاعَة

بالفصاحة والشعر ونشأ بالكوفة فسلك في صغره مسلك الشطار ، وتعرض لأموال الناس ، فجنى جناية خرج بسببها فارا من وجه السلطان تتقاذفه البلدان مدة أعوام عرف في خلالها كثيرا من أهل العلم والأدب . ثم انقطع الى مسلم بن الوليد الشاعر المشهور يخدمه ويتخرج عليه في الشعر . قال عن نفسه « ما زلت أقول الشعر وأعرضه على مسلم فيقول لي : ا كتم هذا حتى قلت

أين الشبابُ وأيةَ سلكا لا ! أين يطلب ؟ ضل بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكي
يا ليت شعري كيف يومكما يا صاحبي إذا دمي سُفِكا
لا تأخذوا بظلامتي أحدا قلبي وطرفي في دمي اشتركا

فلما أنشدته هذه القصيدة قال اذهب فإظهر شعرك كيف شئت لمن شئت .
وقد كانت نظرتة فيه صادقة . فما اشتهرت هذه الأبيات وغنى بها المغنون
في حضرة الرشيد حتى طرب منها ، وسأل عن قائلها . فأخبر به فأرسل اليه
من ساعته عشرة آلاف درهم وخلعة من ثيابه ومركباً من مرا كبه مع خادم
من خاصته واستدعاه اليه . فحضر وقر به وأجرى عليه رزقا سنيا . فكان أول
من حرّضه على قول الشعر . ولكن غلوه في الرفض وانكاره على الرشيد
ما كان يتناول به العلويين من الحبس والأذى أنساه معروفه . فهجاه عند
موته واسترسل في هجاء الخلفاء من بعده وهجاء وزرائهم وكتابهم وقوادهم
وعمالهم . بل هجا أشراف قبيلته وذوى قرابته . فلم يسلم من هجائه ذو نباهة
ولا كبير أحسن اليه أو لم يحسن . ولما لم يكفه هجاء الافراد تعصب لليمانية على
النزارية ، فعارض الكميت بقصيدة قحطانية هجا بها نزارا ربيعته ومضرها .
ونصّب له في ذلك كثير من شعراء المضرية لارد عليه ، وكان من أشدهم عليه
أبو سعد الخزومي ، ولكن لسان دعبل سلقه وهتكه فخافت الخزومية من
معرته فنفته وتبرأت من نسبه فانكسر بعدها

وعمر دعبل طويلا ، فأدرك الرشيد والأمين والمأمون والمعتمد والواثق

والمتوكل وكلهم هجاءم وهجا وزراءهم
ولذلك عاش أكثر عمره طريدا مشردا فاذا أطلق له خليفة أمانا ظهر،
وجهر بشعره، وانتجع الولاة، ومدحهم وهجاءهم. ومن هؤلاء المطلب بن
عبد الله الخزاعي عامل مصر مدحه بقصيدة رائعة يقول فيها

أبعد مصر وبعد مطلب ترجو الغنى ان ذامن العجب

ان كاثرونا جئنا بأسرته أو واحدونا جئنا بمطاب

فولاه أسوان. ثم هجاه بقصيدة منها

وعاديت قوما فما ضرهم وقدمت قوما فلم ينبأوا

فنزله فعاد الى عادته. وكان يقال له: أنت أجرأ الناس باقداك على هجاء
ال خلفاء. فيقول: أنا أحمل خشيتي على كتفي منذ خمسين سنة، لست أجد
أحدا يصليني عليها.

وما زال هذا دأبه حتى مات في إحدى خرجاته بقرب السوس من كور
الأهواز. قيل دس عليه مالك بن طوق فاتكا يغتاله فلقيه بعد صلاة العتمة
وضرب ظهر قدمه بعكاز لها زج مسموم فمات من غد سنة ٢٤٦ هـ

عقيرته ومزهبه — : كان دعبل من غلاة الرافضة ولعل لنشأته في

الكوفة أثرا في ذلك اذ كان جل أهلها شيعة

ولم يسلم من لسانه غير العلويين، وقصر مدحه الجيد عليهم وعلى رئسهم
ونذب قتلهم، وكان يعد ذلك من العبادة والقربى الى الله، وكان ممن مدحه
منهم على بن موسى الرضا وأنشده قصيدته التي منها

مدارس ابات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات
فأمر له بعشرة آلاف درهم مما ضرب باسمه ، ووهب له جبة من ثيابه
ليجعلها في كفنه . فاغتصبها منه الشيعة وأعطوه بدلها ثلاثين ألف درهم فلم
يرض حتى أعطوه فردكم من بطانتها . وأعداه تخرجه على مسلم بعدوى
التعصب لليمانية

منزلة في الشعر — : كان دعبل في منزلة أبي تمام عند كثير من
أهل الأدب . ولولا لوثة في طباعه وعقله وكفران منه لنعمة من أحسن اليه
لكان على تعبيره واحد عصره كثرة شعر وجودة قول . وسمع الجاحظ يقول
سمعت دعبل بن علي يقول :

« مكثت نحو ستين سنة ليس من يوم ذر شارقه إلا وأنا أقول فيه
شعرا » وباد هذا الشعر الكثير اذ لم يكن في روايته واستنساخه إلا الاثم
والحرج الى الخوف من السلطان والرؤساء المهجوين . وبقى منه تنف سارت
مسير الأمثال ، فلم يغلب عليها سلطان . والرأى الظاهر فيه انه في طبقة علي
ابن الجهم وديك الجن .

ومن هجائه في المأمون قوله

أيسومني المأمون خُطةَ جاهل أو ما رأى بالامس رأى محمد
انى من القوم الذين سيوفهم قلت أخاك وشرفك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خمولة واستنقذك من الحضيض الاوهد

فبلغ من حلم المأمون انه لما سمع هذه الايات لم يزد على ان قال : قبح الله

دعبلا فما أوقحه ! ومتى كنت خاملا وقد ولدت في حجر الخلافة ورضعت
ثديها وربيت في مهدها . وقيل انه اغضى عليها بعد ما بلغه هجاؤه في ابراهيم
ابن المهدي بقواه

نعر ابن شكلة بالعراق وأهله فهفا اليه كل أخرق مائق
أنى يكون ولا يكون ولم يكن يرث الخلافة فاسق عن فاسق
ان كان ابراهيم مضطلعا بها فتصلحن من بعده لمخارق

ويقال أيضا انه لما سمعها ضحك ، وقال قد صفحت عن كل ماهجاني اذ قرن
ابراهيم بمخارق في الخلافة وولاه عهده . ثم كتب له أمانا فأقبل اليه ، وحظى
عنده . ولم يلبث أن رجع الى طبعه وهجاه . وقيل له ان دعبلا قد هجاك فقال
وأى عجب في هذا؟ هو يهجو أبا عباد كاتبى ولا يهجونى أنا ! ومن أقدم على
جنون أبى عباد أقدم على حلمى

وكان يعجب المأمون قوله في وصف سفر

ألم يأن للسفر الذين تحملوا الى وطن قبل الممات رجوع
فقت ولم أملك سوابق عبدة نطقن بما ضمت عليه ضلوع
تبين فكم دار تفرق شملها وشمل شتيت عاد وهو جميع
طوال الليالى صرفهن كما ترى لكل أناس جديدة وريع

ومن أشرف قواه في الحماسة وجرى فيه على مذهب البدو قوله

بانة سُليمة وأمسى حبلها انقبضا وزودوك ولم يرثوا لك الوصبا
قالت سُلامة أين المال قلت لها المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا

الحمد فرَّق مالى فى الجفون فما أبقين ذمًا ولا أبقين لى نَسبًا
 قالت سلامة دع هذى اللبون لنا لصيبة مثل أفراخ القطا زُغبًا
 قلت احبسها فيها مُتعة لهمُ ان لم يُنسخ طارقُ يبغي القرى سغبًا
 لما احتبى الضيف واعتلت حلوبتها بكى العيال وغنت قدرنا طربًا
 هذى سبيلي وهذا فاعلمى خلقي فارضى به أوفكونى بعض من غضبا
 ما لا يفوت وما قد فات مطلبه فلن يفوتنى الرزق الذى كُتبًا
 أسعى لأطلبه والرزق يطابني والرزق أ كثر لى منى له طلبًا
 هل أنت واجد شىء لو عنيت به كالأجر والحمد مُرتادًا ومكنسبا
 قوم جوادهم فردٌ وفارسهم فردٌ وشاعرهم فردٌ اذ نُسبا (١)

البحرئ

هو أبو عبادة الوليد بن عبید الطائى الصميم الشاعر المطبوع وأشهر من
 استحق لقب شاعر على الاطلاق بعد أبى نواس

منسؤه — : ولد سنة ٢٠٦ هـ بناحية منبج (بين حلب والفرات)
 فى قبائل طى وغيرها من البدو الضاربين فى شواطئ الفرات ، ونشأ بينهم
 فغلبت عليه فصاحة العرب . وابتعد عن مذاهب الحضريين وتعمقهم وفلسفتهم ،
 فكان شعره كله حسن الديباجة صقيل اللفظ سلس الاسلوب ، كأنه سيل
 ينحدر الى الاسماع .

(١) هكذا ورد فى أمالى القالى والظاهر أن قبل البيت الاخير أيا ناسقت من الرواية

ولقي البحترى وهو فتى أبا تمام ، فأسمعه شعره فأعجب به وأحبه وكان
 طائيا مثله . فلزمه البحترى ، وعليه تخرج ، واقتبس طريقته في البديع . وكان
 البحترى يفضل أبا تمام على نفسه ، ويقول والله ما أكلت الخبز الا به ، وكان
 اذا سئل عن نفسه وعنه قال : أن جيد أبي تمام خير من جيدى ، وردني خير
 من رديته . وخرج البحترى للعراق . وأقام في خدمة المتوكل والفتح بن
 خاقان وله عندهما الحرمة التامة . وكان معهما في المجلس الذي قلا فيه فرجع
 بعدئذ الى منبج يختلف أحيانا الى رؤساء بغداد وسر من رأى حتى مات
 سنة ٢٨٤ هـ

صفات وأهم رقه — : كان البحترى على فضله وفصاحته ورقة كلامه
 وبديع خياله من أوسخ خلق الله ثوبا وأداة وأبخلهم على كل شئ . وكان
 من أبغض خلق الله أنشادا يتشادق ، ويتزاور في مشيه مرة جانبا ومرة
 القهقري ، ويهز رأسه مرة ، ومنكبيه أخرى ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل
 بيت ، ويقول : أحسنتُ والله ! ثم يقبل على المستمعين ويقول : ما لكم
 لا تقولون : أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله ! فعَل ذلك مرة
 أمام المتوكل ، وكان في المتوكل عبت ودُعابة . فأغرى به أبا العنابس فهجاه
 على البديهة بقصيدة هزلية على روى القصيدة التي يمدح بها المتوكل . فخرج
 البحترى غضبا من المجلس ، والمتوكل يضحك عليه

منزلته في الشعر — : يكاد يكون من المجمع عليه انه لم يأت بعد

البحترى من هو أطبع منه على الشعر العربي ولا أبداع منه للخيال الشعري
قال له يوما أبو تمام : أنت والله يا بني أمير الشعراء غدا بعدى
وفيه يقول أبو الفرج الأصبهاني : « وكان مشايخنا رحمة الله عليهم
يحتمون به الشعراء وله تصرف حسن فاضل نقي في ضروب الشعر سوى المهجاء
فان بضاعته فيه نزره وجيده فيه قليل »

ولسهولة شعر البحترى ورقته كان أكثر الأصوات التي يتغنى بها في
زمنه من شعره ومن أحسن قوله في المدح
ذنوت تواضعا وعلوت مجدا فشانك انحدار وارتفاع
كذلك الشمس بعد أن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

قال الثعالي

ومن أظرف شعره وأرقه وألطفه قوله - وكان أبو بكر الخوارزمي يقول
لا تنشدوينهما فأرقص طربا وما أقبح الرقص بالمشايخ
يدكرنيك والذكري عناء مشابه فيك طيبة الشكول
نسيمُ الروض في ربح شمال وصوبُ المزن في راح شمّول
ومن قوله فيمن يرضى بعد السخط وفي نفسه بقية من العتب
تبليج عن بعض الرضى وانطوى على بقية عتب شارفت أن تصرّما
وقوله في سرى الليل وطلوع الفجر
ولقد سريت مع الكواكب راكبا أعجازها بعزيمة كالكوكب
والليل في لون الغراب كأنه هو في حلوكته وان لم ينعب

والعيس تنصل من دجاه كما انجلى
 حتى تبدى الفجر عن جنباته
 صبغ الخضاب عن القذال الاشيب
 كالماء يلمع من خلال الطحلب
 والبحتري ديوان شعر كبير طبع في جزأين بالاستانة وغيرها
 وله ديوان حماسة جارى فيه أبا تمام وطبع بالشام وله كتاب معانى الشعر

على بن الجهم

هو أبو الحسن على بن الجهم القرشى السامى (١) أحد الشعراء المجيدين
 نشأ بخراسان وانتقل منها الى العراق فسكن بغداد ونزل دجيل وكان من
 أطبع الناس على الشعر الجيد اتصل بالمتوكل وشايعه في النصب وكرهه على
 وآله رضى الله عنهم . فاخص بالمتوكل وعد من خاصته وجلسائه ، ولكنه
 كان تاما واشيا بالناس كثير الكذب . فظهر المتوكل أمره ، وبلغه أنه هجاه ،
 فسجنه ثم نفاه الى خراسان سنة ٢٣٢ هـ ليُعذبه طاهر بن عبد الله بن طاهر
 ابن الحسين وأمره أن يصلبه نهارا كاملا الى الليل فصلبه ثم أنزله فقال في
 ذلك قصيدة مشهورة منها

لم ينصبوا بالشا فرياح عشية ١١
 نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم
 إننين مسبوقا ولا مجهولا (٢)
 شرفا وملء صدورهم تبجيلا
 ما ازداد إلا رفعة بنكوله (٣)
 وازدادت الأعداء عنه نكولا (٤)

(١) نسبة الى سامة بن اوى بطن من قريش (٢) محلة كانت بنيسابور خربت بعدها
 (٣) جمع نكل بالكسر وهو القيد (٤) مصدر نكل عنه نكص وجبن

هل كان الا الليث فارق غيله فرأيتَه في مَحْمَلِ مَحْمُولَا
 ما عابه أن بُز عنه ثوبه فالسيف أهول ما يرى مسلولا
 ان يبتذل فالبدر لا يذرى به ان كان ليلة تمه مبدولا
 أو يسلبوه المال يُحزِنُ فقدُه ضيقا ألم وطارقا ونزيلا
 وله قصيدة طنانة في نفي عار السجن قالها في سجنه لم يُصنع مثلها في بابها وأولها
 قالوا حبست فقلت ليس بضائري حبسى وأى مهند لا يغمد
 وهى مذكورة في كتاب الأغاني فراجعها هى وبقية أخباره فيه ان شئت . واليه
 تنسب القصيدة المشهورة التى أولها

عيون المهايين الرصافة والجسر جابن الهوى من حيث ندرى ولا ندرى
 ولما شاع في بغداد مذهبه في الانحراف عن على وآله واتهامه برأى الحشوية
 وسوء وقيعته في كل أحد صديقاله أو عدوًا تحاماه الناس . فخرج الى الشام
 في قافلة فخرج عليها اعراب من كلب ، ففر أصحابه وثبت هو وقاتل قتالا
 شديدا حتى تراجع الناس وهزموا الأعراب . ثم عاودهم الأعراب من الغد
 فأسرت اليهم المقاتلة وخرج معهم فأصابته طعنة حمل منها ودمه يُنزف
 وبات ليلته بأشد القلق ولما أحس بالموت جعل يقول

أزِيدَ في الليل ليلُ أم سال بالصبح سيلُ
 ذكرتُ أهل دجيل وأين منى دجيل

فأبكى كل من كان بالقافلة . ومات مع السحر ودفن على مرحلة من حلب .
 ولما نزلت ثيابه بعد موته وجدت فيها رقعة قد كتب فيها

وارحمتا للغريب بالبلد النا زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا
وكان قتله سنة ٢٤٩ هـ عن نحو سبعين سنة . وله ديوان شعر صغير

ابن الرومي

هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج الرومي مولى بني العباس الشاعر
المكثّر المطبوع صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب والمعاني المخترعة
والأهّاجي المقذعة

ولد ببغداد سنة ٢٢١ هـ وبها نشأ وأقام كل حياته نبغ في الشعر نبوغا
لم يقصر به عن درجة البحترى . وربما فاق عليه في اختراع المعاني النادرة أو
توليدها من معاني من سبقه بشكل جديد ووضعها في أحسن قالب ، ولكنه
كان يكثر القول في مطولاته فيسقط منها الكثير . وكان البحترى يحذف
فضول مطولاته بعد نظمها فلا يُبقى منها إلا العيون . ولولا ما كان في ابن
الرومي من الوسوسة وشدة الطيرة وتناول الاشراف بالهجاء المقذع لعد في
صف البحترى على أن من الناس من يفضله عليه وعلى أبي تمام ، لأنه جمع
بين صقال اللفظ واجادة المعنى . ويكفيه فضلا أن يكون المتنبي أحد رواة
شعره والآخذين عنه . وكان كثير التطير جدا وله فيه أخبار غريبة . وكان
أصحابه يعبثون به فيرسلون اليه من تطير من اسمه ، فلا يخرج من بيته ، ويمتنع
من التصرف سائر يومه

ومن معانيه البديعة قوله

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يُقَدَّرْ فيه بُعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه

(وهو كان ممن يطيل). وكرر هذا المعنى بأوجه كثيرة في شعره وكان إذا اخترع المعنى أو ولده من كلام غيره لا يزال يستقصى فيه حتى لا يدع فيه بقية

وقيل له لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه فقال للأئمة
أنشدني شيئاً من قوله الذي استعجزتني عن مثله فأنشده في الهلال
انظر اليه كزورقٍ من فضة قد أثقلته حمولةً من عنبر
فقال: زدني. فأنشده قوله في الآذريون وهو زهر أصفر في وسطه خجل
أسود ، وليس بطيب الرائحة والفرس تعظمه بالنظر اليه وفرشه في المنزل
كأن آذريونها والشمس فيه كاليه
مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه

فصاح واغوثاه ! تالله لا يكلف الله نفسا الا وسعها . ذلك انما يصف ماعون
بيته ، لانه ابن خليفة . وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن أنظروا اذا وصفت
مأعرف أين يقع قولي من الناس ! هل لاحد قط مثل قولي في قوس الغمام^(١)
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا على الجود كنا والحواشي على الارض

(١) روى صاحب اليتيمة هذه الايات لسيف الدولة بن حمدان . وأكثرهم على أنها لابن الرومي

يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر أثر مبيض
 كأذيال خوذ أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض
 وقولى فى صانع الرقاق

مأنس لآانس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل الملح بالبصر
 ما بين رؤيتها فى كفه كُرَّة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
 ألا بمقدار ماتنداح دائرة فى لجة الماء يلقي فيه بالحجر

وذ كر تشبيها آخر

ومن قوله

ان كنت من جهل حقى غير معتذر وكنت عن رد مدحى غير منقلب
 فاعطنى ثمن الطرس الذى كتبت فيه القصيدة أو كفارة الكذب

وقال فى بغداد وقد غاب عنها فى بعض أسفاره

بلد صحبت به الشيبية والصبا ولبست ثوب اللهو وهو جديد
 فاذا تمثل فى الضمير رأيت وعليه أغصان الشباب تميد

وكان الوزير القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتز يخاف
 هجوه وقلبات لسانه ، فدى عليه من أطعمه خُشْكَنَانَة (١) مسمومة ، فلما
 أكلها أحس بالسم ، فقام . فقال له الوزير : الى أين تذهب ؟ فقال الى
 الموضع الذى بعثت بي اليه . فقال له سلم على والدى ! فقال ليس طريقى على

(١) نوع من الكمك ممالج بالسكر وهو ما يسمى الآن (بسكويت) والكلمة

النار ! وخرج من منزله وأتى منزله وأقام أياما ومات . وكان الطيب يتردد
إليه ويعالجه . فزعم أنه غلط في بعض العقاقير . قال نفطويه النحوي : رأيت
ابن الرومي وهو يجود بنفسه . فقلت ما حالك ؟ فأشدد

غلط الطيب على غلطة مُورد عجزت موارد عن الاصدار
والناس يلحون الطيب وانما غلط الطيب اصابة الاقدار

وتوفي سنة ٢٨٣ ببغداد

وله ديوان شعر كبير وتوجد منه نسخة في دار الكتب العربية الخديوية
في جزأين كبيرين

ابن المعتز

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله بن أمير المؤمنين محمد المعتز بالله
ابن أمير المؤمنين المتوكل صاحب النظم البديع والنثر الفائق وأشعر بني
هاشم وأول من صنف في صنعة الشعر ووضع كتاب البديع وأبرع الناس
في الاوصاف والتشبيهات

ولد سنة ٢٤٩ في بيت الخلافة وتربى تربية الملوك وشغف من صغره
بالعربية والادب وأخذ عن المبرد وثلعب ومؤدبه أحمد بن سعيد الدمشقي
وغيرهم . ولم يكن علم بعرفه أئمة عصره أو فلاسفة دهره الا مهر فيه ، أو ألم به
حتى هابه وزراء الدولة وشيوخ كتابها . ولذلك عملوا على الا يقلدوه الخلافة
على حسن كفايته وأظلاله بالامر خشية أن يكف أيديهم عن الاستبداد

بالمالك ، ويكبح جماح قواد الأتراك الذين يعيشون وراء السوء على غفاتهم
 وخرقهم . ولولا لمقتدر صبيا . فاستولى الأتراك والخصيان وجواري التصر على
 أزمة الامور مدة سنين حدثت بعدها فتن عظيمة فتسرع محمد بن داود بن
 الجراح وكان من أفاضل الكتاب . فجمع العلماء والكتاب والقضاة وخلعوا
 المقتدر ، وذهبوا الى عبد الله بن المعتز ، وبايعوه بالخلافة على غير طلب منه ،
 ولقب المنتصف

وكان لا يزال مع المقتدر في دار الخلافة جملة من الغلمان (ممالك
 الحرب) فلما رأوا أن الامر كاد يخرج من أيديهم تحمسوا وحملوا حملة رجل
 واحد على الدار التي فيها ابن المعتز ، وقتلوا أصحابه ، فانهزموا . وقبض على
 المعتز وبعض متابعيه ، فخنق من ليلته ، وسلم الى أهله . فدفن في خربة
 بجوار داره سنة ٢٩٦ ورثه على بن محمد بن بسام بقوله

لله درك من ملك بمضيعة ناهيك في العقل والآداب والحسب
 ما فيه لو ولا ليت فتنقصه وانما أدركته حرفة الادب

منزلة في الشعر — : كان ابن المعتز فوق ما ذكرناه من أوصافه
 آتفا سهل العبارة ، كثير مراعاة البديع في قوله ، مع رشاقة وقلة تكلف وتصنع
 ولما كان مقامه يجلب عن الاكتساب بالشعر . قل فن المدح في كلامه الا في
 أهل بيته من الخلفاء

وزاد في الإوصاف الطبيعية والتشبيهات البديعة ، ووصف مجالس

الانس ومراسلة الاخوان ودعوتهم ، ووصف الصيد وكلابه وبواشقه وفهوده
والقلم والقرطاس ونحو ذلك

والتأمل في شعره يعرف فيه نضرة النعيم وترف الملك ورقة الخيال
ولطف الوجدان . فمن ابتداءاته الجميلة قوله

أخذت من شبابي الأيام وتولى الصبا عليه السلام
وارعوى باطلي فبان حديث الدنفس منى وعفت الاحلام

وقوله

ما المغاني من بعدهم بالمغاني فليكن شأنك البكاء وشاني
امتحنى ربهم وكان جديدا ونأى منهم الذي كان داني
ما مررنا على لوى فيه نغم مذ مررنا على لوى نعيان

ومن شعره قوله

تفتد مساقط لحظ المريب فان العيون وجوه القلوب
وطالع بوادره في الكلام فانك تجنى ثمار الغيوب

وقوله

من لي بقلب صيغ من صخرة في جسد من لؤلؤ رطب
جرحت خدي به بلحظي فإبرحت حتى اقتص من قلبي

وقوله في الضيف

ياطارقا في الدجى وانليل منبسط على البلاد بهم ثابت الدغم
طرقت باب غنى طابت موارده وناثلا كأنهم مال العارض السجم

حِكْمُ الضيُوفِ بِهَذَا الرَّبِيعِ أَنْفَذُ مَنْ حِكْمُ الْخِلَائِفِ آبَائِي عَلَى الْأُمَمِ
فَكُلُّ مَا فِيهِ مَبْدُولٌ لَطَارِقُهُ وَلَا زِمَامٌ لَهُ إِلَّا عَلَى الْحُرْمِ

وقوله

أَهْلًا بِنَظَرٍ قَدْ أَنْارَ هَلَالُهُ فَلَا أَنْ فَاغْدُ عَلَى الشَّرَابِ وَبِكَرٍ
وَانظُرْ إِلَيْهِ كَزُورِقٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حَمُولَةٌ مِنْ عَنَابِرِ

وقوله

انظُرْ إِلَى حَسَنِ هَلَالِ بَدَا يَهْتِكُ مِنْ أَنْوَارِهِ الْحِنْدِيسَا
كَنَجَلٍ قَدْ صَيَّغَ مِنْ فِضَّةٍ يَحْصِدُ مِنْ زَهْرِ الدَّجَى نَرْجِسَا

وقوله

وَأَسِيمٌ يَبْشُرُ الْأَرْضَ بِالْقَطْرِ رَ كَذِيلِ الْغَالِاتَةِ (١) الْمَبْلُولِ
وَوَجْوهُ الْبِلَادِ تَنْتَظِرُ الْغِيَا مَثَ انْتِظَارِ الْحَبْرِ رَجَعَ الرَّسُولِ

ويعد ابن المعتز من أفضل المترسلين وأكبر المصنفين ، ولولا أنه تعرض له من حيث أنه شاعر لأتينا على بعض كتبه وفصوله التي سار بعضها سير الأمثال .

وديون شعره طبع في مصر في جزأين . وله من التصانيف كتاب الزهر والرياض وكتاب البديع وكتاب مكاتبات الإخوان بالشعر وكتاب الخوارج والصيد وكتاب السرقات وكتاب أشعار الملوك وكتاب الآداب وكتاب حلى الأخبار وكتاب طبقات الشعراء وكتاب الجامع في الغذاء وكتاب أرجوزته

في ذم الصبوح

(١) هي الشعار الذي يلبس تحت الثياب مما يلي الجسد

الرواية والرواة

كانت العرب أمة أمية لم تخط آدابها وعلومها وآثار حياتها الفكرية في كتاب . وإنما كانت تحفظ ذلك في صدورها ، ويرويه بعضها عن بعض ، حتى جاء الاسلام فأتى بالأمر الخطير من القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه . فأتسع نطاق الرواية ، واختص كل فريق من الناس برواية شيء ، فمنهم من انقطع لرواية القراءات ، ومنهم من انقطع لرواية الحديث ، ومنهم من انقطع لرواية العربية والشعر والأخبار ، ومنهم من انقطع لرواية أخبار الفتوح والسير وغير ذلك ، حتى دوت الكتب في عصر الدولة العباسية ، فأفرغ الرواة ما حفظوه في هذه الكتب خوفاً عليه من الضياع . فكان عصرهم الأول عصر جمع وتدوين ، حتى جمعت كل هذه العلوم في بطون الكتب . فأخذ أمر الرواية يضمحل شيئاً فشيئاً في أكثر العلوم لاسيما الأدب . ثم اقتصر في الرواية على تصحيح النطق والأداء ، فيقرأ التلميذ على الشيخ القرآن أو الحديث أو اللغة أو الشعر وهو يجيز له أداءها كما سمع

وكانت الرواية الشغل الشاغل للعلماء في صدر الدولة العباسية لاهتمام الأمة بها وبذل الخلفاء المعونة لأربابها . فاندس بين الرواة كثير من الوضاعين ، فأدخلوا كثيراً من الرواية المكذوبة في الحديث وغيره . واضطر العلماء الى البحث عن تمحيص الصحيح ، فعنوا شديداً العناية بتاريخ الرجال ومراتب

الأخذ عنهم ، وميزوا ما أمكن تمييزه من الموضوع .
ولكل علم رواية مشهورون . وقد سبق الكلام على رواية العلوم والفنون
في تاريخ وضعها . ونزيد هنا من ذكر بعض رواية الادب اذ كان هو غاية
درسنا .

فن رواية الأدب والشعر خاصة حماد الرواية الكوفي وخلف الأحمر
البصرى وأبو عمرو الشيباني الكوفي والسكري البغدادي . ومن رواية الادب
بجميع فنونه لغة وشعرا وأخبارا أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة معمر بن المثنى
والأصمعي وأبو زيد الأنصاري وأبو عبيد القاسم بن سلام ومحمد بن سلام
الجمحي وغيرهم . ونذكر على سبيل الاختصار ترجمة أشهرهم في الرواية وهو
الأصمعي فنقول

الأصمعي

هو زينة الاسلام وحسنة الأيام وفخر العرب وشيخ رواية الأدب الامام
الثبت الحجة الثقة التقى أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب بن عبد الملك بن علي
ابن أصمعي الباهلي المضرى البصرى . نسب الى جده أصمعي . وولد
سنة ١٢٣ هـ من بيت عربى قديم العهد فى الكتابة منذ عثمان .

نشأ بالبصرة فأخذ العربية والحديث والقراءة عن أئمة البصرة . كآبى
عمرو وشعبة والحمادين وابن عون وعيسى بن عمرو وأبى الخطاب الأحمش
الأكبر ويونس والخليل وأخذ عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يفدون

البصرة . وأكثر الخروج الى البادية . وشافه الأعراب وساكنهم ، وربما استغرقت بعض رحلاته سنوات يحج في أثنائها ويلتقى بالفصحاء في المواسم . حتى اجتمع له من الأخبار والنوادر والغريب ما لم يجتمع لغيره . وتعلم من خلف الأحمر نقد الشعر ومعانيه . وكان أحفظ أهل زمانه حتى قال مرة : انى أحفظ اثني عشر ألف أرجوزة . فقال له رجل : منها البيت والبيتان . فقال : ومنها المائة والمائتان . وراجت بضاعة الأصمعي عند الرشيد ، وأخذ جوائزه الكثيرة . ورزق الأصمعي السعادة في روايته الأخبار والملح دون أهل زمانه . قهافت الناس على نقلها في كتبهم لرضاهم عن مذهبه وتسفته . وكان يحجم عن تفسير القرآن الكريم والحديث تحرجا وخوفا من الزلل ، وكان الأصمعي مع كل صفاته الحسنة بنجيلا مخشوشنا . وعمر حتى أدرك زمن المأمون ، وأراد المأمون أن يقدمه اليه فاعتذر بكبر السن ومات سنة ٢١٦ هـ

الدُّعَايُ وَالْمَغَنَى

لما اتسعت حضارة العرب بأرثهم تراث الأمم المتحضرة قبلهم وتقلبهم في نعمتهم أخذوا بما أخذهم من الترف والتمتع بالملاذ ، وكان من أجمل دواعي ذلك وأرقها الغناء ، ولكنهم لم يسترسلوا فيه دفعة بل تخرجوا فيه وتأثموا منه ابتداء . ومقتوا كل غناء في خلافة معاوية وصدر بنى أمية . ثم رخصوا فيه قليلا ، حتى جاء الوليد بن يزيد . فخلع فيه العذار ، وأقدم المغنين اليه ، وأثابهم عليه بدر الاموال . وبقي أمر الغناء بعده في تزايد حتى جاءت الدولة العباسية

فامتنع أوائلهم عن سماعه ، ثم ترخص فيه المهدي والهادي ، حتى انتهى الأمر فيه الى زمن الرشيد فعشش وأفرخ ، وكان للمغنين في عصره حظ من جوائزهم وهباته لم يكن اغيبرهم . وعظم أدرهم ، ونبغ منهم فيه عدة طاولوا العلماء في الأدب والعلم ، فشرّف بهم قنهم . وصار في عداد فنون الادب ، ولم تأنف الخلفاء وأولادهم عن تعلمه وحذقه . وبقى كذلك مدة قرنين من عصرهم ثم اضمحل أمره بالتدريج

واستمد العرب غناءهم من موالى الفرس . ثم تفتنوا فيه ، واخترعوا فيه نفعا كثيرا . وأشهر من نبغ في عصر بني أمية منهم معبد وابن سريج والغريص . وفي عصر بني العباس ابرهيم الموصلى واسحق ابنه واسماعيل بن جامع ومخارق وابرهيم بن المهدي وكثيرون

وألف فيه الخليل واسحق وابرهيم بن المهدي وجحظة البرمكي كتابا حافلة واستقصوا فيه الفن من قواعد النغم واخبار المغنين والشعراء فحذف أبو الفرج الأصبهاني من كتبهم ما يتعلق بقواعد الفن إلا قليلا . وألف كتابه الشهير في مائة الصوت التي اختيرت للرشيد وهذبت في زمن الواثق ، وذكر فيه الأصوات وقائلها ومغنيها بما لا مزيد عليه .

ابرهيم الموصلى وابنه اسحق

فأما الاول فهو أبو اسحق ابرهيم النديم بن ماهان (ويسمى ميمونا)

ابن بهمن الموصلى

وأصله فارسي انتقل أبوه من أَرَجَان إلى الكوفة ، فولد له ابرهيم بها ومات وهو صغير ، فزباه بعض بني تميم بالكوفة . فنشأ فيهم ، واشتهر بالموصلي وهو ليس من أهلها ، لأنه أقام بها مدة يتعلم بعض الأَحناء ثم قدم بغداد واتصل بخدمة المهدي والهادي والرشيدي حتى مات ببغداد سنة ١٨٨ هـ بعد ان ملأ بغداد طربا وسرورا .

وكان ابرهيم أول من ألف من أنغام الامم المختلفة طريقة تناسب الأغانى العربية كل المناسبة ، وجودها وهذبا حتى صار نادرة زمانه . وانتهت اليه الرياسة في التابعين . وكان اذا غنى وضرب منصور المعروف بزَزل اهتز لها المجلس

وكان ابرهيم فوق شهرته بالغناء شاعرا أدبيا ، يلم بكل شئ مستملح

اسحق الموصلي

وأما اسحق فهو أبو محمد اسحق بن ابرهيم المغني الضارب الشاعر الأديب الراوية اللغوي الفقيه المحدث المستحق ان يقال فيه هيات ان يأتي الزمان بمثله ان الزمان بمثله لبخيل ولد سنة ١٥٠ هـ ورباه أبوه تربية لم تتفق لأحد قبله ولا بعده ، أخذه بتعليم العربية من اللغة والنحو والشعر والأخبار والنوادر وسير الخلفاء وملوك العجم وعلوم الدين من الفقه والحديث ، حتى كاد يحسب من أمتها ثم وفره على تعلم اللحن والغناء ، وبذل في ذلك عناية . فخرج واحد

الذي نيا فيهما ، وأرنبى على أبيه ، واخترع كثيرا من الألحان ، واختص بالخلقاء .
وحظى عندهم وحملت اليه الألوف من أموالهم . فخدم الرشيد والأمين
والمأمون والمعتصم والواثق

وكان له مع ابرهيم بن المهدي مناقضات ومنافسات في تلحين الاصوات
كان يظهر الموصلى في أكثرها عليه مع توقيره وتكريمه
وكان المأمون يقول لولا ما سبق لاسحق على السنة الناس ، واشتهر بالغناء
لوليته القضاء

وكان الغناء أقل ما يعرفه . واشتهر به لأنه لم يكن له نظير فيه . وله شعر
رقيق ، فراجعوه ان شئت في الأغاني
ومن مطالعه قوله

هل الى ان تمام عيني سبيل ان عهدى بالنوم عهد طويل
وله كتاب الأغاني جمع فيه الأصوات المعروفة في زمنه وأخبار الشعراء
والندمان . وعفى في آخر عمره ومات سنة ٢٣٥ هـ



العصر الثاني

من عصرى آداب اللغة العربية فى الدولة العباسية

وقوف التقدم فى بلاغة اللغة وآدابها واستمراره فى العلوم والتأليف

غلبة الديلم على بغداد وانقسام الدولة العباسية الى ممالك

سنة ٣٣٤ هـ - ٦٥٦ هـ

كانت اللغة العربية ضاربة بجرائها غالبية على السنة أم المشرق والمغرب
مدة ارتفاع شأن الدولة العباسية ونموذ سلطان خلالها . وذلك يقرب من
قرنين . وهو ما سميناه العصر الأول من زمن الدولة العباسية ، وهو زمن التقدم
والانتشار . ثم ضعفت شوكة الخلفاء ، بضرب مماليتهم من الترك على أيديهم
وتداخلهم فى تدبير الدولة وسياستها مع جهلهم وخرقهم ، فاضطرت المملكة .
ورأى كل ذى قدرة أن الأمر خرج من يد الخلفاء ، فاستبد بناحية مع
الاعتراف للخليفة بالخلافة . وتبجح من هؤلاء المستبدين آل بويه فخرجوا
على الخلفاء وأخذوا بلاد فارس والجزيرة ، ثم استولوا على بغداد سنة ٣٣٤
ورتبوا للخليفة مرتبا يكفيه لقوته وأهل بيته ، وصاروا هم فى الحقيقة ، بولك بغداد .
ولما رأى ذلك بقية الولاة والقواد أو هنوا صلتهم ببغداد ، وأنشؤا ممالك
مستقلة . فكان فى شرقى خراسان دولة آل ساسان بخارى ، ثم ملوك الغزنوية
بغزنة ، و بفارس والجل جمة أمارات لآل بويه ، وببغداد وشرقى الجزيرة

متغلب منهم ، وبغربي الجزيرة وحلب آل حمدان ، وبالشام ومصر آل
 الاخشيد ثم الفاطميون . ثم ضعف شأن آل بويه والملوك الغزنوية وحل
 محلهم آل سلجوق ، واتسعت ممالكهم واشتق منها عدة ممالك وأمارات من
 أحفادهم ومماليكهم وقوادهم كالدولة الخوارزمية بالشرق والأرتقية بالجزيرة
 والأتابكية وغيرها بالجزيرة والشام ، حتى جرف سيل التار الجميع خلا فلسطين
 ومصر ، ودخل طاغيتهم هولاكو بغداد ، وقتل الخليفة المستعصم سنة ٦٥٦
 وبذلك زال سلطان العرب من المشرق زوالا امتد الى عصرنا هذا

ولما كانت هذه الممالك كلها أعجمية خلا دولة آل حمدان بحلب
 والفاطمين بمصر ، وكان لغلب العناصر الأعجمية تأثير في الجملة في حالة
 اللغة العربية وآدابها ، ناسب ان نقسم كلامنا في هذا العصر الى قسمين

(١) حالة اللغة العربية وآدابها في الممالك المشرقية

(٢) حالة اللغة العربية وآدابها في ممالك المغربية . غير ان البحث في
 أحوال اللغة ببعض ممالك المغرب كالاندلس وشمال افريقية من مقرر السنة
 الرابعة .

١١) حالة اللغة والآداب بالشرق

فتح العرب أواسط آسيا وورثوا فيها ملك دولة عريقة في تقدم ذات
 حضارة راسخة ونظام موثقل واعدة منتشرة ودين مديد وعصبية للجنس ، هي

(١) نريد بالشرق هنا البلاد التي شرقي دجلة الى الهند والصين والترك ويضاف اليها العراق

دولة الفرس . وكل هذه الأمور قوى عظيمة يقاوم بها المغلوب سلطان الغالب عليه القاهر له ، وتحملُ الغالب أن يعمل بحذق ودأب على اتحاد هذه القوى المعنوية فوق اتحادها القوي الحسية

ولذلك كان أواسط آسيا مجال نضال دائم بين الفرس والعرب ، فقد حاول الفرس استعادة ملكهم بجميع هذه القوى . وابتدءوا بالقوة الأولى الطبيعية وهي قوة السيف ، فخابت تجربتهم مرارا ، وأصبح النزاع بين الأمتين قاصرا على مغالبة كل منهما للأخرى بما عندها من هذه القوى المعنوية . ولتانة دين الاسلام وعظمة اللغة العربية غلبت العرب أيضا بدينها وانبتها فُنسخت المجوسية وأُسحت آداب اللغة الفارسية ، وما بقي منها نقل الى العربية ، وامتزجت حضارتا الأمتين فلم تعودا موضع نزاع . وبقيت العصبية الجنسية والحمية الوطنية رغم كل هذه الحوادث راسخة في رؤوس دهاة الفرس وسلائل ملوكهم ، يتوارثونها خلفا عن سلف ، حتى اذا فترت عصبية العرب بالمشرق ، وبادت عناصرها فيه ، أو اندغمت لقلتها في العناصر الوطنية بالتزاوج والتناسل هبوا ينشئون ممالك وأمارات وطنية على أديم مملكتهم القديمة . ولكن عملهم جاء متأخرا جدا ، فما استعادوا بعض ملكهم حتى وجدوا الاسلام قد نسخ دينهم ، والعربية هضمت علومهم وآدابهم بما لا يمكن مقاومته بحال من الأحوال . فلم يسعهم إلا أن يخضعوا للخليفة الشرعي الواجب طاعته واستمداد الحكم منه وشرعوا في تجديد آدابهم بلغتهم ونقل علوم الاسلام اليها ، فنجحوا في الأولى بعض النجاح ، وأخفقوا في الثانية ، إذ كان ذلك يستدعي وضع كثير من

الاصطلاحات والرجوع الى الاحاطة بلغة قديمة كانت قد نسيت أو كادت ،
 وخلفتها عامية لا تمض بمثل هذا العمل العظيم ، فضلا عن أن علوم الاسلام
 مستمدة من القرآن والحديث ، وهما في قمة اللسان العربي ، وان الرابطة بينهم
 يربين الخليفة وبقية الممالك الاسلامية لا تكون إلا باللسان العربي
 ولذلك لم تجد هذه الممالك المستقلة بدءاً من اتخاذ العربية لغة الدين
 والعلم والأدب والسياسة دهرًا طويلاً وزادها في ذلك رغبةً استيلاءً أكثرها
 على مقر الخلافة ومنازعة الخليفة السلطة فيها وغلبتها على بعض البلاد العربية
 كالعراق والجزيرة . وطاول ملوكها الخلفاء في كل شيء من تعلم العلم والأدب
 والفصاحة ، ونافسوهم في اقتناء الكتب وتقريب العلماء اليهم ونفجهم بالمال
 العظيم واتخاذ الوزراء ورؤساء الدواوين من عليّة الكتاب وفحول البلغاء .
 وقصارى القول ان العربية بقيت غالبية على أكثر مرافق هذه الدول
 إلا السنة العامة كما سيأتي بيانه

التغيرات الطارئة على اللغة في هذا العصر بممالك المغرب

ترجع هذه التغيرات

(أولاً) الى مباح سلطتها ومواطن تداولها وعدد المتكلمين بها

(ثانياً) الى الاغراض التي كانت تتناولها وتتسع لها

(ثالثاً) الى المعاني الفكرية والخيالية والوجدانية التي كانت تخاطر للبلغاء

والعلماء العارفين بها

(رابعاً) الى الالفاظ والعبارة والاسلوب .

فأما الامر الاول (وهو مبانغ سلطة اللغة وامتدادها) فقد تقلص سلطانها في أرجاء القاصية ، وقل عدد المتكلمين بها من العامة والدهماء بجلاء العناصر العربية منها أو اندماجها في غيرها ، بحيث لم يمض قرن من هذا العصر حتى كانت اللغات الوطنية الاعجمية لشعوب المشرق هي اللغات المتداولة في التفاهم والتعامل . و بقيت العربية الفصحى مستعملة في رسوم الدول وفي تفاهم الخواص في بعض الاحوال ، إذ كان جل ملوك المشرق وقتئذ يجيدون العربية والفارسية ولسانهم الوطني ان لم يكونوا فرسا ، ويلمّون بأداب العرب والفرس ، بل كان كثير منهم شعراء بالعربية والفارسية . وكانت الآداب الفارسية تلى العربية عندهم في المنزلة والكرامة . وحاول كثير من ملوك المشرق ولا سيما ملوك القاصية كالسامانية والغزنوية أن يستعيدوا مجد اللسان الفارسي ، وينقلوا اليه علوم الاسلام والعلوم التي نقلت اليه فعز عليهم ذلك . وغاية ما أمكن علماءهم وشعراءهم احياء شئ من الادب والتاريخ ، اذ لم يكن بهما حاجة شديدة الى الاوضاع العربية واصطلاحها ، كما فعل ذلك الامير أبو الحسن نصر الساماني أمير بخارى وخراسان ، فانه أمر أحد علماء عصره فنقل كتاب كيلة ودمنة الى فارسية زمانه ، ونظمه شاعره رودكي حسن بالفارسية أيضا ، وكذلك أمر بهرام شاه بن مسعود الغزنوي أبا المعالي نصر الله ابن محمد بن عبد الحميد بنقل هذا الكتاب الى الفارسية من نسخة ابن المقفع نفسها ، فأغرب فيها وتنوق ، فجدد الترجمة بعده المولى حسن الكاشفي

سهيلى وسماها أنوار السهيلى

وأمر نوح بن منصور السامانى شاعره الدقيقى بنظم الشاهنامه فى تاريخ
الفرس ومفاخرهم وأيامهم ومبلغ عظمتهم . فنظم شيئاً منها وقتل ، وأهمل أمرها
وزالت دولتهم . ومن الغريب ان السلطان محمود الغزنوى التركى بذل جهده
فى انمامها ، فنظمها له الفردوسى فى ستين ألف بيت ابتعد فيها عن الالفاظ
العربية كل الابتعاد . وهى عندهم قرآن اللغة الفارسية فى الفصاحة . وهكذا
كان ملوك المشرق من غير الفرس كالذولة الغزنوية والسلاجوقية أشد عصبية
وانتصارا للفارسية من أهلها ، ولعلمهم كانوا يتحجبون بذلك الى رعاياهم ، اذ
كان جلهم من الفرس ، والتركية يومئذ ليست لغة علم ولا أدب . فما زالت
سلاجوقية المشرق وملوك خوارزم يعملون على احياء الفارسية وآدابها ونقل
العلوم اليها حتى أوشكت تزاخم العربية قبيل غارة التتار ،

فلما خرج هؤلاء من صحراء المغول اكتسح سيلاهم فى طريقه أثر العربية
وهاض الاسلام الى ما به ، وأحرقوا الكتب ، وقتلوا العلماء فكان ذلك آخر
العهد بامتداد سلطان العربية السياسى بالمشرق ، وبقي لها بعض السلطة الدينية
والعلمية بين العلماء خاصة حتى عصرنا هذا

وأما الامر الثانى (وهو أغراضها) فقد بقيت كما كانت فى أواخر القرن
الماضى أكثر من نصف قرن مدة عظمة الدولة البوذية والسامانية أوزادت
اذ كانت الاولى منهما تدخل فى حوزة بعض ملوكها بغداد والعراق وأكثر
الجزيرة وهى بلاد عربية . والثانية تدخل فى حوزتها بخارى ومدن خراسان

العظيمة ، وكانت آهلة بأهل العلم . وكانت ملوك هاتين الدولتين يباهى بعضهم بعضا بتعصيد العلم وترغيب العلماء والادباء والمؤلفين والاطباء وكل ذى براءة في صناعة في خدمتهم نفاسة على خلفاء بغداد ومصر ان تستأثروا بمنقبة تُرغَّب فيهم أهل الفضل فوق منقبة النسب

ولما خفت صوت هاتين الدولتين في المشرق ، وورثتهما الغزنوية والسلاجورية وهما تركيتان متصبغتان بصبغة الفرس ، وكان أمر خلفاء بغداد ومصر قد هان ووهن وأحس الرعايا من الفرس والترك باستقلال جنسهم ورفع يدي خلفاء الغرب عن السيطرة عليهم وتولى زعامتهم السياسية والدينية ، فشت بالتدرج العصبية الجنسية بين هذه الامم بسعى الملوك وأهل السياسة المتعصبين ، فتناقضت أغراض اللغة العربية وموضوعاتها في الآداب ، وزادت في العلوم ، اذ كانت الاولى في غير حاجة الى مواضعة واصطلاح ، والثانية لا تستقل بها لغة الا بعد مداورة ومواضعة وعناء كثير عدة قرون .

فنشأ في هذه المدة كثير من شعراء الفرس وأدبائهم نظموا القصائد الطنانة والمقطعات الجميلة بلغتهم ، وثنّوا بترجمة كثير من كتب الآداب والحكمة والاخلاق بلغتهم وخاصة ما كان منها فارسى الاصل .

وزادت موضوعات العلوم على العصر الماضى علوم السياسة والعمران وتدير الممالك والمنازل والاقتصاد وفنون الحرب وآلاته ، وتعددت رحلات العلماء والسّياح فكتبوا كثيرا من أخبار المسالك والممالك ، وفره بذلك علماء الجغرافيا والتاريخ ، وشرحت العلوم الدخيلة وفصلت وكملت ، وأضيف اليها

كثير من استنتاج علماء المسلمين ، وتألفت شوارد الكيمياء وصارت علما متميزا ،
فتقدم بهذه الاعمال العظيمة الطب والفلك وعلوم الحكمة والكلام والمنطق
وألفت فيها كتب كثيرة ، وكان للفارابي وابن سينا والرازي في أواخر العصر
الماضي وأوائل هذا العصر أبقى أثر في ذلك كما سيأتي بيانه

أما العلوم اللسانية والشرعية فلم يحدث فيهما وضع جديد الا تكملة بعض
الفروع واختلاف في المذاهب وكان أوفرها نصيبا من عناية الباحثين علما البلاغة
لا المعاني والبيان ، فقد صاروا علمين مستقلين في هذا العصر باجتهاد عبدالقاهر
الجرجاني والسككاكي ولزمخشري . وتفرعت مباحث علم الاصول والتفسير
والخلاصه أن حظ العلم في الممالك المشرقيه بعد القرن الاول من هذا
العصر كان أعظم من حظ الادب ، لان العلوم صناعات ذات أثر عملي سريع
في تقدم الممالك واستيفاء عدتها ومرافقتها ، فكانت أولى بالعناية والتأييد ،
ويضعف في هذه العناية قيام كثير من دول المشرق في آن واحد أو في
أزمان متتاليه ، وكل دولة جديدة تحتاج في تأييد حضارتها وملاكمها الى اصطناع
أهل الذكر في العلوم الصناعيه .

أما الآداب فأثارها نفسيه تكفي في بثها لغة الوطن ، بل ربما فضلت
غيرها فيه .

ولولا بسطه الاسلام ونشر لوائه وعلومه وقرآنه على هذه الارحاء
للحقت لغة العلوم بالحق لغة الادب .

وأما الامر الثالث (وهو المعاني الفكرية والخيالية وغيرها) فقد بقيت كما كانت عليه في العصر الأول مطردة في طريق النظام والترتيب والاختراع والتوليد في كل شئ علما وأدبا أكثر من نصف قرن لنضج بقية ما غرس في العصر الماضي ، ولتنافس الممالك المشعبة في الاختصاص بالعلماء والأدباء ، ولينع العلوم اللسانية والشرعية والعقلية (من العلم الرياغي والطبيعي والالهي والمنطق) والعلوم العمرانية (من التاريخ والجغرافيا والسياسة وتدبير المنزل والاقتصاد) مما كان له أبلغ تأثير في ترقية الفكر والخيال والوجدان ورقة معاني اللغة في مبدأ هذا العصر ، وجعل لها ميزانا وقياسا يعترف به صحيحها من قاسدها ويستنبط معلومها من مجهولها ، ولما استنبطه مجتهدو المذاهب وابتدعه علماء الكلام والفلاسفة والأطباء كالباقلائي وامام الحرمين والغزالي والفخر الرازي والفارابي وابن سينا وأبي بكر الرازي، وابتدعه المتنبي وأبو العلاء المعري في الشعر واختره ابن العميد والصابي والبديع والحوارزمي والحريري في الكتابة. كل أولئك كان ثمره ذلك الغراس. ثم تقاصرت الهمم في العلوم والأدب وقلت عناية الملوك والرؤساء باستجادتها، وشغل الناس عنها بتفانم البهمن وانتشار الهرج في الشرق الاقصى واغارة الصليبيين بالشرق الادنى، فجمدت جذوة العقول، وفترت حركة الخيال، ووقفت الاستزادة في العلوم بالابتكار والاختراع، واعيا الادباء من الكتاب والشعراء تصور المعاني الفخمة، فأرثوا على من سبقهم في المبالغة الممقوقة، وراقهم زبرج اللفظ حين فاتهم شرف المعنى.

وأما الامر الرابع (وهو لفظ اللغة وأسلوبها) فقد هجر استعمال الغريب

بالتدرج ويزاد استعمال الألفاظ الفارسية في أوائل هذا العصر ثم دخل اللغة كثير من الألفاظ التركية، ونسبت بالتدرج الأساليب البليغة والعبارات الخفيفة، ويزاد استعمال الصناعة اللفظية البديعية، فكان للسجع والطباق والجناس والاستعارة الغلب على كل مقال خطابة وترسلا وشعرا، بل تطرق إلى كتب العلم. وازداد الرسم للالقاب والعنوانات واصطلاح النوم والدواوين ونحو ذلك، وغلب على العلماء استعمال العبارات المنطقية أو الجدلية فاضطروا إلى اختصار البرهانات والأقيسة، واعتاصت عبارة العلم على الناشئين بل على الشداة ولا سيما علوم الكلام والاصول والفلسفة

النثر

لغة التخاطب أو العامية

كانت لغة تخاطب الخاصة من الخلفاء والرؤساء والعلماء وسطا بين الفصيحة وعامية زمانهم لقلّة أخذهم باللغة الفصيحة من صغرهم، إذ كان القيم على الخليفة وأهل بيته من الديلم أو الترك أو النساء وأكثرهن من جواري القصر، ولأن أكثر الرؤساء كان من الأعاجم الذين لم يغلبوا على السلطان إلا بالقوة والاعتصاب لا بعلم ولا حسن تربية. والناس على دين ملوكهم وكانت لغة تخاطب العامية في شرق خراسان وفارس إلى سفي دجلة اللغات الأعجمية الوطنية لهذه الأرجاء، وأهمها الفارسية الحديثة لا تقراض العناصر

العربية من بين العامة باندماجها في غيرها وفشو الجهل فيها المبدأ لكل عصبية
والمنسى لكل منقبة

وقد قصد أبو الطيب المتنبى عضد الدولة بفارس فما هو إلا أن زایل بغداد

حتى وقع في عجمة لا افصاح معها ، فذلك حيث يقول

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنة لوسار فيها سليمان لسار بترجمان

الخطابة

قد أهمل شأن الخطابة منذ أواسط العصر الأول ، وقصرت على خطيب

الجمع والعيدين والنكاح أو قراءة كتب الفتوح والمناشير على الجمهور ، ومع

اضمحلال أمر الخطابة في أواخر العصر الماضي كان كثير من الخلفاء وأفاضل

الولاة يلون خطب الجمعة والعيدين بأنفسهم الى زمن الخليفة الراضي المتوفى

٣٢٩ هـ فكان آخر خليفة خطب كثيراً على منبر وآخر خليفة له شعر يدون

وآخر خليفة جالس العلماء وكان نظامه في ملكه وبيته على نظام الخلفاء

السابقين . فلما استوات الديالم على بغداد بعد موته بقليل كفوا يد الخلفاء عن

كل شيء ، وقصر وهم على منازلهم ، وتولى كثير من الاعاجم الولايات ، فلم يكن

لهم ان يلوا الخطابة بأنفسهم ، فهدوا بها وبالامانة الى العلماء القادرين عليها ،

وجرى على ذلك سلاطين السلجوقية ، ولذلك لم يكن يليها منهم إلا أديباء العلماء

وبلغائهم. واشتهر من هؤلاء كثيرون غلب عليهم اسم الخطيب كخطيب
الري والد الفخر الرازي والخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد والخطيب
التبريزي وغيرهم.

الكتابة

سارت الكتابة على نحو ما وصفنا في العصر الماضي الى قبيل انصرامه ،
فأخذت تنحو بالتدرج منحنى خاصا في كل شئ من تنوع عباراتها بتنوع
موضوعاتها وترسم آثار النظام والتقسيم والتفصيل فيها وترجيح كفة اللفظ على
المعنى ، وذلك بعد ان نضجت العلوم ووضعت اصطلاحاتها وتميزت مسائلها
واخططع بها كثير من ناشئ الاعاجم وقلت المراقبة عليها من العناصر العربية
ساسة وعلماء . اذ كانت العناصر الفارسية شرعت في الاستقلال بحكومتها وعاداتها
ونزعاتها ، فأثر ذلك في الكتابة تأثيرا ظاهرا اشتد أمره باستيلاء الديالم ثم
السلاجقة على ما بقى في يد خلفاء العرب من النفوذ فصار لكل علم كتابة
خاصة تباعدت عن غيرها كلما طال الزمان .

ولما كانت الكتابة الادبية من الرسائل وال اخبار والقصص ماثرا للخيال
ومظهر الحركات الوجدان والشعور ومرآة لما يجيش في الانسان من الرغبة
والميل والاخلاق اختلفت كل الاختلاف بجميع المؤثرات التي أحدثت باللغة .
وما جاء العصر الثاني حتى كان لها صبغة تختلف كل الاختلاف عن صبغتها
في أوائل العصر الماضي وخاصة كتابة الرسائل

كتابة الرسائل

كانت كتابة الرسائل في هذا العصر ببغداد ومدن العراق وممالك المشرق الإسلامية جميعها باللغة العربية الا قليلا من امارات القاصية في اواخر هذا العصر فقد استعملت فيها الفارسية أو التركية بحروف عربية وكان في كل مملكة جملة من افاضل الوزراء والكتاب ورؤساء الدواوين يلقب كل منهم (بالشيخ) في شرقي خراسان وخوارزم و (بالاستاذ) أو (الرئيس) بفارس وما يليها

ومما امتازت به كتابة الرسائل في هذا العصر امتيازها ظاهراً لزوم السجع القصير الفقرات لاسيما الرسائل السلطانية ، واستعمال الجناس وبعض أنواع البديع من غير افراط ، واستخدام معاني الشعر والفاظه فيها بحل الايات السائرة والحكم الماثورة حتى كادت الرسائل تكون شعراً منشوراً . وازدادت فيها عبارات التعظيم والتفخيم للملوك والامراء والتهويل بشأنهم ، والاقْتباس من كلام البلغاء واتضمن الافذاذ من آيات الشعراء . ولا عجب من ذلك اذ كان جميع كتاب دول المشرق الذين اشتهرت على أيديهم هذه الطريقة من الفرس وهم أميل الناس الى الحلية اللفظية والغلو في عبارات التمجيد والتعظيم . فنقلوا طرق الفرس الى العربية ، وحاكاهم فيها كتاب سائر الاقاليم حتى الأندلس وسرت عدواها من الرسائل الديوانية الى كتب التأليف ، فكتب العتيبي تاريخه اليميني سجعاً وحاكاه العماد الكاتب من كتاب دول الجزيرة والشام

في تاريخ . السلجوقية والفتح القدسي كما سيأتي

ومع هذا لم تفت كتابة هؤلاء جزالة اللفظ وانتقاؤه وحسن استعماله في مواضعه وجمال أسلوبه ، غير أن هذه القيود والاعلال التي كبت بها الكتابة عاقبتا أن تمثل للقارئ اغراض الكتاب واضحة جلية كاملة نافذة الى خاطره من أقرب الطرق وأقومها كما هو الشأن الطبيعي في الكتابة ، وتتجلى هذه الطريقة بأكل صفاتها في مقامات بديع الزمان الهمذاني ومقامات الحريري وكانت هذه الطريقة تكون غير منهكة لقوى البلاغة لولم يستشر داؤها ويسوء استعمالها بعد عصر الذين اتحلوها ، اذ لم يكن من بعدهم على مثل سنهم في الاحاطة باللغة وعلومها وتربية ملكتها ، فاختطوا التقليد في اللفظ كما حرموا الإبداع في المعنى

ومما زاد في اسلوب كتابة الرسائل في هذا العصر العدول عن ذكر صريح أئمة الخليفة والرؤساء والقابهم الى الكناية عنها فيكونون عن الخليفة (بالخرقة المقدسة النبوية) أو (السدة النبوية) أو (الخدمة الشريفة) أو (الديوان الشريف) أي ديوان الانشاء ونحو ذلك ويكونون عن الوزراء (بالخرقة الوزيرية) ونحوها ناسبين الى نفس الالقاب . وأول من سن ذلك أبو الحسن علي بن حاجب النعمان الكاتب وشاعت هذه الطريقة بعده في سائر الممالك وازالت بهجة البلاغة العربية

ومن الامور التي زادت على موضوعات كتابة الرسائل في هذا العصر احلالها محل الشعر في المناقضة والمفاخرة والمهاجاة والملاحاة والمعاية وكان

البيديع والخوازمي فيها فرسي رهان

كتاب الرسائل

كان كتاب الدولة البويهية في بغداد وفارس ولواحقها من أفضل كتاب الارض مثل الصابي وابن العميد وابن عباد . ويعد في زمرة هؤلاء بعض من اختلف في التصرف بين الدولة البويهية والسامانية ثم الغزنوية مثل الخوارزمي وبيديع الزمان والعتبي .
ونذكر بعض أخبار هؤلاء الكتاب فنقول

ابن العميد

هو الاستاذ الرئيس الوزير أبو الفضل محمد بن الحسين العميد بن محمد كاتب المشرق وعماد ملك آل بويه وصدر وزراءهم والملقب بالجاحظ الأخير وهو فارسي الاصل من أهل مدينة (قُم) وكان أبوه كاتباً مترسلاً بليغاً تولى ديوان الرسائل لنوح بن نصر الساماني ملك بخارى ونشأ له أبو الفضل شغوفاً بتحصيل العلوم العقلية والاسانية ، فبرع في علوم الحكمة والنجوم ونبغ في الادب والكتابة نبوغاً جعله واحداً عصره . فكان يقال (بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد) ولما صلبت قناته ، وكلت أداته ، لم تدع بخارى له ولا يبه ، فأقام ببلاد الجبل من ملك آل بويه ، وتقلد شريف الاعمال في دولتهم ، وما زال

تترقى به الحال من حسن الى أحسن حتى تولى وزارة ركن الدولة بن بويه
الديلمي أبي عضد الدولة بعد موت وزيره أبي علي القمي سنة ٣٢٨ هـ فساس
دولته ووطد أركانها ، وتشبه بالبرامكة ، ففتح بابها للعلماء والفلاسفة والشعراء
والأدباء ، وكان له مشاركة معهم في كل شيء ، ما عدا الفقه (ولذلك كان
يتهمه الفقهاء بأنه كان يرى رأي الاوائل من اليونان) فانتقل اليماهل الأدب
من بغداد والشام ومصر وكان ممن قصده أبو الطيب المتنبى بعد صدوره
عن كافور الاخشيدى ، فمدح عضد الدولة ومدح ابن العميد بقصيدته
المشورة التي أولها

بادِ هواك صبرت أم لم تصبري وبكك ان لم يجر دمك أوجري
وفيها يقول

مَنْ مَبِغِ الاغرابِ انى بَعَدَها شاهدتُ رَسْطاليسَ وِلا سَكندرا
وَمَلَّيتُ نَحْرَ عَشارِها فَأَضاغِني من يَنحَرُ البِدرَ النُصارَ امانِ قري
وَسَمِيتُ بَطليموسَ دارسَ كَتَبه مَمَلَكًا مَتبِدياً مَتحضرا
وَلَقِيتُ كُلَّ الفاضِلينَ كَأَنما رَدَّ الالهُ نَفوسَهمَ والاعصرا
وكان الضاحي بن عباد ممن ينتجعه ويلازم صحبته في أول أمره و بذلك لقب
الصاحب وله فيه مدائح طنانه

وما زال في وزارته نجمة لرائد وقبلة القاصد حتى توفي سنة ٣٦٠ هـ
منزلة في الكتابة : يعتبر ابن العميد في الرسائل البديعية المسجوعة
عميد رفقة وضابغ حلبة ، وكلهم كارج من حياضه ، قاطف من رياضه ، ان لم يكن

باعتبار منه فبالمشا كمة له . غير أنه كان أقلهم التزاما المسجوع ، وأقربهم الى
انتحال المطبوع . وكان كثيرا ما يجعل فقر رسائله أليانا مشورة ، ويلمح فيها
الى الأمثال المشهورة والأحاديث المأثورة ، حتى انطبعت كتابته على التمثيل
والحكمة ، فكان له منها فصول سائرة ومعان نادرة . ويكفيه فضلا وشرفا أن
يكون الصاحب بن عباد من جملة مآدحيه وفي عداد خريجية

فهر رسائل الى عبد الله الطبري

كتابي اليك وأنا بحال لولم ينغصها الشوق اليك ، ولم يرتق صفوها النزوع
نحوك ، لعددتها من الأحوال الجميلة ، وأعددت حظي منها في النعم الجليلة ،
فقد جمعت فيها بين سلامة عامة ، ونعمة تامة ، وحظيت منها في جسعي
بصلاح ، وفي سعيي بنجاح ، لكن ما بقى أن يصفولي عيش مع بعدى عنك :
ويخلو ذرعى مع خلوى منك ، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادى دونك .
وكيف أطعم في ذلك وأنت جزء من نفسي ، وناظم لشمل أنسى ، وقد
حرمت رؤيتك ، وعدمت مشاهدتك ، وهل تسكن نفس متشعبة ذات
انقسام ، وينفع أنس بيت بلا نظام ، وقد قرأت كتابك جعاني الله فداءك
فامتلات سرورا بملاحظة خطك ، وتأمل تصرفك في لفظك ، وما أقرظهما ،
فكل خصالك مقرظ عندي ، وما أمدحهما ، فكل أمرك ممدوح في ضميري .
وعقدي ، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك . فان كان
كذلك والا فقد غطى هواك وما ألقى على بصري

وله رسائل مطولة جدا يضيق المقام بنا عن ذكر بعضها

الصاحب بن عباد

هو كافي الكفاة أبو القاسم اسمعيل الصاحب بن عباد وزير آل بويه
وكاتبهم واحد المذممين للسمع والجناس بين الناس
ولد سنة ٣٢٦ هـ بطالقان قزوين . وكان أبوه عباد الملقب بالأمين علما
معتزليا دينا خيرا مقديما في صناعة الكتابة . ونشأ على مذهبه ومذهب آل
بويه في التشيع لعلي كرم الله وجهه الى حد الغلو . ولما جرى قلمه بالكتابة
اتصل بابن العميد شابا فلزم صحبته وأخذ الأدب عنه ، ولم يكن يرى رأيه في
اعتقاد مذاهب الأوائل ومزاولة كتب الفلسفة والنجوم ، فولاه ابن العميد
كتابة خاصته . ولما استحصفت صناعته وقويت شكيمته ، ترقّت به الحال
حتى كتب مؤيد الدولة ، وهو يوشذ أمير ، وأحسن خدمته . فلما ولى الملك
استوزره بعد قتل وزيره أبي الفتح بن أبي الفضل بن العميد ، فحكه في
أموره وأمواله حتى مات مؤيد الدولة وولى أخوه فخر الدولة مكانه ، فأقر
الصاحب على وزارته . وبقى مُبْجَلًا عنده نافذ الأمر حتى مات بالرّى سنة
٣٨٥ هـ ونقل الى أصبهان ودفن بها (١)

منزلة في الكتابة - : يعد ابن عباد ثاني ابن العميد في حليته ، وأبلغ

(١) قدمنا ترجمة الصاحب على ترجمة الخوارزمي مع تأخر وفاة الصاحب لما بين ترجمتي
تالوزيرين من التناسب والمشاكلة

من سلك طريقته غير انه أولع بالسجع والجناس، وكان تباها شديد العجب
 بنفسه . ومجلسه آخر مجلس لوزير جمع بين العلماء والقراء والكتاب والمصنفين
 والمتكلمين والشيعة ، وكان لهم منه حظ موفور ، ولسان شكور . وله
 وله جملة مصنفات منها كتاب في اللغة سماه المحيط في سبع مجلدات ،
 وكتاب الأمانة ، وكتاب الكشف ، عن مساوي المتنبي ، وكتاب تاريخ الملك
 واختلاف الدول وكتب أخرى كثيرة .

وله فصل في رسالة بعث بها الى ابن العميد جوابا عن كتابه
 اليه في وصف البحر

وصل كتاب الاستاذ الرئيس صادرا عن شط البحر بوصف ما شاهد
 من عجائبه ، وعين من مرآة كبه ، وزاه من طاعة آلاته للرياح كيف أدارتها ،
 واستجابة أدواتها لها متى نادتها ، وركوب الناس أشباحها ، والخوف برأى
 ومسمع ، والمنون بمرقب ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك ، والأرواح بين نجاة
 ومهلك ، اذا فكر وا في المسكاسب الخطيرة ، هان عليهم الخطر ، واذا لاحت
 غرر المطالب الكثيرة ، حجب اليهم الفرر ، وعرفت ماقاله من تمنيه كوني عند
 ذلك بحضرتة ، وحصولي على مساعدته ، ومن رأى ببحر الاستاذ كيف يزخر
 بالفضل ، وتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم ، لم يعيب على الدهر فيما يقينه من
 منظر البحر ، ولا فضيلة له عندي أعظم من ا كبار الاستاذ لأحواله ، واستظامه
 لأهواله ، كما لا شئ أبلغ في مفاخره ، وأنفس في جواهره ، من وصف الأستاذ
 له ، فاني قرأت منه الماء السلسال لا الززال والسحر الحرام لا الحلال . وقد

علمت انه كتب ولما يخطر بfikره سنة صدره ، فلو فعل ذلك لرأى البحر وشلا
لا يفضل عن التبرُّض ، وممدا لا يكثر عن الترشف
وكم من جبال جئت تشهد انك الـ جبال وبحر شاهدانك البحر

أبو بكر الخوارزمي

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الكاتب الشاعر العالم اللغوي
الأديب النحوي الاخباري ، الرحالة فخر خوارزم وبلغ المشرق وصاحب
الرسائل المشهورة

أصل آبائه من طبرستان ، وولد بخوارزم سنة ٣٢٣ هـ ونشأ بها . وكان بحرا
زاخرا في كل فن من فنون العربية وخاصة الكتابة والشعر ، جاب الأقطار
ودخل الأمصار في طلب العلم والادب ، وتقلب في خدمة كثير من الملوك
والأمراء والوزراء ، ولقى سيف الدولة وخدمه بالشام ، ثم شرّق الى بخارى
ونيسابور وسجستان وغيرها ، حتى وافى الصاحب بن عباد بأصبهان ، فكان
من جملة المحتضين به . ثم ذهب الى عضد الدولة بشيراز ، فصدر عنه بالأموال
الطائلة ، فاستوطن نيسابور ، وأقام بها للأداء والتدريس ، فنكب نكبة سجن
فيها ، وفر الى ابن عباد ، ثم عاد الى نيسابور ، قال الثعالبي (وطاب عيشه
بها الى أن رمى في آخر أيامه بحجر من البديع الهمداني وُليّ بمساجلته
ومناظرته ومناصلته ، وأعان البديع عليه قوم من الوجوه ، فلاقى ما لم يكن في
حسابه ، وأنف من تلك الحال ، وانخزل انخذا شديدا ، وكسف بالله ، ولم يُحل

عليه الحول حتى مات سنة ٢٨٣ هـ
ومنزله في الكتابة لا تنكر ، ويمتاز عن ابن عباد بجزالة اللفظ وفخامته
وكثير من الناس يفضله على ابن عباد ، وذلك ما أراه ، ويمتاز البديع عنه
برقة العبارة وقصر السجع ، وكان يتشيع ، وله في ذلك رسائل بديعة ، وله
ديوان رسائل طبع في الاستانة وغيرها فراجعه أن شئت الاطلاع على
رسائله البليغة المطولة

ومنه قصار رسائل ما كتبه الى تلمذ له

ان كنت أعزك الله لاترانا موضعا للزيارة ، فنحن في موضع الاستزارة ،
وان كنت تعتقد أنك قد استوفيت ما كان لدينا فسقط حقنا عنك وبقي
حقوقنا علينا ، فقد يزور الصحيح الطيب بعد خروجه من دأته ، واستغناؤه
عن دوائه ، وقد تمتاز الرعية على باب الأمير المعزول فتجمل له ولا تُعيره
عزله ، ولولم تزرنا الا لترينا رجحانك ، كما طالما رأينا تقصانك ، لكان ذلك
فعلا صائبا ، وفي القياس واجبا

بديع الزمان الهمذاني

هو بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمداني
الكاتب المترسل والشاعر المبدع حافظ عصره وذكي دهره وقدوة الحريري
في انشاء المقامات وقريم الخوارزمي في المباديات والمكاتبات
نشأ بهمدان ودرس العربية والأدب على ابن فارس وغيره وورد على

الصاحب فاقبس من أدبه وماله ، ثم ضرب في الأرض يتكسب بالادب فأقام
 بنيسابور مدة أملى بها أربعمائة مقامة في الجذ والهزل نجلها أبا الفتح الاسكندري
 محدثا عن عيسى بن هشام بلفظ أنيق ، وسجع رقيق ، وعلى منوالها نسج
 الحريري مقاماته واحتذى حذوها ، واعترف بفضل السبق له ، ثم شجر بينه
 وبين الخوارزمي ما كان سببا لهبوب ريجه وبعد صيته ، اذ لم يكن في الحسبان
 أن أحدا يجترئ على الخوارزمي أو يتحكك به ، فانتصر لهذا قوم وتعصب
 لهذا آخرون ، واتفق ان مات في أثناء ذلك خصمه ، فحلا له الجوع عند الملوك
 والرؤساء ، وتجول في حواضرهم

فلم يبق بلد في خراسان الا دخله الى أن ألقى عصاه في هراة ، وصاهر أحد
 أعيانها من العلماء ، فطاب عيشه ونعم باله ، ولكن المنية عاجلته وهو في سن
 الاربعين سنة ٣٩٨

قيل انه مات مسموما ، وقيل انه مات بالسكنة ، وعجل دفنه ، فأفاق في
 قبره وسمع صوته بالليل . وانه نبش قبره فوجدوه وقد قبض على لحيته ومات
 من هول القبر

منزله في الكتاب - كان البديع أسرع أهل زمانه بديهية وأكثر شعره
 وكتابته مرتجلا وكانت عبارته سهلة لينة قصيرة السجع ، تشهد عنوابة لفظها
 وتدفق جملها بان صاحبها قلها طبعها من غير أن يكدرح خاطرا أو يعتمد صناعة ،
 ولا غرو فقد قيل : انه كان يلقي عليه القصيدة الفارسية فيتزجها في الحال شعرا
 الى العربية ، وكان لجزبان طبعه وتوقد ذهنه وتمكنه من صناعته ، يعتمد أن

يكتب الكتاب الذي يقترح عليه ، فيتدى بأخر سطوره ثم هلم جزاء الى
الأول ويخرجه كأحسن شئ وأصلحه

ومن رسائله بعزى بهمه أهوائه عن أبيه

ويحذره التبذير والتقتير

وصلت رقتك ياسيدي والمصاب لعمر الله كبير ، وأنت بالجزع جدير ،
ولكنك بالعزاء أجدر ، والصبر عن الأجابة رشيد كأنه الغني ، وقد مات الميت
فليحى الحى ، والآن فاشدد على مالك بالخمس ، فأنت اليوم غيرك بالأمس ،
قد كان ذلك الشيخ رحمه الله وكيك ، تضحك ويبيكى لك ، وقد مولىك
بما ألف بين سراه وسيره ، وخلفك فقيرا الى الله غنيا عن غيره ، وسيععجم^(١)
الشیطان عودك ، فان استلانه رماك يقوم يقولون خير المال ما أتلف بين
الشراب والشباب ، وأنفق بين الحباب^(٢) والإحباب ، والعيش بين الاقداح^(٣)
والقداح^(٤) ولولا الاستعمال لما أريد المال ، فان أطعمهم فاليوم فى الشراب ،
وغدا فى الخراب ، واليوم واطرابا للکاس ، وغدا واحربا من الأفلاس ،
يامولاي ذلك الخارج من العود بسميه الجاهل نقرأ ، ويسميه العاقل فقرا ،
وكذلك المسعوع فى الناي هو الآن فى الآذان زمر ، وغدا فى الإباب
سمر^(٥) فان لم يجد الشيطان معززا فى عودك من هذا الوجه ، رماك يقوم يمثلون
الفقر حذاء عيذك ، فتجاهد قلبك ، وتحاسب بطنك ، وتناقش عرسك ،

(١) سيجرب (٢) قفايع الخمر (٣) جمع قدح وهو الخمر (٤) جمع قدح وهو للميسر

(لكل آلة لب له) (٥) افعال وتسمير للابواب

يؤتمنع نفسك ، وتبوء في دنياك بوزرك ، وتراه في الآخرة في ميزان غيرك ،
لا ، ولكن قصدا بين الطريقتين ، وميلا عن الفريقين لامنح ولا اسراف ،
والبخل فقر حاضر ، وضير عاجل ، وانما يبخل المرء خيفة ما هو فيه ، فليكن
لله في مالك قسط ، وللمروءة قسم ، فصلل الرحم ما استطعت ، وقدر اذا
قطعت ، فلأن تكون في جانب التقدير ، خير لك من أن تكون في جانب
التبذير .

أما مقاماته فهي مطبوعة مشهورة فارجع اليها ان شئت وله أيضاً ديوان
شعر صغير مطبوع في مصر

أبو اسحاق الصابى

هو أبو اسحق بن ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن اهرورن بن حيون
الخرائى الصابى صاحب الرسائل المشهورة والنظم البديع وأ كتب كتاب
(١) العراق في زمانه

أصل أجداده من حران من بلاد الشام على دين الصابئة وهو اسم
اسموا به زمن المأمون ، ومذهبهم منتزع من عقائد القدماء من السريان
واليونان في الكواكب ووثنياتها ، وكانت صناعة آباؤه ببغداد الطب والترجمة
من السريانية ، وكان أبوه هلال من أطباء بغداد ، وربى أبو اسحق في
صناعته على غير رغبة منه ، اذ كان ميالا للأدب من صغره ، فغلب عليه

(١) كان في وقته يطلق على ما بين النهرين من بغداد الى البصر

الأدب وترك صناعة أبيه ، وعمل في ديوان الخلافة ، وما زال يترقى به الحال عند الوزير المهلبى حتى وزر المهلبى لعز الدولة الديلمى المتغلب على خليفة بغداد من آل بُويه . فولاه ديوان الرسائل ، وكان يخلفه في أعمال الوزارة عند غيبته ، وصدرت منه العهود والمنشورات والمراسيم والكتب البليغة المسهبة عن الخليفة وعز الدولة ، وكان يعرض بتصغير عضد الدولة في الكتب التى تصدر عن الخليفة اليه ويوجهه ، فحقدتها عليه حتى تغلب على بغداد وقبض عليه وأمر بسجنه ، فشفع فيه ، فقال : قد سوَّغته نفسه ، فان عمل كتابا في ما آثرنا وتاريخنا أطلقته ، فشرع في محبسه في عمل كتاب التاجى ، فسعى بعضهم به الى عضد الدولة بأنه زاره في السجن ، فراه في شغل من التعليق والتسويد والتبييض ، فسأله عما يفعل ، فقال : أباطيل أُنَمِّقُهَا ، وأكاذيب أُلَفِّقُهَا ، فأمر بالقاءه تحت أرجل القبلة ، فترامى عطاء الكتاب على أقدامه ، وشفعوا فيه ، حتى أمر باستحيائه ، واستصفاء أمواله ، وتخليد سجنه ، الى أن تخلص في أيام صمصام الدولة بن عضد الدولة ، وبقى بعد خروجه من السجن الذى لبث فيه بضع سنين متعظلا لا يعمل لاحد أنفةً منه حتى مات سنة ٣٨٤ هـ وكان الصاحب ممن يديم صلته . وبقى أبو اسحق على دينه يتشدد فيه ، وجهد عليه عز الدولة أن يسلم ويوليه الوزارة فلم يفعل ، وكان يحسن حفظ القرآن ويكثر من اقتباسه في رسائله والاستدلال به ، وكان يحسن عشرة المسلمين ويصوم معهم شهر رمضان

منزلة في الكتابة :- كان أبو اسحق أحد كتاب الدنيا ، وكان صاحب
يقول كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة ، الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم
عبد العزيز بن يوسف، وأبو اسحق الصابي ، ولو شئت لذكرت الرابع (يعني
نفسه) أما الترجيح بينه وبين الصابي في الكتابة فقد خاض فيه نقدة زمانهما،
ومن أشفّ ما قيل فيهما ان صاحب كان يكتب ما يريد ، والصابي يكتب
ما يراد ، (أى ما يؤمر به) والصابي من طوال النفس في الكتابة، وذلك ما كان
زمانه يقتضيه من الاطالة في التفخيم والتعظيم والتهويل وتكرير الوعد والوعيد،
وبالصابي ختم تاريخ الفحول من كتاب الدواوين

وخلف من بعد ذلك خلف جعلوا همهم البديع اللفظي وطرحوا
المعاني جانباً، ويعتبر الصابي في مقدمة الكتاب الذين التزموا السجع في الرسائل
السلطانية فكان ذلك من أقبح آثارهم

ومن رسائل كتاب بعضهم أوصيائهم في السكر

وصل كتابك مشحوناً بلطيف برك ، موشحاً بغامر فضلك ، ناطقاً
بصحة عهدك ، صادقاً عن خلوص ودك ، وفهمته وشكرت الله تعالى على
سلامتك شكر المخصوص بها ، ووقفت على ما وصفته من الاعتدادى ،
وتناهيت آليه من التقرىظ لى ، فما زدت على أن أعرتنى خلالك ، ونحلتنى
خصالك ، لأنك بالفضائل أولى ، وهى بك أحرى ، ولو كنت فى نفسى
من يشتمل على وصفه حدى اذا حددت ، أو يحيط بكاله وصفى اذا وصفت ،
شرعت فى بلوغها ، والقرب منها ، لىكن المادح لك متفرغ لك وسعه ، وقد

بخسك، ومستغرق طوقه وقد نقصك، فابلق ما يأتى به المثني عليك ، ويتوصل
اليه المطرى لك ، الوقوف فى ذلك دون منتهاه ، والاقرار بالعجز عن
غايتة وقراه

التدوين والتصنيف

فى المشرق

بقى التدوين سائرا فى منهج التقدم فى هذا العصر على نحو ما وصفنا فى
العصر الماضى ، بل وفر عدد المتوفرين عليه وتعددت أغراضه وموضوعات
علومه، وتنوعت أشكال كتبه من مبسوطات مفصلة ومختصرات مجملة ووسائط
بينهما معتدلة ، ورغب العلماء والمصنفين فى الافادة والاستفادة وجود عدة
دول متجاورة متنافسة كل منها تحرص أن تفوق الأخرى فى احراز وسائل
القوة وعتاد الملك وترفيه العيش ، ولا يكون ذلك الا بتأثيل الحضارة
وتعضيد العلم ، وأغدق ملوك هذه الدول ووزراؤها على العلماء والأدباء
وتنافسوا فى ضمهم الى مجالسهم ، وأغراهم هؤلاء بتأليفهم الكتب باسمائهم
واستنباط دقائق العلوم لفائدتهم، فكثرت الكتب والمصنفات فى العلوم التى
وضعت فى العصر الماضى وفى علوم أخرى اشتقت منها كعلوم الأخلاق وآداب
الملوك وسياسة الملك وقيادة الحرب وتعبئة الجيوش واستعمال الأسلحة وتدير
المال وتصرف وجوه الكسب فى التجارة وتدير المنزل والبحث فى معرفة أسباب

للعمران واتسع مجال البحث في الطب والحساب والجبر والهندسة والكيمياء
 والطبيعة والفلك والجغرافيا وفن الخيل . والمنطق والكلام وعلم النفس وسائر
 العلوم الحكيمية والدخيلة ، فثبتت أصولها ، وتشعبت فروعها ، وتعددت المذاهب ،
 وأصبحت بعيدة الشبه بأصولها اليونانية ، وانصبغت بصبغة اسلامية ، وامتزجت
 بكل فن حتى الشعر . واستفحل أمر اختراع الاساطير والاسمار الخرافية وقصص
 الشجمان ، واستمر الحال على ذلك في الدول البويهية والسامانية والغزنوية حتى
 جاءت السلجوقية فكان لها أيضا على عصيتها مساعدة للعلم بإنشاء المدارس
 الخاصة بالتدريس وتوظيف الوظائف والجرارات للعلماء والطلاب وتخصيص
 كل عالم بعلم ومرتبة . وكان التدريس قبل في المساجد على غير نظام محدود أو
 جراية دائمة ، وحاكتهم في ذلك الممالك المجاورة ، وأول مدرسة من هذا النوع
 هي المدرسة النظامية ببغداد ، شرع في بنائها نظام الملك أبو علي الحسن بن علي
 الطوسي سنة ٤٥٧ وافتتحت للتدريس سنة ٤٥٩ ثم كان له ولغيره مدارس
 أخرى على هذا النمط بالرى ونيسابور وهرات وبخارى ، وكان يكون غالبا بجانب
 هذه المدارس أربطة للصوفية والسابلة وكتاتيب لصغار المتعلمين ودور كتب
 عظيمة لمراجعة العلماء والطلاب غير خزائن كتب الملوك والوزراء التي كانت
 تحوى مئات الألوف من المجلدات

ثم فترت هذه الحركة في المشرق بضعف ممالكه واستعجام حكوماتها
 واستيلاء الجهل على رؤسائها قبيل اغارة التتار وأثناء غلبة الدولة
 الخوارزمية ، حتى اجتث سيل التتار الجميع ، وطمس في المشرق آثار العرب

والمتعربين بإبادة العلماء وتحريق الكتب

كتابة التصنيف

أما كتابة التصنيف والتدوين في العلوم اللسانية والشرعية فقد كان بعضها في أوائل هذا العصور كـ فيه الروايات باختلاف طرقها واثبات أسانيدها وأشد ما روعى ذلك في الحديث والتفسير، ثم يلي ذلك كتب الأدب كالأغاني، ثم يلي هذا التاريخ

وفي أواسط هذا العصر وأواخره أهملت هذه الطريقة في كتب الأدب وقل الاطناب، واكتفى من الروايات بذكر محصلها، واختصرت القواعد والأحكام وأدخلت تحت حدود وروابط عامة وخصوصا كتب الفقه والاصول والنحو لا تساع دائرة العلوم وضيق العمر عن الاحاطة بالمطلوبات

أما العلوم الدخلية فقد كانت ترجت وهذبت وصححت ونبغ فيها فطاحل تصرفوا فيها وتعمقوا في ايجاز عبارتها واخفائها على غيرهم من الفقهاء المنكرين عليهم حتى كادت كتب الحكمة والتوحيد يكون لها لسان قائم بنفسه، وبقيت هذه الطريقة مراعاة في كتبها حتى سكنت ربح التأليف في العلوم العقلية أواخر القرن الثامن، غير ان جماعة من الحكماء ضجروا من كتم علوم الفلسفة وانماض عبارتها، فتآخوا على بث علومها وايجاد الصلات بينهما وبين مسائل الشرع وعقائد الدين، وألفوا بعبارة سهلة عدة رسائل فيها سموها رسائل اخوان الصفا، وأخفوا أسماءهم، وما لبثت ان عرفت وأقبل الناس عليها درسا

ومحاكاة وهي باقية الى وقتنا هذا مطبوعة بمصر والهند وأوربا وغيرها، وترجمت الى كثير من اللغات . وظهر في هذا العصر في كل فن من العلوم اللسانية والدخيلة رسائل مكتبية لاحداث المبتدئين روعى فيها الاقتصار على أصول القواعد بعبارة سهلة فكانت أفضل وسائل نشر العلم في هذا العصر

العلوم الإسلامية في المشرق

العلوم اللسانية

نبدأ هنا بذكر علم الأدب كما بدأنا به في العصر الأول فنقول

علم الأدب

انقضى العصر الأول وقد فرغ العلماء والرواة من جمع أخبار العرب ونوادرها وأيامها وأشعارها وخطبها وأودعوها بطون الكتب وأوعية الصدور، وانضم اليها أخبار الفتوح والمغازي وسير الخلفاء والقواد والبلغاء، فينعت بها قرائح الأدباء، ولهجت بها ألسنة الندماء والسيما، وفاضت أقلام الكتاب، وبقيت أخبار المحدثين وبلاغة المولدين ونوادرهم وأشعارهم وجددهم وهزلهم مجالاً لعناية مصنفى الأدب من أهل عصرهم، وتلك سلسلة لا تنقطع مادام اللغة حياة، والأمة سلطان وحضارة، وللقرائح حرية، وللعلماء والأدباء مكانة، وبعض ذلك قد كان بالمشرق في مبدأ هذا العصر الى أواسط القرن الخامس

ولا غرو أن جاء هذا العصر وللأدب أقلام سيالة في أيدي كتابهم

ثمرة العصر الماضى ونقطة آثاره للعصور الخالفة ضموا ما كتبه سلفهم من كتب أو حدثوه من روايات الى ما عرفوه وشاهدوه وسمعوه وأودعوا الجميع كتباً مطولة جامعة لكثير من فنون الأدب المتنوعة أو رسائل قاصرة على فن منه وكثير من الكتب المطولة لم يكن لجامعيتها كتابة كثيرة فيها فوق الربط بين العبارات المنقولة والشواهد الموردة ككتاب الأغاني وأكثر كتب أبي منصور الثعالبي وكتاب الفرج بعد الشدة وكثير من كتب الأماشي والمجالس ومنها ما هو ابتداء بحت ككتب المقامات للبديع والحريري والزنجشري وكتب نقد الشعر والموازنة بين الشعراء وكتب الأدب الممزوجة بمباحث البلاغة .

الرسماء والخرافات

ومن ملحقات كتب الأدب المتسعة كتب الأسفار والخرافات والأساطير والقصص الحكيمية المحكية على أسنه الحيوان وسير الأبطال والشجعان، وابتداء الأدباء يعنون بوضعها أو ترجمتها منذ صارت المنادمة والسمر صناعة فريق عظيم منهم أى منذ زمن الوثائق الى آخر الدولة حين استبد الجند من الأتراك ثم الديالم من بعدهم على الخلفاء وآل العباس وكفوا أيديهم عن العمل فى شؤون المملكة وقصروهم على المقام فى قصورهم وقلت العناية بتربيتهم فلم يجدوا ما يقضون به أوقاتهم ويخففون عنهم ضجر بطالهم غير مجاذبة أسباب اللهو والجلوس الى الندماء والسمر ومطالعة القصص

والخرافات واللعب بالشرطنج أو النرد ونحوها، وبذلك نجد كثير من هذه الكتب في العصر الماضي، واتسعت دائرتها في هذا العصر، وصار كل سامر ونديم يزيد في أصل كل قصة نادرة طريقة أو شعرا يناسبها ويخرفها بأنواع الغرائب والتهاويل وأخبار الجن والسحرة ونحوها وأفعال الشجعان التي تخرج عن الطوق. وقد ذكر ابن النديم في فهرسته عددا وافرا من هذه الكتب فإبراجعه من أراد التبسط في هذا الموضوع

كتاب ألف ليلة وليلة

ومن كتب الاسمار التي ترجمت في المشرق أو آخر العصر الماضي، وفهرت بما أضيف إليها في هذا العصر وما بعده إلى وقتنا هذا كتاب ألف ليلة وليلة. وأصله من وضع الفرس وكان يسمى بلقهم (هزارافسان) أي كتاب اللهو والخرافات، ولا يعلم أصل مترجمه وابتعد بما أضيف إليه من الحكايات البغدادية والمصرية من أصله ولا يزال عليه بعد مسحة فارسية

وراق الأوربيين هذا الكتاب فترجموه إلى جميع لغاتهم محافظين على أصله أو متصرفين فيه، ويسمونه الليالي العربية، ويعدونه من أجمل الآداب العربية وهو عند العرب من أسخفها ووصفه ابن النديم قبل إدخال كثير من الحكايات والمصرية فيه فقال: « غث بارد » وكذلك هو عند ذوى الذوق السليم من أدباء العرب، ولا يلهو به في زمننا غير العامة والصبيان وأهل البطالة، وفيه كثير من الألفاظ والعبارات العامية لأجيال مختلفة، ويشتمل فوق هذا على كثير من العادات والأخلاق والآداب والخيالات والتصورات

لطبقات العوام في القرون المتوسطة الاسلامية، فهو من هاتين الوجهتين يصح أن ينظر فيه الأديب اللغوي والمؤرخ الاجتماعي هذا وقد نبغ من مصنفى الأدب في صدر هذا العصر جماعة ممن أدرك طرفاً من العصر الماضي، واستقى من معينه، منهم أبو الفرج الأصبهاني وأبو حيان التوحيدي والحسن بن بشر الآمدي . ونبغ فيه ممن نشأ في دوله على اختلاف أزمانها جماعة . منهم أبو علي المحسن التنوخي وأبو منصور الثعالبي وأبو هلال العسكري . ومحمد بن النديم والشريف المرتضى والحريري وأكثر هؤلاء عراقيون أو من جالية العراق الى المشرق ونكتفي في هذا المختصر بترجمة الاصبهاني والحريري اذ كانا أبقى الجميع بيننا أثراً وأطول على أهل الأدب عائدة

أبو الفرج الاصبهاني

هو الكاتب الشاعر الراوية النسابة العلامة المصنف أبو الفرج علي ابن الحسين بن محمد المرواني النسب، الشيعي المذهب، صاحب كتاب الاغانى ديوان العرب

ولد سنة ٢٨٤ باصبهان ونشأ ببغداد فروى عن أكثر من لقيه من أئمة زمانه وأدبائه وشعرائه وظرفائه وندمائه وجمع من علم هؤلاء وآدابهم ما لا يجتمع لغيره وظهر فضله والشرق يتنازعه جملة دول وأمارات تنازع الخليفة في الملك وينازع بعضهم بعضاً في السلطة فسوغ لأبي الفرج علمه وفضله أن يستدر

ضروع هؤلاء الخصوم، ويحملهم على المرافسة في استلحاقه بهم، ولم يكتف بسبب ملوك الشرق حتى أفعم غربه من خلفاء الغرب، فكان يؤلف الكتب للاموية بالاندلس سرا، ويشايع الشيعة بالشرق جهرا، وكان من أكثر محبيه ومؤثريه الوزير المهلبى وزير معز الدولة بن بويه واتخذ من أخص ندمائه

أخبره - : كان أبو الفرج على علمه وفضله وبلاغته سايط اللسان، موجع الهجاء، يتقى الملوك والرؤساء لسانه لسعة علمه بالانساب ومثالب القبائل وأصول البيوتات

وكان قدرا وسخالا يعرف اشيء من ثيابه غسلا ، ولا يطلب منه في مدة بقائه عوضا ، وكان الوزير المهلبى مع تنطسه وعزوف نفسه وتقدره كل شيء يحتمل منه كل هذا لموضعه من العلم

والظاهر ان تشيعه كان مداراة وأن ذلك كان سنة في أهل بيته حيث نشؤوا في أصبهان عش الشيعة ، ونشأ هو في بغداد والأمر لبني بويه ، وهم أول من أحدث المنادب والمناجح في عاشوراء على الحسين رضي الله عنه، ولم يكن آل حمدان ملوك الجزيرة وحلب ينقصون كثيرا عنهم في التشيع فلوانجازوا الى مذهب الاموية والعمانية بين هؤلاء الشيعة لقطع دابرهم فسمى . أبوه الحسين وسمى هو عليا . ودليل هذا انه لم يختلف أحد من ألم يذكر كتبه في انه ألف كثيرا منها لخلفاء الاندلس كان يبعثها اليهم سرا ويأتيه عليها الانعام ، وأكثرها في نسب عبد شمس والقبائل التي نزلت الى الاندلس وجعلت أخبار سلفها ومفاخرها

علم — : كان أبو الفرج أعرف أهل زمانه بعلم وأدب وأخبار وأحاديث ونسب ، ولم ير في عصره أحفظ منه ، ويحفظ دون ذلك من علوم آخر منها النحو والخرافات والسير والمغازي ومن آلة المتأدبة شيئا كثيرا ، مثل علم الجوارح والبيطرة وتنف من الطب والنجوم والاشربة وغير ذلك . وفاق هل زمانه في معرفة الاغاني والمغنين ، وفي ذلك صنف كتابه الاغاني الكبير

كتاب الاغاني

أجمع أهل الادب والمؤرخون على أن كتاب الاغاني لم يصنف في بابه مثله ، وانه حوى من مادة الأدب ما جعل كل كتاب بعده في الادب غالة عليه . وقد ألفه في خمسين سنة ، ونسخه مرة واحدة ، وحمل هذه النسخة الى سيف الدولة ابن حمدان فأعطاه ألف دينار واعتذر اليه

ويحكى عن الصحاب بن عباد انه كان في أسفاره وتنقلاته يستصحب حمل ثلاثين جملا من كتب الادب ليطلعها ، فلما وصل اليه كتاب الاغاني لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه استغناء به عنها . وكذلك كان يفعل عضد الدولة فلا يكاد يفارقه سفرا ولا حضرا

وقال الأديب المؤرخ الرحالة ياقوت الرومي بعد أن أثنى عليه بما هو حقيق به (وقد تأملت هذا الكتاب وعنيت به وطلعته مرارا ، وكتبت منه نسخة بخطي في عشر مجلدات ، ونقلت منه الى كتابي الموسوم باخبار الشعراء ، فاكثرت ، وجمعت تراجمه ، فوجدته بعد بشيء ولا يفي به في غير موضع منه كقوله في

أخبار أبي العتاهية « وقد طالت أخباره ها هنا وسند كرخبره مع عتبه في موضع آخر » ولم يفعل وقال في موضع آخر « أخبار أبي نواس مع جنان اذ كانت سائر أخباره قد تقدمت » ولم يتقدم منها شيء الى أشباه لذلك ، والاصوات المائة هي تسعة وتسعون وما أظن الا أن الكتاب قد سقط منه شيء أو يكون النسيان غلب عليه والله أعلم)

وقد ذكر ذلك أيضا ابن مكرم في كتاب أخبار الحسن بن هانئ (أبي نواس) ولا يزال الكتاب كما وصفاه

وجملة القول ان هذا الكتاب هو الكنز الذي حفظ فيه الادب العربي وان ضم بين دفافه كثيرا من الاخبار الموضوعه على الخلفاء وروايات المجان والخلعاء والمستهترين ممن لا يبالون بما يقولون صدقا أم كذبا ، فلا يعتبر من هذه الوجهة مصدرا للتاريخ الحقيقي لمنافاة أخباره لكثير من كتبه الصادقة ولما ناقضة بعضها لبعض

ولم يكن أبو الفرج يقصد من ذلك الى أكثر من نقل الاخبار على علاتها أسوة كثيرا من رواة الاخبار والسير والاسمار وقد اختصر أبو الفرج بنفسه كتابه في مجرد فقد مع غيره من كتبه ، واختصره بعده كثيرون ، منهم ابن مكرم صاحب لسان العرب وغيره ، ويطبع مختصره في مصر . وطبع كتاب الاغانى بمصر في عشرين جزءا ثم عُثر على جزء آخر فطبعه المستشرق روداف برونو سنة ١٨٨٨ لا كما قال بعض من يتعاطي التأليف في عصرنا انه طبع في مدينة برونو اذ ليس ثمة مدينة بهذا

الاسم وإنما هو نصف اسم المستشرق الطابع
ولأبي الفرج كتب كثيرة طبع منها غير الاغانى كتاب مقاتل الطالبين
في مدينة طهران سنة ١٣٠٧ وأكثر كتبه مفقودة . ومات أبو الفرج سنة
٣٥٦ ببغداد وكان قد خلط قبل وفاته رحمه الله

الحريري

هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري اللغوي
النحوي الكاتب الشاعر صاحب المقامات المشهورة والبدايع الماثورة
وهو عربي صميم من بني حَرَام ولد سنة ٤٤٦ بمشان البصرة (قرية
قرية منها كثيرة النخل وكان له فيها ١٨ ألف نخلة) ونشأ بالبصرة وانقطع
لتعليم العربية من اللغة والنحو والادب حتى صار نادرة زمانه في كلها ولاسيما
الانشاء ، فجارى البديع في اختراع مقامات مُتَخَيَّلَةِ القصص يأتي فيها على كثير
من مواد اللغة وفنون البلاغة وأمثال العرب وحكمها . واتفق أن أعرايا فصيحاً
يسمى أبا زيد قدم البصرة من سَرُوج (بلدة بالجزيرة) فأعجب أهل البصرة
به ، فنحله الحريري وقائع مقاماته ، وسمى راويها الحرث بن همام يريد نفسه
آخذاً من الحديث (كلّم حارث وكلّم همام) فالحارث الكاسب والهمام
كثير الاهتمام

وأول مقامة صنفها هي المقامة الحرامية الثامنة والاربعون
وعدة المقامات خمسون مقامة صنفها للوزير جمال الدين وزير المسترشد

هكذا وجد بخطه ، وقيل انه عملها الوزير أنوشروان وزير المسترشد أيضاً
وقد استعظمها عليه حساده ، وزعموا أنها لمغربي قدم البصرة ومات بها، في
كلام كثير ليس تحته طائل

ومن يطلع على مقاماته ويعرف مغازيها ومراميتها وبلاغة، عبارتها يعرف
ما كان عليه الرجل من الفضل الجم والأدب الغزير
وقد شرحت المقامات عدة شروح وترجمت الى عدة لغات وغاية
ما أخذه كتاب الفرنجة عليها وحده مغزاها وأن أكثرها لا يخرج عن
اكتساب المال بطرق خسيسة كالشحاذة والاستجداء

وللحريري العذر في ذلك لانه فرض روايتها عن الاعراب - وهم كانوا
لا يقدمون المدن الامتجمين مستجدين - يجعل خيال الحريري مقبولا
وكان الحره يرى على غناه قدرا وسخا قصيراد ميا، يولع بتنف لحيته
وله ديوان رسائل وشعر جميل وتأليف شريفة، منها درة الخواص في
أوهام الخواص، ومأحة الاعراب في النحو وهما والمقامات مطبوعة مشهورة

العروض والقافية

لم يزد علم العروض في هذا العصر شيئاً الا ما ذكرناه في العصر الأول
عن أبي نصر اسمعيل بن حماد الجوهري صاحب الصحاح من ارجاعه
البحور الى اثني عشر بحراً باعتبار تداخل اوزانها، وقد آثرنا توضيح ذلك
هناك توفية للمقام فراجعه

وإذا اعتبرنا ان مباحث الوزن والتقفية على غير ما أثر عن العرب مما يدخل علمه في مباحث العروض والقافية جاز لنا أن نقول انه زاد في علم العروض والقافية مباحث الوزن والتقفية الموشحات والسلسلة والدوييت والزجل وغيرها مما استحدث في هذا العصر . على أن أدباء المشرق لم يعنوا من هذه الا بالدوييت ،

النحو

بقيت العناية بالنحو وتحرير قواعده وتكميل ضوابطه وشروطها ديدن العلماء بالممالك الشرقية كما بقيت بالممالك الغربية ، ولذلك كان له في المشرق في هذا العصر من فحول الرجال ومفصلات الكتب وما خصت العدد العظيم . فمنهم ابن درستويه المتوفى ببغداد سنة ٣٤٧ وأبو علي الفارسي المتوفى ببغداد سنة ٣٧٧ وأبو سعيد السيرافي المتوفى ببغداد سنة ٣٦٨ وأبو الحسن الرماني المتوفى ببغداد سنة ٣٨٤ وأبو الفتح بن جني المتوفى ببغداد سنة ٣٩٢ وعلى بن عيسى الربعي المتوفى ببغداد سنة ٤٢٠ وأبو القاسم حار الله محمود الزمخشري المتوفى بخوارزم سنة ٥٣٨ وأبو السعادات الشريف ابن الشجري المتوفى ببغداد سنة ٥٤٢

فترى ان أكثر هؤلاء كان من علماء بغداد وانما كانوا يختلفون الى فارس اجابة لترغيب ملوكها ووزرائها لهم في المقام لديهم ، وكان أكثرهم

اقامة بفارس أبو على الفارسي

وكان أكثر تصنيفاتهم شروحا لأمهات الكتب القديمة أو مختصرات
للناشئين أو تقريب مأخذ من حسن تقسيم وتفصيل وتبويب وتسهيل عبارة
وكان أصعبهم عبارة وأقربهم إلى مناحي المناطق في أقيستهم وتعليقاتهم
أبا الحسن الرماني وكان أسهلهم أبا سعيد السيرافي
وقدما كان نحوي من هؤلاء يتفرد بذهب كوفي أو بصرى وإنما كان
مذهب البصريين هو الأساس المعتمد عليه في دراسة مشوبا بشيء من
مذهب الكوفيين

اللغة

لعلماء المشرق في هذا العصر أعظم فضل في تدوين متن اللغة وتنسيق
معاجمها وتمييز صحيحها من غيره

سبقهم إلى ذلك أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر طلحة المولود سنة
٢٨٢ والمتوفى سنة ٣٧٠ فانه صنف معجمه الكبير (تهذيب اللغة)
في نحو عشر مجلدات . وجرى فيه على ترتيب كتاب العين من ترتيب المواد
حسب مخارج الحروف وتوجد منه في مكاتب الاسنانه وبعض أجزاء
بالمكتبة الخديوية

ثم صنف بعده الوزير صاحب ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ كتابه
(المحيط) في نحو سبع مجلدات منها جزء في المكتبة الخديوية
ثم صنف في عصره أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي المتوفى سنة ٣٩٠

كتابه (الجمل) مرتباً على حروف المعجم وجمع فيه المستعمل المشهور من اللغة وحذف الشواهد. وشاع استعمال هذا الكتاب بين المتعلمين زماناً طويلاً وتوجد منه عدة نسخ في مكاتب أوروبا، وفي المكتبة الخديوية نسخة .
ويحسن أن يطبع فيكون أفضل من المصباح

ثم صنف في عصر هؤلاء الامام الحجة أبو نصر اسمعيل بن حماد الجوهري المتوفى سنة ٣٩٣ كتابه (تاج اللغة وصحاح العربية) جمع جميع الكلمات الصحيحة النقل والرواية فقط وحذف ما عداها . وكان المؤلفون قبله يجمعون ألفاظ اللغة بجميع مراتبها منبهين على كل منها ، ورتبه على حروف المعجم باعتبار ان أواخر الكلم هي الابواب وأوائلها هي الفصول ، وجمع فيه أربعين ألف مادة فكان أفضل معجم وضع في الشرق الى زمنه ، ومات قبل أن يبيض مسودته وبيضها أحد تلاميذه فأخطأ في بعض مواضع خطأ بينه النقاد ، ومع هذا لم ينل كتاب من اقبال الناس عليه والثقة به ما ناله الصحاح ، وبقى كذلك حتى زاحمه القاموس للفيروزابادي من أهل العصر التالي وكثير من الناس يفضل الصحاح عليه وان قل عنه بعشر بن ألف مادة اسهوله عبارته وقرب مأخذه ، وطبع الصحاح مرارا في مصر وغيرها

ثم صنف جار الله محمد الزمخشري المتوفى بخوارزم سنة ٥٣٨ كتابه (أساس البلاغة) وهو معجم وسيط مليح ، يمتاز بتوقيف الراجع اليه على استعمال الكلمة حقيقة ومجازا ، وهو مرتب على حروف المعجم باعتبار أوائل الكلم فقط وطبع في مصر

ثم صنف الامام الكبير رضى الدين حسن الصفغانى المتوفى ببغداد سنة ٦٥٠ والمنقول منها الى مكة حيث دفن بها كتابه (العباب الزاخر واللباب الفاخر) فى عشرين مجلدا ، ولم يكمله ووصل فيه الى مادة (بكم) وقد كان قبله ألف (تكملة الصحاح) وهى أكبر منه حجما ، ثم جمع بينهما فى كتاب واحد سماه مجمع البحرين

هذه أهم المعاجم التى دونت فى متن اللغة بالممالك الشرقية فى هذا العصر ، وألف العلماء فى اللغة غير المعاجم كتباً أخرى مرتبة بحسب أجناس الاشياء وموضوعاتها ككتاب فقه اللغة لأبى منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ وهو مشهور متداول مطبوع فى مصر وغيرها

علوم البلاغة

لم تنصر علوم البلاغة فنا مفصلا ذا مباحث محصورة الا فى هذا العصر ولا سيما المعانى والبيان فذكر أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ فى كتاب الصناعتين جملة فصول فيهما ، وجاراه غيره الى أن جاء الامام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ فوضع كتابه ، (دلائل الاعجاز) فى المعانى ، وكتاب (أسرار البلاغة) فى البيان فكانا أول كتابين حافين فى هذين الفنين ، واقتفى أثره من بعده حتى جاء فارس الحلبة العلامة سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن محمد بن على السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ فألف كتابه (مفتاح العلوم) فى النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والعروض فاتتهى اليه الاجتهاد فى هذا الفن ، ولم يأت بعده من زاد عليه شيئا من أصول

البلاغة ، فتأوله من بعده شرحا واختصارا ، وأشهر مختصرات قسم البلاغة منه

تلخيص جلال الدين الخطيب القزويني

وله شروح كثيرة وهو مرجع كل طالب للبلاغة ، وللمخشى فى

الكشاف وغيره وللباقلانى فى اعجاز القرآن مباحث جليلة تحسب من أهم

فصول البلاغة

ويعتبر فن البلاغة من الفنون العربية التي لم تنضج ولم يتم الاجتهاد فيها ،

لما دهى العرب والعربية من غلبة الاعاجم على عناصرها قبل اتمامها . ومن

الغريب ان جل من تعاطى التأليف فيها كان من العجم أو المستعجمين الذين

تنازعت ألسنتهم ملكات لغتهم الاصلية ، فحسبوا أن البلاغة تجري مع

المنطق والفلسفة فى مضمار ، فخلطوا مباحثها بمباحثهما اذ كان هم علماء المشرق

فى العصور المتأخرة الانكباب على دراسة كتب الحكمة وتطبيقها على أصول

القواعد العربية ، فكتبوا بأساليبها كتب البلاغة ، فازدادت تعقيدا وابهاما ،

وبدلا من أن تكون مساعدة على تربية ملكة الفصاحة والبلاغة وحسن

الانشاء ، كانت عائقة عن نموها

أما البديع فأكثر من ألف فيه بعد العصر الاول أدباء الممالك الغربية

وسند كر ذلك فى موضعه

العلوم الشرعية

﴿ التفسير والحديث ﴾

انتهى العصر الأول وتفسير القرآن الكريم لا يزيد على جمع الروايات

المنقولة عن الصحابة والتابعين في بيان معاني الآيات وتحقيق هذه الروايات ونفى الاكاذيب عنها، وامام المفسرين في ذلك أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ثم نسج في العصر الثاني على منواله مع اختصار الاسانيد الامام أبو الليث نصر السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٥ في تفسيره

ثم لما ضعفت ملكة فهم الكلام العربي البليغ من نفوس أهل العلم، صار مجرد تفسير الآية بمعناها من غير تعرض لاعرابها وبلاغتها ووجوه استخراج الاحكام والعقائد الدينية منها غير كاف للطالب المستفيد، فعنى العلماء بادخال أحكام علوم العربية والشرع فضلا عن القصص ضمن مباحث التفسير، وصار كل مؤلف مبرز في علم يكتر من مسائله في تفسيره كتفسير الامام المفسر المشهور أبي اسحق أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٧ الذي سماه (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) ويغلب عليه القصص، وتفسير تلميذه الامام أبي الحسين علي بن احمد الواحدى المتوفى سنة ٤٦٨ هـ الذي سماه (البيسط) ويغلب عليه النحو، وتفسير الكشاف للزمخشري ويغلب عليه البلاغة والاحتجاج لمذاهب الاعتزال بمناحيها فيه، وتفسير الامام أبي عبد الله محمد فخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ بهراة المسمى (مفاتيح الغيب) ويغلب عليه الكلام والاصول، وهذه هي أمهات كتب التفسير

وكان أصحاب هذه التفاسير لا يعدون ما ورد عن السلف من تأويل الآي، ثم لما صارت العلوم صناعة وتشعبت مذاهبها تجردت طائفة الى التفسير بالرأى والقياس، فأصبح التفسير قسمين سلفيا وفنيا. ثم خلط المتأخرون بعد

هذا العصر بينهما

أما الحديث فلم تزد روايته بعد الكتب الصحاح التي دونت في العصر الماضي شيئاً جديراً بالذكر ، وكان جل اهتمام المحدثين في العصر الثالث حفظ ما جمعه شيوخهم السالفون وتبيين مراتب الحديث ولكنهم توسعوا في علوم رواية الحديث ومصطلحه وغربية ومعاني شكله ونحو ذلك وجمعوا بين صنفي التأليف من المختصرات المشتملة على طائفة من الحديث في موضوع خاص ، ومن المطولات الجامعة للكتب الستة وغيرها بترتيب و بغير ترتيب كما قدمنا ومن كبار محدثي المشرق في هذا العصر الحافظ أبو عبد الله محمد الحاكم النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٥ وتلميذه الحافظ أبو بكر أحمد بن علي البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ وغيرها

الفقه والاصول

قد كان هذا العصر عصر تبحر في هذين العلمين في البلاد المشرقية ، ونبغ فيهما كثير من مجتهدي المذاهب ومجتهدي الفتيا وكان الشرق وقتئذ مجال نضال فيهما بين الشافعية والحنفية وألفت فيهما الكتب النفيسة غير أن اشتغال أمم الفرس والترك بفقه أبي حنيفة والتزامهم التأليف فيه باللغة العربية على غير أنسنة كثيرة بها جعل عبارة بعض مؤلفيها معقدة ركيكة بل مشوبة ببعض تركيب فارسية

وقد ذكرنا استطرادا عند الكلام في نشأة هذين العلمين في العصر

الأول مجمل أحوالهما في هذا العصر فراجعهُ ان شدت

علم الكلام

لم يأت العصر الثاني حتى ظهرت فيه طريقة الاشاعرة في اثبات العقائد ،
وعضدَها بعد الاشعري القاضي أبو بكر محمد بن الطيب البلاقاني البصري
المتكلم المشهور المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ببغداد ، ثم أبو المعالي عبد الملك بن محمد
الجويني امام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨ هـ بنيسابور
ثم اختلط الكلام بالرد على الفلاسفة فتعرضوا لشرح أقوالهم في المعقولات
وأصول الحكمة . وأول من فعل ذلك في كتبه الامام أبو حامد محمد بن محمد
حجة الاسلام الغزالي المتوفى بالطايران (قصة طوس) سنة ٥٠٥ هـ ، وأعظم من
أيد هذه الطريقة الشيخ أبو عبد الله محمد فخر الدين الرازي المتوفى بهراة
سنة ٦٠٦ هـ وتبعهما في ذلك المتأخرون

علوم أخرى

ومن العلوم التي عنيت بشأنها الأمة العربية غير اللسانية والشرعية
مستنبطة مباحثها من قرائح علماءها أو مستمدا بعضها من الامم السالفة علم
التاريخ والجغرافيا والاخلاق وسياسة الممالك وغيرها
ونذكر هنا كلمة في التاريخ والاخلاق اذ كان مادتهما في هذا العصر
من القرائح العربية ، ونرجى غيرها الى مبحث العلوم الدخيلة لأن استمداد
مسائلها الدقيقة كان من كتب الاوائل

التاريخ

ذكرنا في العصر الأول ان التاريخ عند العرب كان يشمل عدة فنون مثل السير والمغازى وفتوح البلدان وطبقات الرجال وفن النسب وتاريخ الممالك وقصص الانبياء وغير ذلك . وانه ألف في هذه الفنون في العصر الأول مئات الكتب، منها المنفردة، ومنها الشامل لعدة فنون، حتى كان الامام ابن جرير الطبرى هو القدوة في تأليف التواريخ العامة الجامعة لأكثر هذه الفنون ، وتبعه من بعده من مؤرخى العصر الثانى فى ذلك ، وزادوا عليه وأدخلوا فى تواريخهم كثيرا من المباحث الاجتماعية والسياسية والطبيعية والجغرافية والادبية. وأشهرهم فى ذلك المسعودى شيخ مؤرخى هذا العصر المتوفى سنة ٣٤٦

ومن أشهر أصحاب التواريخ العامة أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ صاحب كتاب تجارب الأمم ، ويطبع الآن فى أوربا على قوالب منقولة عن الصورة التى عثر عليها منه بالتصوير الشمسى فى ستة أجزاء كبار طبع منها جزء ، وذيله الوزير أبو شجاع المتوفى سنة ٤٨٨

وكان أكثر مؤرخى هذا العصر يذيلون التواريخ الكبار لمن قبلهم بأذيال مطولة ضنا بالوقت أن يضيع فيما فرغ منه سلفهم، فذيل ثابت بن سنان الحرانى تاريخ الطبرى وبلغ به الى السنة ٣٦٣ ، ثم ذيل هذا الذيل ابن اخته هلال ابن المحسن الصابى المتوفى سنة ٤٤٨ بكتاب كبير طبع بعض الجزء الثامن منه ملحقا بكتابه تاريخ الوزراء بمطبعة اليسوعيين ببيروت وبلغ به الى سنة ٤٤٧

ثم تلاه ولده غرس النعمة بن ذيل بلغ به الى سنة ٤٧٠ ثم داخله ابن الهمداني
 وعمه الى بعض سنة ٥١٢ وكمله أبو الحسن الراغوثي الى سنة ٥٢٧ وزاد عليه
 العفيف صدقة الحداد الى سنة نيف وسبعين وخمسمائة ، ثم كل عليه ابن
 الجوزي الى ما بعد سنة ثمانين ، ثم كل عليه ابن القادسي الى سنة ٦١٦ ، ثم
 نلخص خاتمة مؤرخي هذا العصر أبو الحسن علي بن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠
 تاريخه الكامل من الطبري ومن هذه الذبول وبلغ به سنة ٦٢٧ وهو من
 أهل الجزيرة

هؤلاء هم أصحاب التاريخ العام ، ونبغ في هذا العصر غيرهم كثير من
 مؤرخي التاريخ الخاص كأصحاب تواريخ بعض الممالك مثل أبي اسحاق الصابي
 صاحب تاريخ التاجي لآل بويه ، وأبي النصر محمد بن عبد الجبار العتيبي المتوفى
 سنة ٤٣١ صاحب كتاب النبي في تاريخ الدولة الغزنوية وخاصة سيرة محمود
 ابن سبكتكين وطبع بشرحه للمينيي الدمشقي بمصر ، وقد ألف هذا الكتاب
 بعبارة بليغة مسجوعة جعلته أدخل في باب الادب منه في باب التواريخ

وأصحاب طبقات الرجال كأبي البركات عبد الرحمن محمد بن الانباري
 صاحب طبقات الادباء النحويين المطبوع بمصر ، وأبي سعيد السيرافي صاحب
 طبقات النحاة البصريين ، وأبي بكر الصولي وهلال بن المحسن صاحب تاريخي
 الوزراء ، وأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد وعلمائها
 وكأبي منصور الثعالبي صاحب يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر وغيرهم
 من أصحاب المئات من كتب طبقات أصحاب الحديث والفقهاء والتفسير

من لا يحصون عددا

وقد اهتم المسلمون بتاريخ طبقات الرجال اهتماما كانوا به أسبق الأمم
لتدوين تواريخ الرجال ووضع المعاجم لذلك

علم الرياضيات

وهو من العلوم التي عنى بها العلماء في هذا العصر، وكتبوا فيه كتباً مختلفة
اللزعة لاختلاف منازع مؤلفيها . فمنهم من جنح الى مذاهب الحكماء الأوائل
في النفس وتهذيبها مثل ابن مسكوية في كتابه تهذيب الاخلاق، ومنهم من
مال الى مذهب الصوفية كالغزالي في كثير من أبواب الاحياء . ومنهم من
ذهب مذهب أهل الآداب كابي الحسن الماوردي صاحب كتاب أدب
الدينا والدين ، وفي كثير من كتب ابن سينا والفارابي وأبي حيان التوحيدي
مباحث نفيسة في الاخلاق فوق رسائلهم الخاصة بذلك

العلوم الدفيدة

في المشرق

علوم الحكمة الألهية والطبيعية والرياضية

بعد أن ترجم المسلمون في زمن المأمون كتب الاوائل برعوا في علومهم
وأكملوا ما نقصهم فكانوا في هذا العصر أعلم أهل الارض بها وأكثرهم انتفاعا
منها وأصبح لهم في كل فن منها كتب لا تحصى
وكان التابع منهم في بعضها لا يعوزه كثير من سائرهما ، بل كان الكثير

منهم قدم راسخة في الادب واللغة فوق رسوخه في الهندسة والكيمياء ، وهذا مما لم يتفق لامة من الامم ، وماذا الا لأن الكاتب باللسان العربي لا ينشب أن يصبغ بصبغة الادب مهما نأى عنه بصناعته

ومن أقطاب العلوم الدخيلة في المشرق أبو النصر محمد بن طرخان الفارابي الحكيم الكبير مخترع آلة الطرب المسماة بالقانون والمتوفى سنة ٣٣٩ ، وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب الكيمياء الشهير المتوفى سنة ١٣٦٤ على التحقيق ، والشيخ الرئيس حكيم المشرق أبو الحسن بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ وأبو الريحان أحمد بن محمد البيروني الفلكي الرياضي المقوم المتوفى سنة ٤٣٠ ونبغ في عصر هؤلاء وبعدهم كثير من الحكماء والرياضيين كان لهم ولأولئك الاعلام عظيم فضل في جعل اللغة العربية تنسع لجميع علوم الدنيا كما اتسعت لعلوم الدين ، ومن كتبهم وكتب حكماء المغرب اقتبست أوربا أصول مدينتها الحديثة

الشعر

في المشرق

قدمنا ان عناية ممالك المشرق كانت باجادة العلوم أكثر منها بالأدب لاستحيائهم آداب لغتهم ولذلك لم يمض على قاصية خراسان قرن من هذا العصر حتى لم يكن بها شاعر عربي يذكر في عداد فحول الشعراء واتضح أثرهم فيها جملة في أواخر هذا العصر ، وبقى الشعر في بلاد فارس والجليل ، لتناقص الرغبة في

الشعر العربي وشعرائه ، حتى لحق بالقاصية أخريات هذا العصر . ولم يعد يقوله
الا العلماء المتأدبون تفكها

أما بغداد فبقيت زاخرة بالشعراء الى سقوطها لتوسطها بين بلاد عربية
واتأثر العربية بها ، وان لم يظهر بها و بأقليم العراق نابغة منذ أختل أمر الخلافة
غير الشريف الرضى ومهيار الديلمي

ولم تتغير حالة الشعر من حيث أغراضه وفنونه وخياله ومعانيه ونفظه
وأسلوبه وأوزنه وقوافيه وضرابه الا قليلاً

فأما أغراضه فقد ازداد استعمال الشعر في ضوابط العلوم ونظم متونها كما
ازداد استعماله في التصوف ، ونشأت فيه طريقة الشعر الصوفي الرمزي فرمز
بقصائد النسيب والتشبيب والخريات وغيرها عن أصول مواجد الصوفية
وفنائهم في حب الله

ولما هان أمر الدين والسياسة وفشت البطالة ببغداد ظهر فيها طائفة
من شعراء الهزل والخلاعة والسخف والمجون والطنز بالناس ليضحكوا أهل
اللهو والفراغ من الرؤساء ، وسابق حلبتهم في ذلك أبو الحسن عبد الله
الحسين بن الحجاج الشاعر الكاتب المتوفى سنة ٣٩١ ، وأبو الحسن محمد بن
عبد الله بن سكرة الهاشمي العباسي المتوفى سنة ٣٨٥ ، وكان يقال ببغداد فيهما
« ان زمانا جاد بابن سكرة وابن حجاج لسخى جدا » وتبعهما أبو عبد الله
الحسين بن محمد الملقب بالبارع المتوفى سنة ٥٢٤ ، والشريف أبو يعلى بن
الهبار به المتوفى سنة ٥٠٤

وأما معانيه وخیالاته فزادت بنسبة ما نستدعيه زيادة أغراضه
وأما أسلوبه فمجنح كثيرا الى السهولة والتباعد عن الغريب
وأما أوزانه وقوافيه فزاد فيه كثير من أوزان الموشحات والازجال
وغيرها غير أن الغالب على شعر المشاركة كان وزن الدوبيت . وأكثرقائليه
من كان ينظم باللغتين الفارسية والعربية ، وغلوا في ذلك حتى صار يجمع من
الدوبيت دواوين حافلة

الشعراء

اشتهر بالشرق في هذا العصر غير من ذكرنا كثير من الشعراء وكان
جلهم من أهل بغداد ومدن العراق
فمن شعراء بغداد

- (١) أبو الحسن محمد بن عبد الله السلمي المتوفى سنة ٣٩٣
- (٢) أبو النصر عبد العزيز بن عمر الشهير بابن نباته السعدي المتوفى
سنة ٤٠٥

- (٣) الشريف الرضي وسنأى على ترجمته
- (٤) مهيار الديلمي وسند كره بعد
- (٥) أبو الفتح محمد بن عبيد الله سبط التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٤

ومن شعراء جرجان وخوارزم وأقصى خراسان

- (١) أبو طالب عبد السلام بن الحسين المأموني المتوفى سنة ٣٨٣

- (٢) القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣٩٢
- (٣) أبو الفتح على بن محمد البسقى المتوفى سنة ٤٠٠
- (٤) أبو المظفر محمد بن احمد الابيوردى المتوفى سنة ٥١٥
- (٥) القاضى أبو بكر ناصح الدين الارجاني المتوفى سنة ٥٤٤
- (٦) أبو اسمعيل الحسين بن على مؤيد الدين الطغراني المتوفى سنة ٥٥٧

الشريف الرضى

هو الشريف الرضى أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوى شاعر قریش
ونقيب الطالبين وجامع نهج البلاغة
ولد سنة ٣٥٩ ببغداد فى بيت الدوحة النبوية ، ودرس العلم ، فى طفولته
وقال الشعر وعمره لا يزيد كثيرا عن عشر سنين ، وفصح فيه وتزوّد من
العلوم اللسانية والشرعية والعقلية حتى صار عين أعيان بغداد نبلا وشرفا
وفصاحة ووجاهة ، وكان أبوه متوليا نقابة الطالبين والنظر فى المظالم والحج
بالناس ، فتنازل له عن كل ذلك فى حياته ، وبقي فى هذه الاعمال مدة حتى
تغير عليه الخليفة القادر بالله بسبب اتهامه عنده بميله الى العلويين الفاطميين
بمصر فصرفه عن أعماله

وكان به أنفة وعلو همة فمن ذلك قوله يخاطب القادر

مهلا أمير المؤمنين فاننا فى دوحة العلياء لا نتفرّق
ما بيننا يوم الفخار تفاوتٌ أبدا كلانا فى المفاخر مُعَرِّق
الا الخلافة ميّزتك فانى أنا عاطل منها وانت مُطَوَّق

فقال القادر على رغم أنف الشريف

منزلاته في الشعر :- — وشعر الشريف الرضى جار على أساليب العربية
الفصيحة ومناهج الشعراء المتقدمين من جزالة اللفظ وفخامة المعنى ، ويقرب
من شعر البُحترى ، غير أن شعره يغلب عليه الحماسة والتباعد عن عبث البُحترى
ومجونه ،

وللشريف مصنفات عدة ، منها ما جمعه من كلام على رضى الله عنه
في كتابه الذى سماه نهج البلاغة ، وأكثرت الناس على أنه موضوع صنعه الشريف ،
لما فيه من التعرض لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأذى والهجر مما
يَجِلُّ عنه أبو الحسن ، والظاهر أن الشريف جمع ما وقع له مما ينسب إليه ،
وفيه الصحيح والمشوب والذي وضعه غلاة الشيعة ، شأن من يستكثر في
الجمع ويصرفه الحب عن القصد ، وله مؤلفات كثيرة في التفسير والأدب
وديوان رسائل وديوان شعر مشهور طبع في مصر وغيرها

ومات الشريف سنة ٤٠٦ ببغداد ولم يحضر أخوه المرتضى جنازته حزناً
عليه ، ورتاه الشعراء من زمانه ومنهم المعرى

ومن بديع قول الشريف فى الشيب

غاطوني عن المشيب وقالوا لا ترع انه جلاء حسام
أيها الصبح زل ذمياً فما أظلم يومى من بعد ذلك الظلام
أرمدت شمسك المنيرة فودى فمن لي بظل ذلك الغمام
قلت ما أمن من على الرأس منه صارم الحد في يد الأيام

وقوله يصف سواد

أحبك يا لون السواد لأننى رأيتكما فى القلب والعين توءما
سكنت سواد القلب اذ كنت شبهه فلم أدر من عز من القلب منكما

مهيار الديلمى

هو أبو الحسين مهيار بن مرزويه الشاعر الكاتب أحد الشعراء المطبوعين
والفحول المجيدين

كان مجوسيا وأسلم على يد الشريف الرضى ، وعليه تخرج فى نظم الشعر
ووازن كثيرا من قصائده ، وعلى منواله نسج ، حتى أنه يُجَبَّل لقارئ الديوانين
أن ناظهما واحد ، غير أنه يلاحظ فى كلام مهيار سهولة وجنوحا عن الغريب ،
ويُرى فى كلام الشريف بعد تصور ودقة خيال . فهو يلى الشريف فى طريقتة
وفيهما تحقق معنى التلميد والاستاذ

سكن بغداد وأقام بها يخدم بالكتابة فى ديوان الخلافة ومات سنة ٤٢٨

ومعه شعره

بكر العارض تحدوه النعاجي (١) فسقاك الرى يا دار اماما
وبجرعاء الحمى قلبى فُعجج بالحمى واقرا على قلبى السلاما
وترجل فتحدث عجبيا أن قلبا سار عن جسم أقاما
قل لجيران الغضى آهاً على طيب عيش بالغضى لو كان داما

(١) العارض السحاب والنعاجى ربح الجنوب أو بينه وبين الصبا

يَصِلُ الْعَامُ وَلَا يَنْسَا كَمُو وَقُصَارَى الْوَجْدِ أَنْ يَسْلَخَ عَامَا
حَمَلُوا رِيحَ الصَّبَا مِنْ نَشْرِكُمْ قَبْلَ أَنْ تَحْمَلَ شَيْخًا وَخَزَامِي
وَابْعَثُوا أَشْبَاهَ حَكْمِي فِي الْكِرَى إِنْ أُرِذْتُمْ لَجْفُونِي أَنْ تَنَامَا

وهي طويلة

وله في القناعة

تَلَجِحِي عَلَى الْبِخْلِ الشَّحِيحَ بِمَا لَه أَفَلَا تَكُونُ بِمَاءِ وَجْهِكَ أَبْخَلَا
أَكْرَمُ يَدِيكَ عَنِ السُّؤَالِ فَتَمَا قَدَرُ الْحَيَاةِ أَقْلٌ مِنْ أَنْ تَسْأَلَا
وَلَقَدْ أَضْمَمْتُ إِلَى فَضْلِ قَنَاعَتِي وَأَبَيْتُ مَشْتَمَلَا بِهَا مُتَزَمَلَا
فَأَرَى الْعَدُوَّ عَلَى الْخِصَامِ بِشَاشَةٍ تَصِفُ الْغَنَى فَيَخَالِنِي مَتَمُولَا
وَإِذَا امْرَأَةٌ أَفْنَى اللَّيَالِي حَسْرَةً وَأَمَانِيَا أَفْنِيْتِهِنَّ تَوَكَّلَا
وله ديوان شعر كبير يقع في أربعة أجزاء طبع منها الجزء الأول ببירות

الطغراني (١)

هو مؤيد الدين الاستاذ العميد فخر الكتاب أبو اسمعيل الحسين بن

علي بن محمد الطغراني صاحب لامية العجم

وهو أصهباني الاصل ، برع في الكتابة والشعر حتى كان أوحد زمانه ، ولم

ينبغ في المشرق بعده من يضاهيه وترقت به الحال في خدمة سلاطين آل

سلاجوق حتى كان وزيرا للسلطان مسعود بن محمد السلاجوقى بالموصل . ولما قهره

(١) الطغراني من يكتب الطغراء (وهي الطرة) وكانت تكتب فوق البسملة بخط

خاص (يسمى الهمايوني الان) فيها نعوت السلطان والقاب

أخوه السلطان محمود كان أول من اعتقله الأستاذ أبو اسماعيل الطغرائى . قدس
بعض حسدته من رؤساء الكتاب الى محمود انه ملجذ فقتله ظالما سنة ٥١٣
وله ديوان شعر مطبوع فى الاستانة . ومن شعره لامية العجم المعتبرة من عيون
الشعر وقد كان قائلها ببغداد أثناء عطلة له من التصريف وهي مشهورة مشروحة
بشروح كيار وصغاراً أكثرها مطبوع

ومن رقيق شعره

يا قلب مالك والهوى من بعدما	طاب السلو وأقصر العشاق
أوما بدالك فى الافاقة والألى	نازعتهم كاس الغرام أفاقوا
مرض النسيم وصح والداء الذى	تشكوه لا يرجى له افراق
وهذا خفوق البرق والقلب الذى	تطوى عليه أضاغى خفاق

مقالة اللغة العربية

﴿ فى الممالك الغربية ﴾

ونعنى بها (بلاد الجزيرة والتهور والشام ومصر) وأفردناها بكلام خاص
لأن حالة اللغة العربية فيها تباين جالتها فى الممالك الشرقية اذ كان حكامها
وشعوبها القاطنون بها اما سلاسل عرب أو مسـتـعربين لم يعيد للعجمة أثر
بينهم ، ولأن معظم هذه الممالك كان يكون تابعاً لصاحب مصر فى غالب
الأحيان فالحوادث التى تؤثر فى أحوالها واجدة

ولما غلب متغلبو الفرس والترك على خلفاء بنى العباس لم يجد أمراء

العرب وجهاً لخضوعهم لهؤلاء المتغلبين ، فاستقلوا هم أيضاً بالجهات التي كانت تنزلها قبائلهم ، ووجد الخلفاء الفاطميون بالمغرب انهم أولى من هؤلاء الديلم والأتراك ، فاكثروا مصر والشام وبعض الجزيرة واستولوا على الحجاز وأسسوا دولة عربية ضخمة بقيت نحو ٢٧٠ سنة ثم ضعف أمرهم بغارة الصليبيين ومنازعة مواليهم ووزرائهم لهم في السلطان على مثل ما كان في الدولة العباسية ، حتى أبادهم صلاح الدين الأيوبي ، وأسس هو وأولاده وأولاد أخيه وأحفادهم دولة كردية النسب عربية اللسان والنزعة ، وبقيت دولهم حتى انتزعها منهم مواليهم من التركمان وسقطت أثناء ذلك الدولة العباسية

أما أمراء العرب الذين امتقلوا ببعض الإمارات في أواخر العصر الأول الى أواسط الثاني ، فهم بنو حمدان بالجزيرة وحلب ثم بنو عقيل وبنو منقذ في هذه البلاد أيضاً ، وبنو أسد بالحلة وكان أكثرهم فصحاء شعراء يجزلون عطايا الشعراء ويكرمون الأدباء

ولهذا بقيت العربية زاهية زاهرة في هذه الممالك غالبية على لسان أهلها ، ولبثت الآداب من الشعر والخطابة والكتابة متمكنة من ملكات أدبائها الى عصرنا هذا ، على حين انقرضت من ممالك المشرق منذ أواسط القرن السادس ، ولكن قرب الجوار أعدها بعض ما اعترى اللغة من الصبغة الفارسية في العصر الأول والثاني

وكان اشتغال قطان الممالك الغربية بالادب يربو على اشتغال قطان المشرق حتى بغداد ، كما كان انكباب هؤلاء على العلوم العقلية واستخراج

دقائقها لا يعادلهم فيه أحد
وكانت أساليب اللغة العربية في الممالك المغربية ترق وتسهل في الزمن
الذي فيه في المشرق ترك وتصعب ، وخاصة الشعر

النثر

﴿ اللغة العامية « أو لغة التخاطب » ﴾

لا يعد هذا التفاوت الذي ذكرناه الا شيئاً يسيراً في جانب ان لغة
عامة الشعوب في هذه الممالك كانت في هذا العصر ولا تزال عربية الصبغة
وهي في ممالك المشرق أعجمية

والمتبع لما أتر عن عوام مصر والشام من لغتهم فيما حفظ في بعض
المواويل والازجال التي عثرتنا عليها يظن ان نسبتها الى الفصيحة كنسبة
عامية المتعلمين في زمننا اليها أي ان نحو ثلثي ألفاظها صحيح البناء وأن أواخرها
مطلق من الاعراب

الخطابة

قلما كانت الخطابة في هذه الممالك تستعمل قبل الحروب الصليبية في
غير خطب الجمع والعيد والزواج . فلما دهم المسلمين مادهمهم من غارة أوروبا
الصليبية ظهر بينهم كثير من النوعاظ والخطباء والمحرضين على الجهاد ، ولكن

هذه الخطب لم تكن باللسان البليغ الذي لا يفهمه الا الخاصة ، بل كانت باللغة
الفصيحة العادية

ولم يعد من بلغاء الخطباء الا خطباء المساجد الجامعة في كبار المدن
ومن أشهر خطباء هذا الزمن الامام البليغ الخطيب المصقع أبو يحيى
عبد الرحيم بن محمد بن اسمعيل بن نباته خطيب سيف الدولة الحمداني بحلب
المتوفى سنة ٣٧٤ صاحب ديوان الخطب المشهور المطبوع ببيروت
والامام أبو المعالي محمد بن علي محيي الدين المعروف بابن ذكي الدين
الدمشقي خطيب أول جمعة صليت ببيت المقدس بعد فتحه من يد الصليبيين
وتوفى سنة ٥٦٤

وأبو اسحق ابراهيم بن منصور بن المسلم المصري المعروف بالعراقي
خطيب جامع القسطنطينية المتوفى سنة ٦١٣

الكتابة

كتابة الرسائل

كانت في النصف الاول من هذا العصر على مثل ما كانت عليه في
المشرق ، بل ربما قل فيها التزام السجع ومحسنات البديع ، أي مدة بني
حمدان والفاطميين

وكان آخر من نسج على هذا المنوال العماد الكاتب الاصبهاني

المتوفى سنة ٥٩٧

ولما نبه شأن القاضي الفاضل في أواخر الدولة الفاطمية أراد أن يحاكي كتاب المشرق في البديع ، فزاد عليهم وأرجم ، واخترع طريقة جديدة يصح أن تسمى (الطريقة الفاضلية) وذلك انه جرى من قبله من كتاب المشرق في التزام السجع والجناس والطباق ، وزاد عليهم ان يستعمل في رسائله أكثر أنواع البديع التي كانت فاشية وقتئذ في الشعر كالتورية والاستخدام والتاميح وغيرها ، وأكثر من حل المنظوم ، واقتباس الآيات ، وتضمين الامثال ومشهور الاقوال ، وأمعن في التشبيه والاستعارة ، مع قلة المبالاة بالمبالغة والاعراق في ذلك ، حتى جاءت معاني رسائله منقادة لألفاظها وأساليبها ، غير أن هذا التكلف لم يظهر في رسائله بقدر ما ظهر في رسائل من خلفه في دواوين الانشاء بمصر والشام ، لسلامة ذوق الرجل وانطباعه على طريقته وسعة مادته في اللغة ووفرة محفوظه من الأدب . فلما جرى في حلبته من ليس في صفاته حسب أن البلاغة تملك ناصيتها بعشرات من أنواع البديع ، فامتنعت في تكلفها تكلفا أبعد الكتابة عن أساليب البلاغة العربية جملة . ولم يظهر أثر ذلك جليا الا بعد سقوط بغداد وتراجع الرسائل العربية الى دواوين مصر والشام والمغرب

الكتاب

برع في كتابة الرسائل الديوانية في هذه الاقطار عدة بلغاء منهم

(١) ضياء الدين نصر الله محمد بن محمد بن الاثير صاحب المثل السائر المتوفي سنة ٦٣٧

(٢) أبو القاسم علي بن منجب بن الصيرفي المصري المتوفي بعد سنة ٥٥٠

(٣) موفق الدين يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال كاتب المصريين

وصاحب ديوان الانشاء المتوفى سنة ٥٦٦

(٤) الامير أبو المظفر أسامة بن مرشد الشهير بابن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤

(٥) أبو عبد الله محمد بن محمد عماد الدين الكاتب الاصبهاني المتوفى

سنة ٥٩٧

(٦) القاضي الفاضل ونذ كرهنا ترجمته

القاضي الفاضل

هو أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد على

البيسناني اللخمي كاتب الديار المصرية وصاحب الطريقة الفاضلية، والكتابة

البديعية، ووزير صلاح الدين ومدبر مملكته في الحروب الصليبية

وهو عربي الاصل من بيت علم وقضاء. وكان أبوه من أهل عسقلان

قاضيا عليها، ثم تولى نيابة الحكم بمدينة يَسَان من أرض فلسطين فنسب اليها

ولد القاضي الفاضل بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩ وتعلم على أبيه وغيره.

ولما شدا العربية قدم مصر وهو شاب صغير لتعلم الكتابة والخدمة في الديوان

في أواخر الدولة الفاطمية، وتوجه الى ثغر الاسكندرية للخدمة في ديوان ابن

حديد قاضي الاسكندرية وكاتبها، فتعلم عليه، وكانت كُتبه البليغة ترد بانشاء

القاضي الفاضل الى القاهرة، وظهر بها فضله، فاستقدم أيام الظاهر الى القاهرة

ودخل في عداد كتاب ديوانه، غير أنه لم يقنع بما حصل بل لازم خدمة أكابر

القضاة والكتاب في الديوان، وأخذ عنهم وحاكهم، مثل القاضي أبي الفتح

محمود بن قادوس وموفق الدين يوسف بن الخلال وغيرهما من رؤساء دواوين
الانشاء ، فمهر في الكتابة ، وطوح به استقلاله الى توليد طريقة غربية أخذ
أصولها من بعض كتاب الشام والعراق وبعض كتاب الدولة المصرية ، فجعل
أصولها السجع والاستعارة والطباق ومراعاة النظر والتلميح ، وغالى جدا في التورية
والجناس ، فأصبحت الكتابة بهذه الطريقة صناعية محضنة تجري مع مناسبات
الالفاظ أكثر من جريانها مع اصابة الغرض والبلاغة العربية

وكانت كتابة القاضي الفاضل مع كل هذه القيود مقبولة بليغة في ذاتها لطول
بأعه في اللغة وكثرة اطلاعه على صنوف الكتابة وسرعة بديهته وصفاء خاطره ،
الا أن طريقته خدعت بعده كتاب مصر والشام وغرّبت الى الاندلس ،
فجراه في كتابته كل قليل البضاعة من الادب معتمدا على تعمل البديع الذي
لا يكلف صاحبه أكثر من معرفة خمسين أو ستين نوعا من أساليب الكلام .
وظهرت سيئات هذه الطريقة مجسمة في القرن السابع والثامن في دولة المماليك
فضرّبت بها الكتابة ضربة لم تنتعش منها حتى فاجأتها ضربة أشد وأنكى
بجعل اللغة الرسمية هي التركية زمن العثمانيين

ولما سقطت الدولة الفاطمية تولى القاضي الفاضل وزارة صلاح الدين
وكان يتردد بين مصر والشام في الحروب الصليبية ودبر المملكة أحسن تدبير
وصدرت عنه مكاتبات بين مصر والشام وبينهما وبين دار الخلافة في العراق
مما لو أحصى لبلغ مجلدات ، ولا تزال كتب التاريخ والأدب ملأى بكثير منها
ويبقى في وزارة صلاح الدين حتى مات ، فوزر لابنه العزيز على مصر ،

ثم وزر من بعده لأخيه الملك الأفضل ثم نازع الملك العادل أخو صلاح الدين ابن أخيه وملك مصر، فمات القاضي الفاضل في يوم دخوله القاهرة سنة ٥٩٦ هـ وكان القاضي الفاضل خيراً ديناً محسناً وفيماً محباً لجمع الكتب وبلغ عدد كتبه التي جمعها من أقطار الارض مائة ألف مجلد ، ووقف أوقافاً على مدارسها التي بناها للشافعية والمالكية وفك رقاب الاسرى . وله رسائل كثيرة مطولة

ومن رسائله القصيرة رسالة كتبها على يد خطيب عيذاب الى صلاح الدين يتشفع له في توليه خطابة الكرك وهي

« أدام الله السلطان الملك الناصر^(١) وثبته ، وتقبل عمله بقبول صالح وأثبته ، وأخذ عدوة قاتلاً أو بيته ، وأرغم أنفه بسيفه وكتبته
 خدمة المملوك هذه وإرادة على يد خطيب عيذاب . ولما بناه المنزل عنها ،
 وقل عليه المرفق منها ، وسمع هذه الفتوحات التي طبقت الارض ذكرها ، ووجب
 على أهلها شكرها ، هاجر من هجير عيذاب وملاحها ، ساريا في ليلة أمل كلها
 نهار فلا يسأل عن صباحها ، وقد رغبت في خطابة الكرك وهو خطيب ، وتوسل
 بالمملوك في هذا المثلث وهو قريب ، ونزع من مصر الى الشام وعن عيذاب
 الى الكرك وهذا عجيب ، والفقر سائق عنيف ، والمذكور عائل ضعيف ،
 وأطف الله بالحق بوجود مولانا لطيف ، والسلام

وله شعر بديع وفي رأيه أن شعره أرق من كتابته وأبلغ

التدوين والتصنيف

في الممالك الغربية

كان اشتغال علماء الجزيرة والشام بتدوين العلوم الادبية والشرعية والتاريخ لا يقل عن اشتغال علماء المشرق ، غير ان استيلاء بني حمدان وبني عقيل وبني منقذ والفاطميين على هذه الممالك أكثر من ثلثمائة سنة ، والجميع شيعة غالية جعل قرأح علماءها تنصرف الى تدوين فقه الشيعة والتقنين فيه وفي عقائدهم . وكان هؤلاء الخلفاء والامراء أولى شغف عظيم بالحكمة والنجامة وسائر العلوم العقلية والطبيعية . فدون لهم علماءهم فيها وفي فقههم وعقائدهم ألوف الكتب وجمعوا في دور كتبهم وخزائنهم منها ومن كتب غيرهم مئات الألوف من المجلدات في مصر القاهرة وطرابلس الشام ودمشق وحلب وغيرها . فلما توالى المحن والمصائب على بلاد الجزيرة والشام بالثورات الاهلية وبغارة الصليبيين وأخرقت المدن وخربت انقضت الكتب وعفت آثارها . ويقال ان دار الكتب التي أحرقها الصليبيون بطرابلس الشام كانت تحتوي على ثلاثة آلاف ألف مجلد ، ولو قدر ان هذا العدد مبالغ فيه الى عشرة أمثاله لكان البقية شيئاً جماً . وعقب هذا ما قام به صلاح الدين الايوبي من تبديد كتب الفاطمية وبيعها للوراقين وأصحاب المواقد تعفياً لآثارهم وتدميراً على عقائدهم ، فنقد مع كتبهم شيئاً خطير من كتب غيرهم ، وبقيت الكتب الادبية والتاريخية

اقتناها واحتبسها منها لنفسه القاضي الفاضل ، ومن خزائنه انتشرت في بقاع الارض .

وفي عصر الدولة الايوبية كانت حركة التدوين منصرفة الى تنويع كتب الحديث وتجديد فقه الشافعية والمالكية وتأييد مذهب الاشاعرة في الكلام وسير الأبطال والغزوات بمعاودة صلاح الدين وآل بيته . فألفت في جميع ذلك كتب مختلفة لا يزال كثير منها باقيا بعد

ومع كل هذا لم تصل عناية علماء هذه الممالك بتدوين العلوم ولا سيما العقلية منها مبالغ عناية علماء المشاركة لتأثير عظمة بغداد والمدرسة النظامية في الشرق ، ولاشتغال بال المسلمين في الجزيرة والشام ومصر بالغارة الصليبية أكثر من مائتي سنة . وأعقبها غارة التتار المشؤومة على الجميع ، ولله الامر من قبل ومن بعد

كتابة التصنيف

في الممالك العربية

كانت كتابة التصنيف في هذه الممالك على نحو ما كانت عليه في المشرق من حيث النظام والتقسيم غير أنها كانت أقرب الى الفصاحة والسهولة ووضوح المعاني والاعراض وتحرير العبارة وأحكامها من كتابة المشاركة . ويظهر هذا الفرق كل الظهور في كتب العلم وخاصة كتب فقه الشافعية أواخر هذا العصر . أما كتب المالكية فبقيت خالية من مزايا صناعة التأليف حتى أتى ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ وعمل مختصره فكان من أجل كتبهم . وعلى هذا الاثر

درج علم الاصول

ونشير هنا لكلمات قليلة الى مجمل حالة العلوم في الممالك العربية مراعاة

للنظام وتوفية للمقام

﴿ مجمل حالة العلوم الاسلامية والدخيلة ﴾

الادب

كان الأدب في الجزيرة والشام ومصر فاشيا في كتابة الدواوين وقول الشعر وحفظ مادته ودراية أخباره ومحاضراته أكثر من فشو في صناعة التأليف فكان الادباء جلهم شعراء أو كتابا بحيث لم يغلب على أديب منهم التأليف في الادب حتى نعدده في عداد كتابه فحسب ، بل ان كثيراً من العلماء والمؤرخين والمحدثين والنحاة كانت لهم كتب في الادب كما كانت لهم في فنونهم ومن أفضل من صنف في الادب من الشعراء أبو العلاء المعري ومن الكتاب العباد الكاتب الاصبهاني والقاضي الفاضل وعلي بن ظافر صاحب بدائع البدائة المتوفى سنة ٦٢٣ وعلي بن منجب بن الصيرفي المصري المتوفى بعد سنة ٥٥٠ وابن الاثير نصر بن محمد المتوفى سنة ٦٣٧

ومن المؤرخين محمد بن عبيد الله المسبجي المؤرخ المشهور المتوفى سنة ٤٢٠ والحسن بن ابراهيم بن زولاق المصري المتوفى سنة ٣٨٧ والقاضي علي بن يوسف القفطي ثم الحلبي المتوفى سنة ٦٤٦ وغيرهم ودخل في غمار كتاب الادب في الجزيرة والشام ومصر أزمان الحروب

الصليبية جماعة صنفوا قصصاً حماسية تتضمن سير الشجعان ومكائد الحروب ويرجع أكثرها إلى أصول تاريخية بولغ فيها . منها قصة عنتر بن شداد وزاد فيها القصص على طول الزمان أشعاراً ووقائع ، ويغلب على عبارتها السجع وقصة ذات الهمّة، وأظن أن مؤلفها لم يتمها . وكثير غيرها من كتب من القصص التي حوكت بها كتب المغازي وفتوح البلدان، وهي محشوة بالمبالغات ومكتوبة بعارة منحطة عن كتابة أصحاب المغازي . والتبس أمرها على بعض من يتعاطى التأليف في زماننا فذكرها في عداد كتب الواقدي وابن اسحق وغيرهما لأن بعض الناسخين نقلها هذه الأسماء كما نقلوا رواية قصة عنتر الأصمعي، وعدوه ممن عمر وأدرك الجاهلية والإسلام

النحو

أما النحو في هذه الممالك فكانت حالته في الجملة أشبه بحالته في المشرق أو تنقص قليلاً ومن أفاضل النحويين فيها

(١) أبو جعفر أحمد بن محمد بن النحاس المتوفى غرقاً في النيل سنة ٣٣٧

(٢) أبو عبد الله الحسين أحمد بن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠

(٣) أبو الحسين يحيى بن معط نزيل مصر والشام صاحب الفية ابن معط

المتوفى سنة ٦٢٨

(٤) أبو محمد عبد الله بن برى المقدسي المصري المتوفى سنة ٥٨٢

(٥) أبو عمرو عثمان جمال الدين بن عمر الشهير بابن الحاجب صاحب

الإشافية في الصرف والكافية والامالي في النحو أفضل هذا العصر وتوفي

سنة ٦٤٦

اللغة

أما اللغة فليس لهذه الممالك فيها طول هذا العصر من عمل كبير أهم من كتاب كتاب النهاية شرح غريب الحديث لابي السعادات المبارك بن محمد المشهور بابن الأثير الجزري اللغوي المحدث المتوفى سنة ٦٠٦ وطبع في مصر مرتين في أوبعة أجزاء وهو من أمهات كتب اللغة

علوم البلاغة

لم يزد علماء هذه الممالك في البلاغة على ما وضعه علماء المشرق غير البديع فقد زاد فيه عبد العظيم بن أبي الاصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ أنواعا كثيرة أوصلها إلى تسعين نوعا في كتابه تحرير التحجير . وإذا اعتبرنا ان كثيرا من مباحث كتاب المثل السائر لأبي الفتح ضياء نصر بن محمد بن الأثير الكاتب المتوفى سنة ٦٣٧ من صميم علوم البلاغة عددناه من خير كتبها لولا عجب في صاحبه

التفسير والحديث

أما هذان الفنان فقد كانت الطريقة فيهما هي طريقة المشاركة بعينها ولم يظهر فيها تأليف عظيم أفضل مما ألفه هؤلاء، وإنما زادت العناية في هذه الممالك بقسم طبقات الرجال وتقدهم

ومن أفضل محدثي هذا العصر الامام الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن
المعروف بان عساكر ان الدمشقي المتوفى سنة ٥٧١ والامام أبوطاهر أحمد بن
محمد السلفي محدث الاسكندرية المتوفى سنة ٥٧٦

الفقه والاصول

كان هذا العصر عصر تحرير الفقه والاصول وتنقيحهما ولكن ذلك لم
يتم في مصر والشام الا في آخرياته لمزاحة فقه الشيعة من الفواطمية والاسماعيلية
لفقه أهل السنة في حين ان المشرق كان في شغل شاغل به . ولما قطع صلاح
الدين دابر الفاطمية بذل جهده في نشر فقه أهل السنة وخاصة فقه الشافعية
وأكثر هو ووزرائه من بناء المدارس وحبس الجرايات عليها وتيسير الطلب
على أهل العلم

ومن ربي في احضان هذه الدولة من العلماء تقي الدين أبو عمرو عثمان
ابن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٣ وشيخ الاسلام أبو
ذكريا النووي

الكلام

كان لعقائد الشيعة والباطنية في هذه الممالك رواج في مدة الدولة الفاطمية
ثم ساد مذهب الاشعري فيها بعد هلاكهم ، وبقى كذلك الى الآن . ومعظم
علمائه هم علماء الفقه والاصول

العلوم الرقيد

راجت هذه العلوم بأنواعها في مدة الدولة الفاطمية وكانت خزانة كتب العزيز ودار الحكمة والمرصد اللذان أنشأهما الحاكم أعظم مظهر لذلك ومن نبغ في هذا العصر من الحكماء والفلكيين والرياضيين ابن يونس الفلكي المصري وابن الهيثم الرياضي نزيل مصر وابن رضوان الطيب وابن البيطار صاحب المفردات وغيرهم

التاسع

زادت عنايه المؤرخين في هذا العصر بالتاريخ الخاصة بالممالك وكبار المدن والسير وتاريخ الرجال
ومن أكبر مؤرخيهم

- (١) أبو عمر الكندي المصري المتوفى سنة ٣٥٥ صاحب قضاة مصر وفضائل مصر وتاريخ مصر
- (٢) وأبو محمد الحسن بن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧ المتقني أثر الكندي في تكميل كتبه والنسج على منواله
- (٣) والامير محمد بن عبيد المسبجي المتوفى سنة ٤٢٠ صاحب أكبر كتاب لتاريخ مصر
- (٤) وأبو عبد الله محمد القضاعي صاحب خطط مصر المتوفى سنة ٤٥٤
- (٥) والامام الكبير المحمدي أبو القاسم علي بن الحسن المعروف بابن

عساكر دمشق المتوفى سنة ٥٧١ صاحب تاريخ دمشق العظيم في ثمانين
مجلدة كبارا

(٦) وأبو عبد الله محمد الملقب عماد الدين الكاتب الاصبهاني المتوفى
سنة ٥٩٧ صاحب كتاب خريدة القصر في طبقات الشعراء الصليبية وكتاب
الفتح القدس والسييل على الذيل ذيل به ذيل السمعاني على تاريخ بغداد
وكتاب أخبار آل ساجوق

(٧) والقاضي بهاء الدين يوسف بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ صاحب
سيرة صلاح الدين وغيرهم من المؤرخين

الشعر

في الجزيرة والشام ومصر

نكتفي في وصف حالة شعراء الشام وما يقاربها من أرض الجزيرة بملخص
وجيز من كلام أبي منصور الثعالبي في يتيمة وهو من فحول أدباء هذا العصر
وأهل البصر بالشعر قال

لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما
يجاورها في الجاهلية والاسلام ، والكلام يطول في ذكر المتقدمين منهم ،
فأما العصريون ففيما أسوقه من غرر أشعارهم أعدل الشهادات على تقدمهم
والسبب في تبرز القوم قديما وحديثا على من سواهم في الشعر قريتهم
من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة

ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومدخلتهم إياهم . ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبنى ورقاء هم بقية العرب والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين آداب السيف والقلم، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل ، انبعثت قرائمهم في الاجادة فقادوا محاسن الكلام بالين زمام وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا . وما نبغ فحل من أدباء المشرق إلا استقى من معين أدباء الشام والجزيرة ، أما بالاصالة منهم أو بالاخذ عن أخذ عنهم وانكب على حفظ أقوالهم ومدارسة أدبهم ، ومن هؤلاء أبو بكر الخوارزمي والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني . والصاحب بن عباد وكان له دفتر خاص بأدب أهل الشام لا يزال ينظر فيه ويعجب به ، انتهى ببعض تصرف وبقية حالة الشعر على ما وصفه الى قبيل انتهاء هذا العصر ، وفي القرن الاخير شاركت مصر الشام والجزيرة ، ونبغ فيها كثيرون في أزمان الحروب الصليبية

وكانت اغراض الشعر وموضوعاته عين ما كانت عليه في الشرق الا ما كان من شعر أبي العلاء في اللزوميات ، فانه تعرض لاغراض شتى من فلسفة واجتماع وغيرهما ، ولكن معاني الشعر وخيالاته وتصوراته اختلفت كثيرا عن مثلها في شعر الشرق بما أدخله أبو الطيب المتنبى وأبو العلاء المعري من الحكم والامثال وشرح الحقائق الطبيعية والفكرية وغيرهما . وأما أسلوبه فكان الى

متتصف هذا العصر متينا رصينا ، ثم دخلته المحسنات البدعية بالتدرج مع
السهولة والركة

الشعراء

أما الشعراء الذين نبغوا في هذا العصر في الجزيرة والشام ومصر فكثير
لا يحصون . فمنهم

- (١) ملك الشعر وحكيمه أبو الطيب المتنبي وسنترجم له بعد
- (٢) وأبو فراس الحمداني وسند كره أيضا
- (٣) وأبو الفرج محمد بن أحمد الملقب بالأوواء الدمشقي المتوفى سنة نيف
وتسعين وثلثمائة

- (٤) والسرى بن أحمد الكندي المعروف بالرفاء المتوفى سنة ٣٦٣
- (٥) وأبو الفرج عبد الواحد الببغاء المتوفى سنة ٣٩٨
- (٦) وأبو العباس محمد النامي المتوفى سنة ٣٩٩
- (٧) وأبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد الخالديان - توفي أبو بكر سنة ٣٨٠
وأبو عثمان في حدود سنة ٤٠٠ وكل هؤلاء من شعراء سيف الدولة
- (٨) وشيخ المعرة وزاهدها وحكيمها أبو العلاء المعري وسند كره
- (٩) وأبو علي الأمير تميم بن المعز الفاطمي المتوفى سنة ٣٧٤
- (١٠) وأبو حامد أحمد بن محمد الانطاكي المعروف بأبي الرقعمق المتوفى

سنة ٣٩٩

- (١١) وعبد المحسن بن محمد الصوري المتوفى سنة ٤٧٣

(١٢) وأبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس المتوفى سنة ٤٧٣.

(١٣) وأبو عبد الله أحمد بن محمد المعروف بابن الخياط الدمشقي المتوفى

سنة ٥١٧

(١٤) والقاضي أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله المعروف بابن قلاقس

الاسكندري المتوفى سنة ٥٣٢

(١٥) ومهذب الدين محمد بن منير الطرابلسي المتوفى سنة ٥٤٨

(١٦) والقاضي الرشيد أبو الحسن المعروف بابن الزبير الغساني الاسواني

المقبول سنة ٥٦٣

(١٧) والقاضي السعيد هبة الله بن جعفر المقاب بابن سناء الملك المتوفى

سنة ٥٩٢

(١٨) وخاتمة الشعراء أبو المحاسن محمد بن الحسين بن عُنَيْن المتوفى سنة ٦٣٠

أبو الطيب المتنبي

هو المثل السائر والفلك الدائر الشاعر الحكيم أبو الطيب أحمد بن الحسين

ابن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي المتنبي خاتم ثلاثة الشعراء

وغاية ما بلغه الشعر من الارتقاء

منشؤه ومرباه: — وهو عربي صميم من جعفي بن سعد العشيرة

احدى قبائل اليمانية . ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ في محلة كندة فنسب اليها، وليس

بكندي، ونشأ بها، وأكب على تعلم العربية من صباه . وكان نادرة في الحفظ

يحفظ كل ما يقرؤه. فنبغ في اللغة نبوغا جعله يحيط بغريبها وحوشها، وكان لا يسأل عن شيء إلا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر حتى قيل أن الشيخ أبا علي الفارسي قال له يوما كم لنا من الجموع على وزن فعلى؟ فقال المتنبي في الحال (حجلى وظربى) قال أبو علي (فطالمت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لذين الجمعين ثالثا فلم أجد)

وكان أبوه فيما يقال سقاء، فخرج به إلى الشام. ورأى أبو الطيب أن استتمام علمه باللغة والشعر لا يكون إلا بالمعيشة في البادية. فخرج إلى بادية بني كلب، وهو بعد فتى لا يزيد عمره على عشرين سنة فأقام بينهم مدة يشدهم من شعره، ويأخذ عنهم اللغة، إذ كانت لا تزال صحيحة بالبادية، فعظم شأنه بينهم، ونفذ أمره فيهم. وكان الأعراب الضاربون بمشارك الشام شديدي الشغب على ولائها، فوشى بعضهم إلى لؤلؤ أمير حمص من قبل الأخشيدي بأن أبا الطيب ادعى النبوة في بني كلب، وأنه تبعه منهم خلق كثير بحيث يخشى على ملك الشام منه. فخرج لؤلؤ وحارب بني كلب وقبض على أبي الطيب وسجنه طويلا، ثم استتابه وأطلقه

وهذا ما أراه، وهو المقبول، إذ لا يعقل أن صبيا في هذه السن يغوى قبيلة مسلمة فصيحة، ويخرجها عن الإسلام بهذيان يقوله من الاسجاع التي يروون أنه ادعى نزولها عليه مثل (والنجم السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفي أخطار. أمض على سننك، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين، فإن الله قانع بك زيغ من ألد في الدين وضل عن السبيل)

مع أن أقل صعوك في بني كلب يرتجل خيرا منها . ولعل وجود أبي الطيب في عصر كله فتن وخوارج على الخلفاء ، وكل من قدر على اقتطاع أرض بالقوة ملكها ، أطمعه ان يخرج الى البادية ، ويعيش فيها مدة يتخذ له فيها أنصارا يغير بهم على أطراف العراق والشام . ولذلك نجد في كلام من يروي حكاية تنبئه ادعاءه انه شريف علوي . وما ذاك الاطعمة في اقامة دولة بين قوم يجهلون حقيقة نسبه . والافكيف يدعى نسبه الى محمد صلى الله عليه وسلم ويخرج عليه بدين آخر

وخرج أبو الطيب من السجن وقد لصق به اسم المتنبى مع كراهته له وشدة جحوده وانكاره ما نسب اليه . والظاهر أن مماروج هذه الاشاعة وسهل قبولها علو همة أبي الطيب وشدة تعاضمه وتكبره وأنفته وميله الى أن يكون أميرا أو واليا ، وتدرعه لذلك بتعلم الفروسية وحضور المعارك مع سيف الدولة وصبره في مقام الطعن والضرب . فرأوا أن من تكون هذه همته بعد خذلانه لا يبعد أن تكون سمت به الى مقام النبوة ، والعصر عصر قرامطة وباطنية يسوغ فيه استماع مثل هذه الارجيف

ولما خرج أبو الطيب من السجن لحق سنة ٣٣٧ بسيف الدولة بن حمدان أمير حلب والجزيرة والثغور ، فمدحه بمدائح خلدت وخلدت اسمه أبد الدهر . وحضر معه الوقائع العظيمة مع الروم ، وحدث في واقعة منها أن دارت الدائرة على سيف الدولة ، وتشتت جنده ، وهلك أتباعه ، وثبت في ستة نفر أحدهم أبو الطيب ، فاخترقوا صفوف العدو ونجوا . وبقى أثر اعند سيف الدولة

مقدما على جميع حاشيته و بطاته مع صلفه وتبهه، فحسده بطاته، فوشوا به اليه
وكان أشدهم في ذلك ابن خالويه النحوي، فجرت مناظرة بينه وبين أبي الطيب
في مجلسه، فضر به ابن خالويه بمفتاح حديد في وجهه فشججه، ولم ينتصف منه
سيف الدولة، فخرج الى مصر سنة ٣٤٦ مغاضبا لسيف الدولة، قاصدا كافورا
الاخشيدي، ووعد هذا أن يوليه، فطمع أن تم في مصر أمنيته، وصاحبها أسود
خصي، فمدحه بقصائد سنية. ولما رأى كافور تعاليه في شعره وسموه بنفسه،
خافه. وعبث فيه فقال: يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم أما
يدعى المملكة بعد كافور؟ فحسبكم. فأدرك أبو الطيب نيته وعاتبه عتابا أمضه،
واستأذنه في الخروج من مصر، فلم يأذن، وماطله خوفا من هجائه. فاستغفله
في ليلة عيد النحر وخرج من مصر سالكا طريق صحراء طورسينا وبادية
الشام حتى خرج الى الكوفة ودخل بغداد، ولاقى بها الادباء والرؤساء. ثم
خرج الى عضد الدولة فمدحه ومدح ابن العميد، ورجع من عندهما بالاموال
الطائلة والدخائر والاعلاق النفيسة الى أمواله التي جمعها بجرصه وبخله، فعاد الى
بغداد، وخرج منها الى الكوفة، فخرج عليه أعراب بني ضبة، وفيهم فاتك
ابن أبي جهل، وكان قد هجاه هجاء مُقَدِّعا. فقاتلهم قتالا شديدا حتى قتل هو
وابنه مُحَمَّدٌ وغلماهُ مُفْلِحٌ، وقيل: انه لما رأى الغلبة عليه همَّ بالفرار، فقال له
أحد غلمانهِ: لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القاتل

فألخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال: قتلني قتلك الله! وكر راجعا وقاتل حتى قتل سنة ٣٥٤

أخلاقه وصفاته: — كان المتنبي بعيد الهمّة ، قوى الشكيمة ، شجاعا صنديدا ، يتشبه بالملك ، ولا يمشی ولا يدخل على الملوك الا وهو متقلد سيفه ، وقلما ينشدهم الا جالسا ، ويركب في موكب من مماليكه مدججين بالاسلحة ، وكان عفيفا قليل المزاح ، لم يشرب النبيذ الا مرة واحدة ، وكان مع كل هذه الصفات بخيلا شديد الحرص ، واعله كان ينتظر أن يكون له من ماله دولة تحقق أطماعه

منزله في الشعر: — لا خلاف بين جميع من كتب في الشعر العربي أنه لم ينبغ في الشعر بعد المتنبي من بلغ شأوه أو دانه ، والمعري على بعد غوره ، وفرط ذكائه ، وتوقد خاطره ، وشدة تعمقه في المعاني والتصورات الفلسفية ، يعترف بأبي الطيب ويقدمه على نفسه وغيره . وانما الخلاف في أي الثلاثة أشعر؟ أبو الطيب أم أبو تمام أم البحتري ؟ والمنصفون يخرجون البحتري من موضوع الخلاف كما أخرجوه أبو الطيب ، ويقولون انه هو الشاعر الحقيقي ، وأن كلامه أرق من كلامهم وخياله خيال شاعر ، ويجعلون موضوع الخلاف كلام أبي تمام والمتنبي لانهما شاعران حكيمان ، أي أنهما غالبا جانب المعنى والحكمة على جانب اللفظ ، ولهم في الموازنة والمفاضلة بينهما كلام عريض . والنتيجة التي يرضاها كل من تتبع كلامهما ان أبا تمام ألين كلاما وأقرب الى الاساليب الشعرية من المتنبي ، وأن المتنبي أغزر حكمة وأسير مثلا وأدق معنى وللمتنبي من الحكمة والامثال ما يربو به على كل شاعر تقدمه ، وقد

أصبح للغة العربية من كلامه ثروة لم تكن لها لولاه ، وما من كاتب أو خطيب أو متكلم أو مناظر أو مدرس إلا وله من حكم المتنبي مدد أيما مدد وثققة المتنبي بنفسه في اللغة والنحو وقلة حفله بعلماء زمانه وتكبره وصلفه جعل غايته من شعره إبراز معانيه الشريفة وأفكاره الدقيقة ، على أي لفظ كان وبأي أسلوب نهياً له ولو لم يجز على مشهور القياس ، أو ينطبق على وجوه البلاغ والاساليب الشعرية السهلة ، ولذلك تجد في كلامه كثيراً من الغرابة ومن التعقيد المعنوي واللفظي ، ولكنه طرح التورية والجناس الشائعين في زمنه جانبا ، ولولا شذوذه وميله إلى الغريب ، ومخالفته لذوق بعض أهل زمانه ، لم يكن لحساده مطعن عليه ، وقد لا تعدم الحسنة إذا ما

وقد قال المتنبي الشعر في كل غرض من أغراضه وأجاد في وصف المعارك والعتاب ، أما مدائحُه فهي أكثر بضاعته ، وقلم ترك فيها معنى لم يطرقه وللمتنبي ديوان شعر مشهور طبع مراراً بمصر وشرح بأكثر من أربعين شرحاً ، منها شرح العكبري في جزأين كبيرين ، وهو مطبوع مشهور في مصر وشعره مشهور محفوظ نكتفي منه بذكر بعض حكمه وأمثاله .

أبيات متفرقة للمتنبي

وكل امرئ يولى الجميل محب _____ وكل مكان يُنبت العز طيب

في سعة الخارقين مضطربٌ _____ وفي بلاد من أختها بدل

من يهن بسهل الهوان عليه _____ ما لجرح يميت ايلام

الحب ما منع الكلام الألسنا وألذ شكوى عاشق ما أعلننا
 أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
 وأتعب من ناداك من لا يجيبه وأغیظ من عاداك من لا تشا كل
 إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا
 فوضع الندي في موضع السيف بالاعلا مضر كوضع السيف في موضع الندي
 وما قتل الأحرار كالغفو عنهم ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
 وما الجمع بين الماء والنار في يدي بأصعب من أن أجمع الجد والفهما
 يخفي العداوة وهي غير خفية نظر العدو بما أسر يوح
 والأمر لله ! رب مجتهد ما خاب إلا لأنه جاهد
 اليك ! فاني است ممن اذا اتقى عراض الأفاعي نام فوق العقاب
 وليس يصح في الأذهان شيء اذا احتاج التهار الى دليل
 وقد يتزيا بالهوى غير أهله ويستصحب الانسان من لا يشا كله
 ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن
 ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد
 واذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

فان يكن الفعل الذى ساء واحدا فأفعاله اللاتى سَرَرَن أوف

اذا أتت الاساءة من لئيم ولم ألم المسىء فمن أوم

واذا أتت مذمتى من ناقص ففى الشهادة لى بأنى كامل

واذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزلا

ومن الخير بطاء سيدك عنى أسرع السحب فى المسير الجهم

أبلغ ما يطلب النجاح به الطمىع وعند التعمق الزلل

ذرىنى أنل ما لا ينال من العلا

فصعب العلافى الصعب والسهل فى السهل

تريدىن ادراك المعانى رخيصة ولا بددون الشهد من إيرا النحل

ومكايد السفهاء واقعة بهم وعداوة الشعراء بئس المقتنى

تصفوا الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع

ولمن يغالط فى الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

واذا خفيت على الغبى فعاذر ألا ترانى مقلة عمياء

واحتمال الأذى ورؤية جانبيه غذاء تضوى به الاجسام

اذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظن أن الليث يبتسم
 أعيدها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
 وما انتفاع أخى الدنيا بناظره اذا استوت عنده الأنوار والظلم
 يامن يعز علينا أن تفارقهم وجدانا كل شئ بعدكم عدم
 ان كان سرهم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا أرضاكم ألم
 وبيننا لورعيتهم ذاك معرفة ان المعارف في أهل النهى ذم
 كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
 اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم

اذا نلت منك الودَّ فالمال هين وكل الذي فوق التراب تراب

فما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للبهلال

فان تفق الأنام وأنت منهم فان المسك بعض دم الغزال

فان يك سيار بن مكرم انقضى فانك ماء الورد ان ذهب الورد

فان تكن تغلب الغلباء عنصرها فان في الخرمعنى ليس في العنب

وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلنى أنه بعض الأنام

أتى الزمان بنوه في شببته فسرهم وأتيناها على الهرم

رمانى الدهر بالازراء حتى فوادى في غشاء من نبال

فصرت اذا اصابني سهام تكسرت النصال على النصال

وما أخصك من براء بتهنئة اذا سامت فكل الناس قد سلموا

تجاوز قدر المدح حتى كأنه بأحسن ما يثنى عليه يعاب

خير أعضائنا الرؤوس ولكن فضلتها بقصدك الأقدام

وما الحسن في وجه الفتى شرفه ولكنه في فعله والخلاق

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف من الحمام

عش عزيزا أومت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

وأتعب خلق الله من زادهم وقصر عما تشتهي النفس ووجدته

لحى الله ذى الدنيا مناخا لراكب فكل بعيد الهمة فيها معذب

وما زلت حتى قادني الشوق نحوه يسايرني في كل ركب له ذكر

واستكبر الاخبار قبل لقائه فلما التقينا صغر الخبر الخبر

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

وما كل هاد للجميل بفاعل وما كل فعال له يتمم

انما تنجح المقالة في المرء اذا صادفت هوى في الفؤاد

واذا الحلم لم يكن في طباع لم يُحتمَّ تقادم الميلاد

وجائزة دعوى المحبة والهوى وان كان لا يخفى كلام المنافق
وما يوجع الحرمان من كف حارم كما يوجع الحرمان من كف رازق

من أطاق التماس شيء غلابا واقتسارا لم يتمسه سؤالا
كل غاد حاجة يتمنى أن يكون الغضنفر الرئبالا

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والاقدام قتال
وانما يبلغ الانسان غايته ما كل ماشية بالرحل شمالا
انا لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس احسان واجمال

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم
وكل شجاعة في المرء تغنى ولا مثل الشجاعة في الحكيم
وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
لا يخذعك من عدو دمه وارحم شبابك من عدو ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجرد ذا عفة فلعلة لا يظلم
ومن البلية عدل من لا يرعوي عن غيه وخطاب من لا يفهم
ومن العداوة ما ينالك نفعه ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه حريصا عليها مستهما ما بها صبا
فحب الجبان النفس أوردته التقى وحب الشجاع النفس أوردته الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد الى ان ترى احسان هذا للذاذبا
من اقتضى بسوى الهندي حاجته أجب كل سؤال عن هل بلم
ولم تزل قلة الانصاف قاطعة بين الرجال وان كانوا ذوى رحم
هون على بصر ما شق منظره فانما يقظات العين كاللحم
وكن على حذر للناس تستره ولا يغرنك منهم ثغر مبتسم
الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى
فاذا هما اجتمعا لنفس حرة بلغت من العلياء كل مكان
ولربما طعن الفقى أقرانه بالرأى قبل تطاعن الأقران
لولا العقول لكان أدنى ضيفم أدنى الى شرف من الانسان
أبى خلق الدنيا حيبا تديمه فما طلبى منها حيبا ترده
وأسرع مفعول فعلت تغيرا تكلف شئ فى طباعك ضده
وأحسن وجه فى الورى وجه محسن وأمين كف فيهم كف منعم
وأشرفهم من كان أشرف همة وأكثر اقداما على كل معظم
لمن تطلب الدنيا اذا لم تُرد بها سرور محب أو مساءة مجرم
فواد ما تسليه المدام وعمر مثل ما تهب اللثام
ودهر ناسه ناس صغار وان كانت لهم جثث ضخام

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
فشبه الشيء منجذب اليه وأشبهنا بدنيانا الطعام
ولو صين الحفاظ بغير لب تجنب عنق صيقله الحسام
ولو لم يعمل الا ذو محل تعالى الجيش وانحط القمام
ولذيذ الحياة أنف في النف س وأشهى من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فامل حياة ولكن الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب فاذا وليا عن المرء ولي
سالم أهل الوداد بعدهم يسلم للحزن لا لتخليد
فما يرجي الخلود من زمن أحمد حاله غير محمود
وقد فارق الناس الأوبة قبلنا وأعياء دواء الموت كل طيب
سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها منعنا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتي تملك سالب وفارقها الماضي فراق سلب
وما منزل اللذات عنى بمنزل اذا لم أبجل عنده وأكرم
وشر ما قنصته راحتي قنص شهب الهزاة سواء فيه والرخم
أزالت بك الأيام عتي كأنما بنوها لها ذنب وأنت لها عذر
وشكيتي فقد السقام لأنه قد كان لما كان لي أعضاء
وان أسلم فما أبقى ولكن سلمت من الحمام الى الحمام

ومن قوله

ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى أن الكواكب في التراب تمور
 ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى رضى على أيدي الرجال يسير
 خرجوا به ولكل باك حوله صعقات موسى يوم ذلك الطور
 حتى أنوا جدنا كأن ضربه في كل قلب مؤجده محفور
 كفل الثناء له برد حياته لما انطوى فكأنه منشور

أبو فراس الحمداني

هو الأمير أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي، أمير الشعراء،
 وشاعر الأمراء، وأحد صناديد تغلب الغلباء، وآخر من مثلت في شعرهم حماسة
 العرب العرباء، وهو ابن عم سيف الدولة بن حمدان، وكان من أكبر قواده
 وأعزهم عليه، وأقطعه مرة مدينة منبج مكافأة له على احسانه في شعر قاله
 وحضر مع سيف الدولة أكثر وقائعه مع الروم فأسر مرتين وأدرك في
 أحداها مشحنا بالجراح وحمل الى خرشنة ثم الى القسطنطينية، وبقى بها أربع
 سنوات نظم في خلالها قضائد ومقطعات بليغة يستعطف بها سيف الدولة
 ورؤساء قومه سميت بالروميات، حتى وقع الفداء بين المسلمين والروم. ومات
 سيف الدولة وخلفه ابنه أبو المعالي ابن أخت أبي فراس، فأراد أبو فراس أن
 يضم اليه مدينة حمص، فتهدد له أبو المعالي وجرت بينهما موقعة قتل فيها أبو
 فراس وعمره لم يزد على ٣٧ سنة وذلك سنة ٣٥٧ هـ

منزلته في الشعر: — كان أبو فراس آخر أمير بدوي حاكي في غزله ونسيبه وعتابه وحماسته فصحاء الاعراب . وكان بذلك يمتاز عن شعراء أهل زمانه لمكان الملك والفتوة .

وكان أبو الطيب يحله ويعترف بتقدمه في الشعر وتهيئه ولا يجترى عليه في منازلة ولا مناقضة، وكان شعره يجمع بين السهولة والجزالة والحلاوة ولم يجتمع هذه الخلال إلا لابن المعتز قبله ، وشعر هذا أدخل في الطبع من شعر ابن المعتز

ومن شعره في السلو والشكوى

وان جمعنا في الأصول مناسب

أراني وقومي فرقنا مذاهب

وأقربهم مما كرهت الأقارب

فأقصاهم أقصاهم من مساءتي

وحيد وحولي من رجالى عصائب

غريب وأهلى حيث ما كنت ناظري

وجارك من صافيته لا المصائب

نسيك من ناسبت بالود قلبه

وأهون من عاديته من تحارب

وأعظم أعداء الرجال ثقاتها

وما ذنبه ان حاربه المطالب

وما الذنب الا العجزير كبه الفقى

فالذل منه لا محالة جانب

ومن كان غير السيف كافل رزقه

وقال في طعنة أصابت خده

ظلت تقابله بوجه عابس

لما رأته أثر السنان بخده

بدس الخلافة للمحب البائس

خلف السنان به مواقع لئما

يوم الطعام يصحن خد الفارس

حسن الثناء بقمح ما صنع القنا

وقال

عرفت الشر لا للثمر لكن لتوقيه
فمن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه
أخذه من قول عمر رضى الله عنه وقد قيل له فلان لا يعرف الشر فقال ذلك
أخرى أن يقع فيه

وكتب الى بعض مواليه من سجنه بالقسطنطينية

يا ليل ما أغفل عمالي حباثي فيك وأحبابي
يا ليل نام الناس عن موجه ناء على مضجعه نالي
هبت له ريح شامية تمت الى القلب بأسبابي
أدت رسالات حبيبها فهمتها من بين أصحابي

وتنسب اليه القصيدة التي يتغنى بها الآن وأولها

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر
وديوان شعره مشهور مطبوع فراجعه ان شئت

أبو العلاء المعري

هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري التنوخي الشاعر
الفيلسوف المتقن الزاهد صاحب التصانيف المشهورة والرسائل الماثورة. وهو عربي
صميم من تنوخ إحدى بطون قضاة وبيته بيت علم وقضاء وفضل
منسوبة: — ولد بجمعة النعمان من شرقي الشام سنة ٣٦٣ هـ وجدري في
الثالثة من عمره، فغشي معنى عينيه بياضٌ وذهبت اليسرى جملة. نشأ بين

أهله بالمعرة فتعلم النحو والعربية على أبيه وغيره من أئمة زمانه ، وخرج آية في الذكاء وحدة الحفظ، وكان يحفظ كل ما سمعه من مرة واحدة ، ولذلك كان يجلس في دكا كين الوراقين فيحفظ كل ما يسمعه، وكان بطرابلس الشام دار كتب عظيمة موقوفة على أهل العلم فقراً كثيراً منها ووعاه (وهي دار آل عمار التي حرقها الصليبيون عند استيلائهم عليها) وقال الشعر وعمره إحدى عشرة سنة ودخل بغداد سنة ٣٩٨ هـ ودخلها ثانية سنة ٣٩٩ فاقام بها سنة وسبعة أشهر ، وأقبل عليه السيد المرتضى اقبالا عظيماً، ثم جفاه وأبعده من مجلسه . قيل لأنه جرى ذكر المتنبي بحضرته فغض منه . فقال أبو العلاء : لو لم يكن له الا قوله

لك يا منازل في القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أو اهل
لكفاه فأمر بطرده ثم قال : أفظنتكم لما يريد هذا الأعمى ؟ قالوا : لا . قال : يريد
قوله في هذه القصيدة

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

فتعجب الناس من كليهما

ولما رجع المعري الى بلده أقام ولم يبرح منزله ونسك وسمى نفسه رهن المحبسين محبس العمى ومحبس المنزل، فوفد عليه الطلاب والأدباء والرواة والمتفلسفة وكاتبه الوزراء والعلماء، وبقي في منزله مكباً على التدريس والتأليف ونظم الشعر مقتنعاً بعشرات من الدنانير في العام يستغلها من عقار له الى أن مات سنة ٤٤٩ هـ بالمعرة وأوصى أن يكتب على قبره

هذا جناه أبي عليّ م وما جنيت على أحد

لأنه عاش عزباً

اعتقاده ومذهبه : — والمعري كثير من الشعر يناقض بعضه بعضاً

في حقيقة العالم والشرائع والمعبود، فتارة يجارى المؤمنين، وطورا ينحرف الى اعتقاد الملاحدة والدهريين ، وكان لا يذبح الحيوان ولا يأكل ذا روح ولا ما يخرج منه، واكتفى بالنبات والفاكهة والدبس وسئل في ذلك فقال أرحم الحيوان واني فقير

ولناس فيه أقوال كثيرة ، فبعضهم يقول انه كان لكلامه باطن وظاهر كالصوفية وتأولوا الموهم الزبغ منه، وبعضهم يقول ان أعداءه وحساده دسوا عليه كل هذه الاشعار الضالة ، وبعضهم يقول أنه كان كافرا يرى رأى البراهمة ، وبعضهم يقول انه كان شاكاً متحيراً، وأنا أميل الى ذلك

منزله في الشعر — : كان أبو العلاء أحكم من رأى الناس بعد أبي

الطيب ، وكان يزيد عليه في الغريب والخيالات الدقيقة ، ويتكلم في الطبائع ووسائل الاجتماع البشري وعادات الناس وأخلاقهم ومكرهم وظلمهم ونظام الحكومات والقوانين. فهو من هذه الوجوه يمتاز عن المتنبى . ولذلك يفضلته متأدبو الفرنجة ومستعربوهم عليه وهو في هذه الأمور معدوم النظير ، ولم ينظم في الملة أحد غيره فيها

وله شعر كثير وعدة دواوين . منها ديوانه سقط الزند ، وفيه أشعاره

الادبية والمدائح ، ومنها ديوان في وصف الدرع ، ومنها ديوان لزوم ما لا يلزم في جزأين كبيرين التزم فيه حرفاً قبل الروى وضمنه (اعتقاداته وأفكاره) فتقيد بقيود حبست أفكاره وأنهكت معانيه ، فجاءت ألفاظه غريبة وأساليبه معقدة

وعندى أن هذا أمقت شدوذ له . وإلا فما للفيلسوف والقيود . وقد كان له فى نظم الأفكار التى لم يخطر على قلب أحد سواه غنية وشهادة على براعته وسبقه، ولله فى خلقه شؤون . وله ديوان رسائل مطرلة وكتب أخرى مطبوعة فى مصر وغيرها، ويقال أنه ألف كتابا سماه الأيك والغصون، ويعرف بالهمز والردف خفى أثره . وشرح ديوان المتنبي وسماه اللامع العزيزى . واختصر ديوان أبى تمام وسماه (ذكرى حبيب) وديوان البحترى وسماه (عبث الوليد) وديوان المتنبي وسماه (معجز أحمد) ومن مختار أشعاره قوله فى مرثيته المشهورة

غير مجد فى ماتى واعتقادى	نوح بك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعيّ اذا قيه	س بصوت البشير فى كل ناد
أبكت تلکم الحمامة أم غذ	ت على فرع غصنها المياد
صاح هذى قبورنا مالا الرّح	ب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطاء ما أظن أديما	لأرض الامن هذه الأجساد
وقبيح بنا وان قدم العم	د هوانُ الآباء والأجداد
سران استطعت فى الهواء رويدا	لا اختيالا على رفات العباد
رب الحد قد صار الحد امرارا	ضاحك من تراحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين	فى طويل الأزمان والآباد
فاسأل الفرقدین عن أحسا	من قبيل وآنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهار	وأنارا المذبح فى سواد
تعبٌ كلها الحياة فساء	عجب الامن راغب فى ازدياد

ان حزنا في ساعة الموت أضعاف سرور في ساعة الميلاد
خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاد
اتما ينقلون من دار أعما ل الى دار شقوة أورشاد

وهي طويلة ومنها

بأن أمر الاله واختاف الناس فداع الى ضلال وهاد
والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد
فالليد الميب من ليس يغتر م بكون مصيره للفساد

ومن قوله الموهم من لزومياته

ضحكنا وكان الضحك مناسفاهة وحق اسكان البسيطة أن يبكوا
تخطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

ومن قوله في اللزوميات

كم بودرت غادة كهوب^١ وغودرت أمها العجوز
أحرزها الوالدان خوفا والقبر حرز لها حريز
يجوز ان تبطى المنايا والخلد في الدهر لا يجوز

وجيده كثير فراجعه في ديوانه ان شدت

(١) ابن الفارض

هو أبو حفص وأبو القاسم شرف الدين عمر بن علي بن المرشد بن علي
المشهور بابن الفارض أشعر الصوفية وأشهر من كلف بتكليف المحسنات البديعية

(١) الفارض الذي يكتب الفروض للنساء

وأصل آباؤه من حماة . وولد هو بالقاهرة سنة ٦٧٥ هـ وطلب العلم والأدب وحفظ من اللغة ما قل أحد من أهل زمانه أن يحفظه . ثم دخل في طريقة الصوفية وأهل الشطح والمواجد فتقدم فيها وفتحت له أسرارها ، فنظمها ووصف مقاماتها بشعر جمع فيه بين صنعة عشاق الجناس والطباق ، وبين معاني القوم الرقاق ورموزهم الدقاق ، ومن العجب اجتماع الخالين ، وشتان ما بين الطرفين .

وكان ابن الفارض على تواجده جميل الهيئة حسن الشارة دقيق الإشارة ظريف المحضر محمود العشرة . جاور بمكة مدة ثم رجع مصر . وبقى مرضى الطريقة حتى مات سنة ٦٣٢ هـ ودفن بسفح المقطم وضريحه مشهور بزور .

ومن شعره قصيدته الثابتة التي جمعت جميع مراتب القوم بطريقة الرمز والكناية عن مقامات التقرب والرضا ، بذكر أحوال العشاق وفتياتهم وحانات شربهم . وتبلغ هذه القصيدة نحو ستمائة بيت وأكثر شعره على منوالها بل أرق منها وأولها .

نعم بالصبا قلبي لأجبتى	فيا حبذا ذاك الشذا حين هبت
تذكرنى العهد القديم لأنها	حديثه عهد من أهيل مودتى
ومن رقيق شعره قوله من قصيدة	
أعد ذكر من أهوى ولو بلام	فان أحاديث الحبيب مداى
كان عدولى بالوصال مبشرى	وان كنت لم أطع بردسلام
طريح جوى صب جريح جوارح	قريح جفون بالدوام دواى
صحيح عليل فاطلبونى من الضنا	ففيها كما شاء النحول مقامى

وديون شعره كله على النمط وهو مطبوع مشهور وشروحه كثيرة مطبوع بعضها فراجعها ان شئت

ابن النبيه

هو كمال الدين على بن محمد بن الحسن المصرى أبلغ مُدّاح بنى أيوب وأغزلهم وأطبع عشاق البديع وأمثلهم .
نشأ في مصر وخدم في ديوان الانشاء وتآدب بكبار رؤسائه مثل القاضي الفاضل وغيره .

ولما انتزع الملكُ العادل أبو بكر أخو صلاح الدين مُلكَ مصر من الملك المنصور ابن ابن أخيه اتصل ابن النبيه بخدمته ومدحه بعدة قصائد .
ولما ملك الشام والجزيرة وأرمينية وقسم البلاد بين أولاده أعطى ولده الملك الأشرف موسى بلاد نصيبين وأطراف أرمينية فأكل فتحها، ولقب بشاه أرمن، وجعل ابن النبيه في بطائنه واتخذ كاتب انشائه وحظي عنده ومدحه بقصائد قلما مدح بعده بمثله ملك من بنى أيوب

وسكن ابن النبيه نصيبين وبقى بها بقية حياته حتى مات سنة ٦١٩ هـ عن نحو ٦٠ سنة

وكان ابن النبيه ممن مشى تحت لواء القاضي الفاضل في سلوك الطريق البديعية في شعره ونثره الا أنه لم يكن يحاكيه في الجنس ولا التورية ولا يعتد بهما كثيرا . وأكثر ما كان يواع به في شعره الطباق بأنواعه والاقْتباس والتلميح والاستعارة البديعة . وكان يمتاز فوق هذا كله بالرقّة والسهولة

والانسجام وتصور المعانى البديعة والتشبهات الجميلة . وكانت تصل به مبالغته في وصف ممدوحه الى حد المقت

ويعد ابن النبيه من أرق أصحاب الغزليات والخريات ، وقصائده ومقطعاته في ذلك كانت علما لمن سلك هذه الطريقة بعده مثل التلعفري والبيهاء زهير وابن نباته وغيرهم ، كما انه يعد ممن يجيد المراثي .

فن خمرياته المشوبة بالغزل قصيدته المشهورة التي مدح بها أمير المؤمنين الخليفة الناصر . ومنها :

باكرُ صبوحك أهنا العيش باكرُهُ	فقد ترنم فوق الأيك طائرُهُ
والليل تجرى الدرارى في مجرته	كالروض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصبح نجاب على يده	مخلق تملأ الدنيا بشائره
فانهض الى ذوب ياقوت لها حبيب	ينوب عن ثغر من تهوى جواهره
حراء في وجنة الساقى لها شبهه	فهل جناها مع العنقود عاصره
ساق تكون من صبح ومن غسق	فايض خداه واسودت غدائره

وكأها على هذا النحو

ومن بديع قصائده قصيدته التي مدح بها الملك الاشرف والتي يقول في أولها .

من سحر عينيك الأمان الأمان	قتلت رب السيف والطيلسان
أسمرُ كالرمح له مقلةٌ	لولم تكن كحلاء كانت سنان
يزداد اذ أشكوه قسوة	ولو شكوتُ الحب للصخر لان

وختم مدحها بقوله

دمتم بنى أيوب فى نعمة تجوز فى التخليد حدّ الزمان
والله ما زاتم ملوك الورى شرقا وغربا وعلى الضمان
ورثى ولدًا ابن الخليفة الناصر بقصيدة تعدّ من عيون المراثى . ومنها :

الناس للموت كحيل الطراد فالسابقُ السابقُ منها الجواد

والله لا يدعو الى داره الامن استصلح من ذى العباد

والموتُ نقادٌ على كفه جواهرٌ يختار منها الجياد

والمرء كالظل ولا بد أن يزول ذلك الظل بعد امتداد

لا تصلح الارواح الا اذا سرى الى الأجساد هذا الفساد

ومنها . دفنت فى التراب ولو أنصفوا ما كنت الا فى صميم الفؤاد

وله ديوان شعر لطيف يظهر انه جمعه من مختار شعره وهو مطبوع مشهور

البهاء زهير

هو الشاعر الكاتب الوزير أبو الفضل زهير بن محمد بن على المهلبى

الأزدى المصرى صاحب السهل الممتنع والغزل الرقيق والعتاب الرفيق .

ولد بوادى نخلة قرب مكة فى ذى الحجة سنة ٥٨١ هـ ونشأ بمصر

وأجاد فنون العربية فبرع فيها نظما ونثرا وخطا، ثم اتصل بخدمة الملك الصالح

نجم الدين أيوب، وخرج معه فى خدمته الى بلاد الشام والجزيرة، حتى نكب

الملك الصالح بخيانة عسكره وانضوائهم الى ابن عمه الملك الناصر صاحب

الكرك . فقبض عليه واعتقله بقلعة الكرك، فحفظ البهاء عهد صاحبه ولم يخدم

غيره، وأقام بنا بلس حتى تقلبت الأحوال، واسترد الصالح ملك الديار المصرية.

فقدم اليها في خدمته واتخذوه وزيره وموضع سره وأحله منزلة لم تكن لغيره لحسن وفائه ورياضة أخلاقه وودمائه سجاياه . ونفع بخدمته خلقا كثيرا . وبقى أثيرا عند الملك الصالح حتى مات فلزم داره . وحدث بالقاهرة في شوال سنة ٦٥٦ هـ وباء مات به ودفن بالقرافة . وهي السنة التي سقطت فيها بغداد في يد التتار . وكانت سهولة طباع البهاء تفوق سهولة شعره . وان كان الشعر يشف عن اخلاق صاحبه ورقته فأحرى به أن يكون شعر زهير . واتفق أهل زمانه ومن بعده انه لم يوجد في المحدثين أسهل نظما ولا أرق لفظا ولا أكثر تشريفا للمعاني المبتدلة منه . وأجود شعره ما كان في المغازلة والمعابثة والمعاتبة . ولم تنفق له سوق كبير في غيرها . وأكثر معانيه عادية عامية الا أنه كساها دياجة من لفظه وسهولة أسلوبه رفعتها في أعين اهل الذوق بالصناعة الى مرتبة أحرار المعاني

ومن غزله الرقيق قوله

تعيش أنت وتبقى	أنا الذي مت حقا
حاشاك يا نور عيني	تلقى الذي أنا ألقى
قد كان ما كان مني	والله خير وأبقى
ولم أجد بين موتى	وبين هجرتك فرقا
يا أنعم الناس قل لي	الى متى فيك أشقى
سمعت عنك حديثا	يارب لا كان صدقا
حاشاك تنقض عهدي	وعروتي فيك وثقى
فما عهدتك الا	من أكرم الناس خلقا
يا ألف مولاي أهلا	يا ألف مولاي رفقا

لك الحياة فاني أموت لا شك عشقا
لم يبق مني الا بقية ليس تبقى
وقوله غيرى على السلوان قادر
لى فى الغرام سريرة والله أعلم بالسرائر
ومشبهه بالغصن قلا بى لا يزال عليه طائر
حلو الحديث وانها لخلوة شقت مرائر
أشكو وأشكر فعله فاعجب لشاك منه شاكر
لا تنكروا خفقان قلا بى والحبيب لى حاضر
ما القلب الا داره ضربت له فيها البشائر
يا تاركى فى حبه مثالا من الأمثال سائر
أبدا حديثى ليس با منسوخ الا فى الدفاتر
يا ليل مالك آخر يرجى ولا للشوق آخر
ياليل طل يا شوق دم انى على الخالين صابر
لى فيك أجر مجاهد ان صح ان الليل كافر
طرقى وطرف النجم فيه لك كلاهما ساه وساهر
يهنيك بدرك حاضر ياليت بدرى كان حاضر
حتى يبين لناظرى من منهما زاه وزاهر

وتنسب هذه القصيدة لابن الفارض وهى ليست من مشربه إلا فى كثرة
المحسنات البديعية وتلك شبهة من نسبها له وهى مثبتة فى كل النسخ من
ديوان زهير مع تعيين الزمان والمكان اللذين قيلت فيهما

﴿ فهرست مواد العصر العباسي ﴾

صحيفة	صحيفة
٢٦ شيب بن شيبه الاهتمى	٢ كلمة الناشر
٢٨ الكتاب والكتاب	٣ العصر الاول
٢٨ حالة الكتابة بوجه عام	٣ تمهيد
٣٠ كتابة الدواوين والرسائل	٤ حالة اللغة في ذلك العصر
٣٠ الدواوين	٤ التغيرات المتعلقة بأصول
٣١ الرسائل (ديوان الرسائل)	الاجتماع
٣١ كتابة الرسائل	٥ التغيرات المتعلقة باللغة والادب
٤٢ كتاب الرسائل وطبقاتهم	٦ اغراض اللغة
٤٣ ابن المقفع	٧ المعاني والتصورات الفكرية
٥١ جعفر بن يحيى	٨ الالفاظ والاساليب
٥٥ أحمد بن يوسف	١١ النثر
٥٨ عمرو بن مسعدة	١١ المحادثة أو لغة التخاطب
٦٢ محمد بن الزيات	١٤ الخطابة والخطباء
٦٦ ابراهيم الصولي	١٥ داود بن علي
٧١ الترويض والتصنيف	١٩ أبو جعفر المنصور
٧٤ موضوعات العلوم الاسلامية	٢٣ الامون
٧٤ كتابة التصنيف في العلوم الاسلامية	٢٥ عبد الملك بن صالح الهاشمي

صحيفة	صحيفة
أئمة الكوفيين ١٠٦	٧٧ موضوعات العلوم الدخيلة
معاذ الهراء ١٠٦	٧٧ كتابة التصنيف في العلوم
الكسائي ١٠٦	الدخيلة وترجمتها
الفراء ١٠٨	٧٩ نشأة العلوم الاسلامية
علم التفسير ١٠٩	٧٩ تقسيمها الى علوم اللغة العربية
الحديث ١١٢	والشرعية
أئمة الحديث ١١٤	٧٩ علم الاب
البخارى ١١٤	٨٢ الجاحظ
مسلم ١١٦	٨٩ علما العروض والقافية
علم الفقه ١١٦	٩٢ النحو وطبقات أئمة
علم الاصول ١١٩	٩٥ مذهب الكوفيين والبصريين
أئمة المذاهب الاربعة ١٢٠	٩٦ علم اللغة
الامام أبو حنيفة ١٢٠	٩٨ علوم البلاغة
الامام مالك ١٢١	١٠٠ أئمة العربية
الامام الشافعي ١٢٣	١٠٠ أئمة البصريين
الامام أحمد بن حنبل ١٢٥	١٠٠ الخليل بن أحمد
علم الكلام ١٢٦	١٠٢ سيديويه
أبو الحسن الأشعري ١٢٩	١٠٣ أبو الحسن الاخفش
فن التاريخ ١٣١	١٠٤ المبرد
نشأة العلوم الدخيلة وترجمتها ١٣٢	١٠٥ ابن دريد

صحيفة	صحيفة
١٩٦ الاصمعي	١٣٦ الشعر
١٩٧ الاعرابي والمفتون	١٣٦ حالة الشعر بوجه عام
١٩٨ ابراهيم الموصلي	١٣٨ فنونه وأغراضه
١٩٩ اسحق الموصلي	١٤١ معانيه وخیالاته
٢٠١ العصر الثاني	١٤١ الفاظه وأساو به
٢٠١ تمهيد	١٤٢ أوزانه وقوافيه
٢٠٢ رسالة المنيرة والردب بالمشرق	١٤٣ الشعراء وطبقاتهم
٢٠٤ التغيرات الطارئة عليهما	١٤٤ بشار بن برد
٢١٠ النثر	١٥٥ مروان بن أبي حفصة
٢١٠ لغة التخاطب أو العامية	١٥٨ أبو نواس
٢١١ الخطابة	١٦٤ مسلم بن الوليد
٢١٢ الكتابة	١٧٠ أبو العتاهية
٢١٣ كتابة الرسائل	١٧٤ أبو تمام
٢١٥ كتاب الرسائل	١٧٨ دعبل الخزاعي
٢١٥ ابن العميد	١٨٣ البحتري
٢١٨ الصاحب بن عباد	١٨٦ بن الجهم
٢٢٠ أبو بكر الخوارزمي	١٨٨ ابن الرومي
٢٢١ بديع الزمان	١٩١ ابن المعتز
	١٩٥ الرواية والرواة

صحيفة	صحيفة
٢٤٩ علم الاخلاق	٢٢٤ الصلبي
٢٤٩ العلوم الدخيلة	٢٢٧ الترويض والتصنيف
٢٥٠ الشعر	٢٢٩ كتابة التصنيف
٢٥٢ الشعراء	٢٣٠ العلوم اللسانية
٢٥٣ الشريف الرضى	٢٣٠ علم الادب
٢٥٥ ميار الديلمي	٢٣١ الاسمار والخرافات
٢٥٦ الطغرأبي	٢٣٢ كتاب الف ليلة وليلة
٢٥٧ رسالة اللغة العربية في الممالك	٢٣٣ أبو الفرج الاصبهاني
التمريزية	٢٣٥ كتاب الاغانى
٢٥٩ الشعر	٢٣٧ الحربرى
٢٥٩ العامة أد لغة الخطاب	٢٣٨ العروض والقافية
٢٥٩ الخطابة	٢٣٩ النحو
٢٦٠ الكتابة	٢٤٠ اللغة
٢٦١ الكتاب	٢٤٢ علوم البلاغة
٢٦٢ القاضى الفاضل	٢٤٣ العلوم الشرعية
٢٦٥ التدوين والتصنيف في الممالك	٢٤٣ التفسير والحديث
المغربية	٢٤٥ الفقه والاصول
٢٦٦ كتابة التصنيف فيها	٢٤٦ علم الكلام
	٢٤٦ علوم أخرى
	٢٤٧ التاريخ

صحيفة	صحيفة
٢٧١ التاريخ	٢٦٧ مجمل حالة العلوم الاسلامية
٢٧٢ الشعر	والدخيلة بها
٢٧٤ الشعراء	٢٦٧ الادب
٢٧٥ المتنبي	٢٦٨ النحو
٢٨٨ أبو فراس	٢٦٩ اللغة
٢٩٠ أبو العلاء المعري	٢٦٩ علوم البلاغة
٢٩٤ ابن الفارض	٢٦٩ التفسير والحديث
٢٩٦ ابن النبيه	٢٧٠ الفقه والاصول
٢٩٨ البهاء زهير	٢٧٠ الكلام
(تم)	٢٧١ العلوم الدخيلة

تنبيه - أشير في هذه المذكرة الى بعض المباحث التي يجهل أحوال اللغة والادب والعلم في عصر بني أمية ، لان الطلبة الذين كتبت لهم فوت عليهم دراسة أحوالها في ذلك العصر تغير برنامج الدراسة

﴿ بيان الخطأ والصواب الواقع في هذا الكتاب ﴾

صواب	خطأ	سطر صحيفة	
رُقعة	رفعة	٢٩	٣
الكناية	الكتابة	٣٣	١٦
مَعْنَى	مُعْنَى	٣٤	٤
الخُرْمَى	الحزْمَى	٣٦	١٩
في الالقب	في ألقاب	٤٠	١٨
خوز	حوز	٤٣	١٠
المرقونية	المرقوية	٤٥	١٤
عندنا الاغتفار	عندنا الاعتقاد	٥٣	١٥
بعض أيام الامين	أيام بعض الامين	٥٥	٩
غلمانه رقعة	غلمانه	٥٩	٧
في الوزراء	في الوزارة	٥٩	١٦
منه ابرهيم بن المهدي	من ابرهيم المهدي	٦٢	١٢
متعوضا	متعرضا	٦٥	٥
أيام	امام	٦٨	١١
ان ينقلوا الى العربية من	ن ينقلوا من الغربية الى	٧٢	١٨
زخرت	ذخرت	٧٣	١٧ و ١
كتاب البيع	البيع	٧٦	١٣
واستحصفت	واستُحصفت	٧٧	٢
طوال	طوال	٨٠	٧

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
الكامل والروضة	الكامل الروضه	٨١	٨
الجهشياري	الجهشبارى	٨١	١١
٥٢٥٥	٣٥٥	٨٤	٣
الكتب	الكسب	٨٤	١٧
بصحة النعمة	بصحة النعمة	٨٨	٤
بعنايه	لعنايته	٨٩	٢
مستفعلن	مستفعلن	٩١	١٨
هرمز الاعرج	هرون الاعرج	٩٢	١٠
جاليه	جماليه	٩٥	٨
وأنفذ	وأنفذ	١٠٧	٤
صحيحها	صحيحا	١١٣	٨
عن محمد	عنه محمد	١١٧	١٣
خمسة	سته	١١٩	٩
تجديد	تجريد	١٢٢	٣
الطالبين	الطالبين	١٢٤	٩ و ٨
بالرقة	بالرقة	١٢٤	٩
أشبهه	شبهه	١٤٧	٧
لكلمات	الكلمات	١٤٨	٢
وراءه	وراءها	١٤٨	٤
يتعابن	يتعابن	١٤٩	١٤

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
في الشعر	في	١٥١	٨
أبكر	أنكر	١٥٣	١٨
وفي رواية	رفي رواية	١٥٣	١٩
أى يوميه	أى يومه	١٥٨	٥
الهوى	لهوى	١٦٢	٥
ليس	وليس	١٦٣	١٢
الجواد بها	الجود بها	١٦٧	١١
يطعمها	يطعها	١٦٨	١٧
الإغنياء	الإغنياء	١٦٩	٢١
ملازمها حتى صارت	ملازمها صارت	١٦٩	٢١
قوصرتين	قوصرين	١٧٢	٧
آيات	ابات	١٨١	١
رأس	رأى	١٨١	١٦
يزرى	يزرى	١٨٧	٣
لان فرض	لانه فرض	٢٣٨	٩
دراسته	دراسة	٢٤٠	٧
الغريبة	العربية	٢٦٦	١٢
زكريا	ذكريا	٢٧٠	١٣